



هيروشيما

حكايا ستة ناجين
من كارثة القنبلة الذرية

جون هيرسي

ترجمة: عبدالله بن صالح العجيري

هيروشيما


بسم الله الرحمن الرحیم

هيروشيما

تأليف

جون هيرسي

ترجمة

عبد الله بن صالح العجيري



هيروشيما

جون هيرسي

الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز»



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :

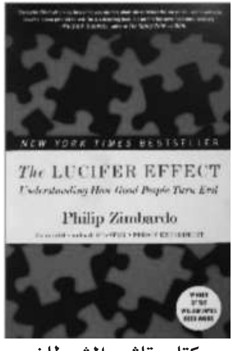


+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية – الخبر
eyadmousa@gmail.com

الفهرس

مقدمة المترجم

من أكثر الظواهر البشرية التي تُصيبني بالحَيْرَة والذهول مشهدُ الفظاعة الإنسانية؛ حين يَبْغِي الإنسان على الإنسان، ويَصُبُّ على رأسه أنواعًا لا تُطَاق من الشرور، إنها لحظة من أَحَطِّ لحظات الإنسان وأكثرها خِسَّةً، وسفولٌ يصعُب أن يجد الإنسان لنفسه سفولاً بعده.



كتاب تاثير الشيطان
للدكتور فيليب زيمباردو

أذكر أني كنت مرةً في رحلةٍ مسافرًا من مدينة الدمَّام إلى مدينة جدة، وقرَّرت يومها أن ألتقط معي كتابًا يكون رفيقًا لي في تلك السَّفْرَة، تناولت كتاب «تأثير الشيطان»[1] لفيليب زيمباردو وأنا خارج من البيت على عَجَلٍ لأدرك رحلتي، والرجل ـ لمن لا يعرف ـ عالِم نفسٍ شهير، له عناية خاصة

(١) يصدر الكتاب مترجمًا عن مركز تكوين هذا العام ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م بإذن الله. (الناشر).

بموضوع الشر، حتى لُقِّب في بعض الدوائر العلمية بمؤسِّس علم نفس الشر، وهو صاحب أيقونة الشر الشهيرة «تجربة سجن ستانفورد»، والتي شَخَّصَ من خلالها الديناميكيات الفاعلة في بيئة السجن، والتي تحكُم طبيعة العلاقة بين السجَّانين والمساجين، وقد وَثَّقَ في كتابه هذا يوميات هذه التجربة، وعرض لأهم ما يمكن أن يُستخلَص منها من آثار ونتائج، كما تضمَّن الكتاب أيضًا دراسةً تفصيليةً لفظاعات جحيم «أبو غريب»، والتي يمكن أن يُدْرِك المرء طرفًا منها بمجرَّد مشاهدة بعض الصور التي أَذِنَت الإدارة الأمريكية بنشرها، ولك أن تتخيَّل مدى بشاعة الصور التي لم يأذن الأمريكان بنشرها، خوفًا على أَمْنِ جنودها في كل مكان، وسعيًا لاحتواء مشاعر الكراهية المتزايِدة لهم، وبالمناسبة فبعض هذه الصور التي لم تَرَ النور مما شاهَدَهُ الدكتور فعلاً أثناء إدلائه بشهادته في قضية أحد سجَّاني أبو غريب، وأكَّد أنها أكثر بشاعةً بكثير مما نُشِر.

المهم أني ابتدأت في قراءة الكتاب لحظةَ ركوبي الطائرة، وانتهيت من التمهيد، وكان مختصَرًا جدًّا، لأَدْلِفَ مباشرةً إلى الفصل الأول «سيكولوجية الشر»، كانت بدايات هذا الفصل كتابةً تأسيسيةً عن حجم طاقة الشر في الإنسان، وما يمكن أن ينبعث منه من مظاهر البغي والظلم، وتضمَّن توثيقات تاريخية بهذا الصدد، على شكل ومضات سريعة تكشف عن مدى الإجرام الذي يمكن أن يمارسه الإنسان؛ مِنْ قتلٍ، وتعذيبٍ، واغتصابٍ، وإبادةٍ، وغير ذلك، وكان من بين تلك اللقطات المؤلمة شيء مما

جرى مِنْ ذَبْحٍ وإبادة لقبائل «التوتسي» في رواندا على يد قبائل «الهوتو»، والتي ذهب ضحيتها قريبًا من مليون إنسان، دَعْ عنك ما جرى من حوادث الاغتصاب والتعذيب، والتي بلغت مئات الآلاف، بدأ المؤلِّف يسرُد بعض تلك المشاهد واللقطات، وكانت بحق مؤلمةً ومزعجة إلى حدٍّ كبير، وأعترف أني ما كنت أظن أنه بإمكان أي خيال بشري أن يولِّد بعضًا من صور القتل والتعذيب التي قرأتها، لا لطيبةٍ زائدة عندي، أو لِتَدَنِّي مستوى خيالي في هذا الباب، فأيُّ إنسان يُحِسُّ بالألم سيدرك ضرورةً عددًا غير قليل من صور وألوان التعذيب؛ كالحرق، والصَّعْق، وتقطيع الأطراف، إضافةً إلى مختلف ألوان الإيذاء النفسي، لكن بعض ما قرأته كان متجاوزًا لذلك إلى حدٍّ بعيد، قرأت أربع عشرة صفحة من الكتاب فقط، لأضعه جانبًا، وانتابتني بعدها حالة من الكآبة والألم استمرَّت معي طيلة الرحلة، وبعدها لأيام.

لقد كشف لي الكتاب جانبًا شديد الظُّلمة من طبيعة الإنسان، وهو جانب متى ما صار الإنسان واعيًا به سَهُلَ عليه ملاحظته في كثير من الحوادث والأخبار التي تنهال عليه صباح مساء، دَعْ عنك ما يتجرَّعه الإنسان قَصْدًا بمطالعة كتاب في أدب السجون، أو أخبار الحروب، أو قصص الطغاة والمجرمين، أو كتاب صريح في إدارة فنون التعذيب.

وقد عُنِيتُ عنايةً خاصة بقراءة ما كُتِبَ في هذا الباب مما

يتَّصل بواقع الحضارة الغربية، وما أنتجته قيم الحداثة من كوارث ومصائب؛ كَوْنَ هذه الحضارة تُمثِّل النموذج الثقافي المهيمن في عالمنا اليوم، وهي الواعظ المبشِّر بأخلاقه الكونية، والتي تسرَّبت كثير منها وتمدَّدت لتخترق فضاء أمم وشعوب، حتى باتت هذه القيم عند الكثيرين معيارًا يُدرَك من خلالها حَسَنُ الطبائع من سقيمها، وما ينبغي أن تكون عليه الأحوال.

وهي كتابات متعدِّدة وكثيرة تُفْضِي بقارئها إلى نتيجة واحدة، وهي أن العنف والإجرام يُمثِّل نَسَقًا ينتظم نوع المعاملة التي يمارسها الغربي مع الآخر غير الغربي، فالحضارة الغربية من جهة التاريخ إنما تأسَّست على أشلاء ودماء هذا الآخر، وهي من جهة الواقع المعاش تمارِس ذات الدور، وإن كان بصور ومظاهر مختلفة ومتنوعة.

لقد ابتلعتْ هذه الحضارة في مشهدها المعاصر طُعْمَ الداروينية بوعي أو بغير وعي، فأضحى مبدأ الصراع مبدأً فاعلاً، وصار قانونُ بقاء الأصلح أمرًا حاكمًا، وأصبح الموت هو محرِّك التقدُّم والتطوُّر؛ فإما أن تفترس غيرك، أو تكون الفريسة، وهو أمرٌ وثَّقه «تشارلز دارون» نفسه في مذكرات رحلته الشهيرة على «البيجل»، فقال ملخِّصًا تاريخ الغرب: (أينما خطَا الأوروبيون فإن الموت يُطارِد سكان البلد الأصليين)[١].

(١) the Voyage of the Beagle, by Charles Darwin, p459.

(الْسَعُوا أولَ مَن تصادفونه؛ لتكون لكم الحياة على حسابه)[1]، في ضوء هذه اللقطة من مسرحية «الزنابير» التي كتبها أريستوفانيس (٤٤٦ ـ ٣٨٦ ق.م) اقتاتت الحضارة الغربية لقرون، وألحقت الموت بأمم وشعوب.



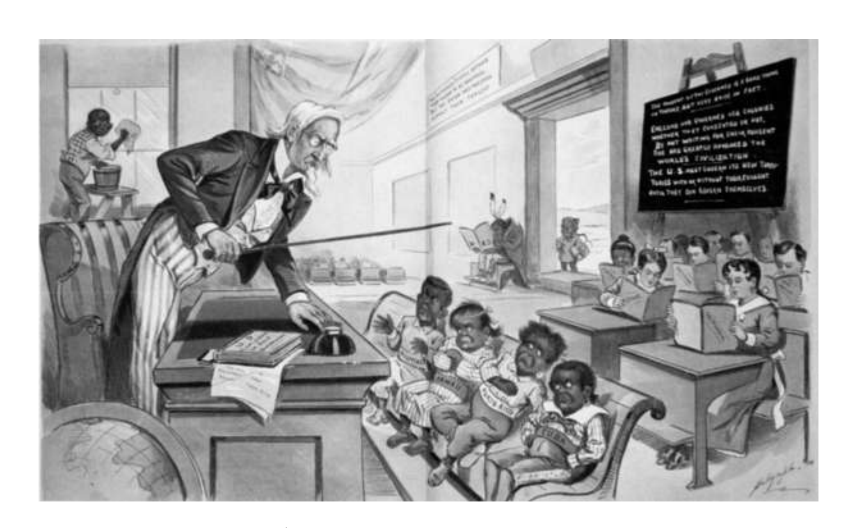
"AMERICANS CAME TO LIBERATE, NOT TO CONQUER, TO RESTORE FREEDOM AND TO END TYRANNY".

(لقد جاء الأمريكيون ليُحَرِّرُوا، لا ليغزوا، وليستعيدوا الحرية، ويُنهوا الطغيان)، نكتة سَمِجَة ثقيلة نُقِشَت على نُصْبٍ في ميدان تذكاري بالحرب العالمية الثانية في واشنطن.

لقد استطاع الأستاذ منير العكش أن يختصر منطلق هذه الممارسة الغربية بكلمة مكثَّفة ومُعَبِّرَة، وذلك في غلاف كتابه «أمريكا والإبادات الجماعية»، حيث جاء في أعلى الغلاف ما نَصُّه: (حق التضحية بالآخر)، وهو معنى يختزن في أحشائه بواعث هذا السلوك الغربي، وهو ما تَجِد شواهده مفصَّلة في كتابه هذا، وفي بقية الثلاثية: «أمريكا والإبادات الجنسية»، و«أمريكا والإبادات الثقافية»، بالإضافة إلى كتبه الأخرى؛ ككتاب «دولة فلسطينية للهنود الحمر»، وكتاب «تلمود العم سام»، وهي جميعًا مستودعات لقصص العنصرية، والإجرام، والتوحُّش الغربي.

---

(١) Complete Greek Drama, Edited by Whitney J. Oates & Eugene O'Neill Jr, Volume 2, p.645.



هذه صورة معبرة عن روح العنصرية الأمريكية التي تتسكَّع على المسرح العالمي، نُشرت هذه الرسمة الكاريكاتيرية في مجلة Puck في يناير ١٨٩٩م، ويظهر في الخلف مجموعة من الطلبة يقرؤون من كتبٍ عُنْوِنَ لكل واحد منها باسم ولاية من الولايات الأمريكية المختلفة، فيما يقوم «العم سام» بتوبيخ عدد من الطلاب الملوَّنين أمامه من كوبا، وبورتوريكو، وهاواي، والفلبين، ويظهر في زاوية الغرفة طفل من قبائل الهنود الحمر وقد فتح كتابه بالمقلوب، وبجواره عند الباب صبي صيني صغير واقف خارج الفصل، وفي الزاوية الأخرى عند النافذة رجل أسود يقوم بدوره في تنظيف النوافذ، وكأن دوره لا يخرج عن تأدية مثل هذه المهام الخدمية، وقد كتب على السبورة في الخلف: «إنَّ رِضَى المحكومين أمرٌ جميل نظريًّا، لكن مِن النادر جدًّا أن يقع، إنجلترا حكمت مستعمراتها، سواء رضيت تلك الشعوب أم لا، وبسبب عدم توقُّفها عند رضاهم استطاعت تطوير الحضارة ونشرها بشكل كبير في العالم أجمع، على الولايات المتحدة أن تحكم مناطقها الجديدة أيضًا سواء رضي من يسكنها أم لم يرضوا، حتى يكونوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم».

المشكلة هنا ليست مع الإنسان من حيث هو إنسان؛ فهو ظَلُومٌ جَهُولٌ، وظلمه وجهله هذا يُمثِّل أمرًا مشتركًا بين الناس جميعًا، وهو ما يجعل من البغي والظلم أمرًا متوقَّعًا منه تمامًا، لكن المشكلة التي ينبغي أن تتسلَّط عليها عدسة البحث هي في النُّظُم، والأفكار، والأيديولوجيات الحاكمة للمجتمعات

والحضارات، وعلى مقدار ما تشتمل عليه من كوابح وضمانات تكبح جِمَاح هذا البغي، وتَحُدُّ من تحرُّكه وتسلُّطه.

إنه لمن اليسير أن تكون طيبًا وأخلاقيًّا في أحوال السِّلم، لكن مظاهر الانضباط الأخلاقي إنما تظهر وتتجلَّى في أحوال الحرب والانفلات الأمني، هناك حيث تغيب سلطة الرقيب، وتعمل الأهواء والرغبات الشخصية عملها في النفس، حينها فقط تتكشَّف الحقائق، وتتمايَز الرؤى والأيديولوجيات.

وهذا ما يكشف عن جانب من أهم جوانب الفرق بين قِيَم الحداثة الغربية، وقيم الإسلام؛ فالحداثة بإنكارها وجودَ أيَّة منظومة أخلاقية غائيَّة ومتجاوزة جعلت من الالتزام الخلقي مجرد حالة نفعية براغماتية، فليس الالتزام هنا راجعًا إلى مسألة متجاوزة لوجود الإنسان وكينونيته، أو أنه يمثِّل أمرًا غائيًّا في حد ذاته؛ بل هو مجرَّد أمر حاجِيٍّ، يُحتَاج إليه لِسَدِّ بعض حاجات الإنسان الاجتماعية، وهو ما يفسِّر لنا حزمةً واسعةً من الممارسات والسلوكيات المسيطِرة على المشهد الغربي لقرون، وهو ما يمثِّل إفرازًا طبيعيًّا للفكر والفلسفة المسيطِرة على المشهد بشكل عام.

إن عمليات الإبادة الْمُمَنْهَجَة للهنود الحُمر في القارة الجديدة لم تكن أمرًا شاذًّا، أو لحظةً عابرةً في تاريخ المجتمعات الغربية؛ بل هي إفراز طبيعي للنَّسَق الحضاري الذي تشكَّل للغرب، وقل الأمر نفسه بالنسبة لفظائع الهولوكوست في ألمانيا النازية، أو مُجْرَيَات الحرب العالمية الأولى أو الثانية التي ذهب ضحيتها عشرات الملايين من البشر، أو الممارسات الاستعمارية

التي مارسها الغرب في مختلف دول العالم، ومنها دولنا العربية والإسلامية، أو عمليات ـ ما سُمِّيَ بَغْيًا ـ التطهير العِرْقِي في البوسنة والهرسك وكوسوفا، وغيرها، أو جرائم المحتل الصهيوني في الأرض المباركة، أو شرور الحصار الأمريكي للعراق، وما خلَّفه من جَوْعَى وقتلى، ثم شرور الاحتلال بعد ذلك، أو ما نعانيه اليوم من مشاركة، أو إرخاء العنان لطغاة المشرق والمغرب ينكِّلون ويُهَجِّرُون ويذبحون الملايين، فليس ذلك كله وأكثر منه مجرَّد حوادث استثنائية تخالِف النَّسَق الغربي العام، أو تعبِّر عن نكوص وانحراف مؤقَّت عن خَطِّه المرسوم، لا؛ بل هو يمثِّل الخط المرسوم نفسه، والذي هو نتاج طبيعي للحداثة الغربية بعقلانيتها، وماديتها، ونفعيتها، وانسلاخها القِيَمِي والديني، وهو ما تجده واضحًا ببراهينه في كتابات نُقَّاد الحداثة؛ ككتابات تشارلز تايلور، وماكنتاير، وماكس فيبر، وماكس فوركهايمر، وحنا أرنيت، وزيجمونت باومن، وثيودور أدورنو، وطلال أسد، وعبد الوهاب المسيري، وعلي عزت بيجوفتش، ووائل حلاق، وطه عبد الرحمٰن، وغيرهم.

وليس القصد هنا بطبيعة الحال اتهام كلِّ فرد غربي بأنه مجرم، أو يؤمن بأيديولوجية تَجُرُّ صاحبها إلى الإجرام، كلا، فنحن ندرك أن هناك شرفاء صادقين يرفضون هذه الممارسات والأيديولوجيات؛ بل الحديث هنا عن قاطرة الحضارة الغربية نفسها، والتي تسير على سكة معينة وفي اتجاه معين، نعم، يمكنك أن تختار لنفسك أحيانًا المقعد الذي يناسبك في هذا

القطار، كما يمكنك أن تتحرَّك أحيانًا وتتنقَّل في جَنَبَاتِه؛ بل يمكنك أن تجلس وتصرف وجهك بعكس اتجاه سيره، لكن سيظل القطار متجهًا دومًا في خطه المرسوم دون أن تحرف مسارَه خياراتُك هذه.

تتعاظم المشكلة حين تصطبغ الحياة السياسية عامةً بذات الصبغة، وتكون ذهنيةُ جميع الأطراف محكومةً بذات المنظومة، وكأنه فخٌّ نُصِبَ للجميع، يصعب على أي طرف التملُّص منه؛ بل ويصعب تخيُّل فضاءٍ خارج حدوده، إنها لعبة، واللعبة لها قواعد وأحكام، وعلى الجميع أن يلتزم بتلك الأحكام مهما كانت قبيحة.

إن الإسلام ـ وعلى خلاف هذا كله ـ يسعى لتقديم منظومة مختلفة جذريًّا، منظومة تسعى لإحداث الإصلاح في الأرض، وتلتزم معيار العدل حَكمًا في تشريعاته وأحكامه، (فإن الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهُه بأي طريق كان فَثَمَّ شرعُ الله ودينه)[1]، إنه يقدِّم لأهله ما يَكْبَح مُهَيِّجات البغي في نفوسهم، حتى في أحوال الاعتداء والقتال.

فالإسلام دين قِيَمِيّ، يسعى لتحكيم مجموعة من القيم على الواقع، لكنه واقعي أيضًا، يتعامل مع العالم وفق الطبيعة التي

(١) الطرق الحكمية للإمام ابن القيم (١/ ٣١).

خلقه الله عليها، فيقدِّم له من العلاجات ما يتناسب مع أوضاعه، طلبًا لإصلاحه، دون أن يُوغِل في مثاليات لا يمكن أن تتمثَّل في عالم البشر واقعًا، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

إنه دين واقعي نعم، لكنه مثالي في واقعيته، يسعى للارتفاع بالواقع إلى كماله الممكن، فهو يفتح المجال للمظلوم أن يقتص من ظالمه، لكن يأمره بعدم التجاوُز والاعتداء، ثم يُرَغِّبُه بعد ذلك في العفو والمسامحة، فهو يُوَازِن بدقة بين متطلبات العدل ومتطلبات الفضل، ويقدِّم ضمانات تحقيق العدالة ومنع الاعتداء، تأمل قوله تعالى مثلاً: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾، هكذا في حالة القتال والحرب، والاقتصاص من الظالم المقاتل، يأتي الأمر بالعدل وعدم الاعتداء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم هو سبحانه في مواضع أُخَر يكشف عن مقام الفضل بالعفو في سياق التأكيد على قيم العدل مع الخصوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

ولا يتوقَّف الأمر عند حدود البيان الْمُجْمَل المؤكِّد لهذه القيم العظمى، وإنما يأتي التأكيد على هذه المعاني مفصَّلةً، تأمَّل ـ بالله عليك ـ تلك الأوامر النبوية التي تكشف عن جانب فقط من

جوانب البَهاء، والجلال، والعظمة، والرحمة، في منظومة الإسلام الخُلُقِيَّة، والتي تُبْرِز فرادة هذه المنظومة وفضلَها على كثير من المنظومات الفكرية الحاكمة في عالم اليوم، صَحَّ من حديث بُريدة بن الحصيب رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميرًا على جيش، أو سَرِيَّة، أوصاه في خاصَّته بتقوى الله، ومَن معه مِن المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغْزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتِلُوا مَن كفر بالله، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وَلِيدًا...»[1]، هكذا يتم التأكيد على هذه القيم مرةً بعد أخرى، وفي كل مناسبة تخرُج فيها سرية للنبي ﷺ، وهو التزام خُلُقِيّ لا يستطيع استيعابه مَن افتتح أبواب النفعية المجرَّدة، فإن في الالتزام بهذه القيم أحيانًا تفويتًا لمصلحة قريبة، أو لمنفعة عاجلة، أو لمكاسب مادية، أو غير ذلك، لكنها جميعًا تظلُّ في نظر الشرع مصالح متوهَّمة، ومنافع مُلْغَاة الاعتبار، متى عارضت قِيَم الدين وأحكامه، واصطدمت بجدار العدل الذي أقامه، (فإن العدل واجب لكل أحدٍ، وعلى كل أحدٍ، في كل حالٍ، والظلم مُحَرَّم مطلقًا، لا يباح بحال قط)[2].

وسُنَّة الصحابة في هذا كسُنَّة نبيهم ﷺ، فهذا صِدِّيقُ هذه الأمة وخيرها، أبو بكر رضي الله عنه، يبعث بجيوشه إلى الشام، فيخرج يتبع يزيد بن أبي سفيان، ويقول له: إني أوصيك بعشر: لا تَقْتُلَنَّ

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٨٥٨)، والإمام أحمد في المسند (٢٢٩٧٨).

(٢) منهاج السُّنَّة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٥/١٢٦).

صبيًّا، ولا امرأةً، ولا كبيرًا هَرِمًا، ولا تقطعنَّ شجرًا مُثْمِرًا، ولا تخرِّبن عامرًا، ولا تَعْقِرَنَّ شاةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تُغْرِقَنَّ نخلاً، ولا تحرِقنَّه، ولا تَغْلُل، ولا تَجْبُنْ[1].

إنها لونٌ راقٍ من ألوان المروءة والفروسية حتى في أحوال الحرب، وهي في مُجْمَلِها تمثِّل معانِيَ أجنبية يصعب تلمُّسها واستيعابها في عالمنا المادي، والذي تعلو فيه قيمة السلع على القيم، ويكون الحكم للمصلحة المادية، ودَعْ عنك فارغ الشعارات والدعاوى التي تُلْقَى من هنا وهناك، ومعلَّقات حقوق الإنسان والعدالة الدولية التي تَصُكُّ الأسماع، وحدِّثني عن التاريخ القريب ومشاهده؛ بل حدِّثني عما تشاهده في الواقع من حولك؛ فإن الحداثة متى وُضِعَتْ على طاولة التشريح تكشَّفت عن منظومة فكرية لا تستوعب فلسفيًّا مثل هذه القيم؛ بل هي على النقيض من ذلك منظومةٌ تصدُر عنها فظاعات لا تُحَدُّ، ويمكن قراءتها من على صفحات التاريخ، ومتابعتها بالصوت والصورة على الشاشات، ولم يُخَفِّف من غُلَوَاء هذه الحضارة، أو يقلِّل من شرورها أوهامُ الشعور بالتفوُّق والمركزية؛ بل كان لهذه المشاعر مزيدُ إسهام في تأجيج هذه الحالة، والدفع بها للأمام.

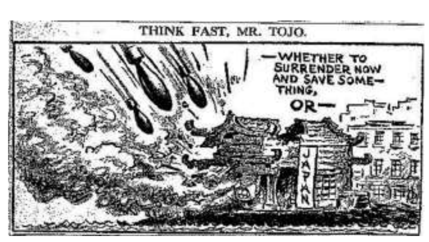
وهنا يأتي دور كتابنا هذا ليكشف عن لقطةٍ واحدةٍ فقط من تلك اللقطات المرعبة التي تبيِّن حجم ابتذال القيم التي تأسَّس عليها الوعي الغربي، إنها حدث مِفْصَلِيّ في التاريخ الحديث،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣١٢١)، والبيهقي في السنن الكبير (١٨١٤٨).

ولحظةٌ من أشد لحظاته رُعْبًا، لحظة اكتشاف الإنسان قدرته الفائقة على تدمير كل شيء؛ بل وتدمير وجوده تمامًا.

إنها اللحظة التي قرَّرت فيها الإدارة الأمريكية في ولاية «ترومان» استعمال القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية لإرغام اليابان على استسلام مهين غير مشروط. هكذا بِجَرَّة قلم تم إفناء حياة عشرات الآلاف من البشر في لحظة واحدة، ليتبعهم أضعاف أضعافهم بعد ذلك من مصابين وجرحى، ولتبقى آثار ما جرى بعدهم لعقود.



رسمه كاريكاتورية كتب فيه: «سيد توجو فكِّر بسرعة»، إما أن تستسلم الآن ويَسْلَم لك شيءٌ، وإما...

إنها جريمة بشعة، لم تتوقَّف عند حدود نوع السلاح المستعمَل، أو مسرح الجريمة؛ بل أوغلت في ذلك باختيار وقتها بدقة عالية لحصد أكبر قدر ممكن من الأرواح، الساعة ٨:١٥ صباحًا بتوقيت اليابان، حين يخرج الجميع إلى الشوارع، الأطفال يتَّجهون نحو مدارسهم، والكبار يتوجَّهون لأعمالهم، حينها تبدأ عملية الشواء الجماعي في طرق وأَزِقَّة هيروشيما.

كانت درجة حرارة الانفجار أكثر من ٦٠٠٠ درجة مئوية، وهو مقدار يزيد على درجة حرارة سطح الشمس، أما على الأرض فوصلت الحرارة يومها إلى ٣٠٠٠ درجة مئوية، وحصيلة القتلى ١٤٠ ألف قتيل بانتهاء السنة التي أُلقيت فيها القنبلة (١٩٤٥م)، و٢٠٠ ألف بانتهاء سنة ١٩٥٠م، وأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية

رسميًّا أن عدد قتلى جنود اليابان كان ٣٢٤٣ عسكريًّا فقط![١].

ازدادت الأمور سوءًا مع تكشُّف آثار القنبلة على كثير من الناجين، والذين بدأت تسوء أحوالهم الصحية بشكل غامض ومتسارِع، أعراض غريبة، غثيان مزمن، وحرارة مرتفعة، وتقرُّحات أرجوانية، وشعر يتساقط، ونزيف داخلي؛ بل ونزيف من العينين والفم، ليظهر بعد ذلك أنهم مصابون بالتسمُّم الإشعاعي، وليُسْهِم هذا في اتساع دائرة قتلى الانفجار، فمن لم يمت حرقًا مات موتًا بطيئًا بإشعاعات القنبلة المميتة، فكيف كانت رِدَّةُ الفعل الأمريكية حيال هذا المستجد الجديد؟ كانت ذهنية تسليع الإنسان لا ترى في الأمر إلا فرصة مواتية لدراسة آثار الإشعاع النووي على البشر، لا تعاطُف، ولا ندم بتاتًا. لقد أَسَّسَت أمريكا الـ ABCC «لجنة ضحايا القنبلة الذرية»، لا لتقديم العلاج للضحايا، وإنما لوضعهم تحت المراقبة والملاحظة، للتعرُّف وبشكل تفصيلي على أعراض المرض، كانوا مجرد «فئران تجارب». قام أحد العلماء المسؤولين عن هذه الدراسة برفع دماغٍ كان قد استخرج من جثة ياباني للتو، ليعلن بكل برود: (بالأمس كانت الأرانب، واليوم اليابانيون)[٢]، واستمرت آلة الإعلام الأمريكية في دعايتها المضلِّلة مقلِّلةً من شأن هذه القصة، وأصدرت بيانًا مضمونه: بأنه وإن مات أي ياباني لتعرُّضه للإشعاع النووي، فإن أعدادهم قليلة جدًّا، ويتحمَّل جزء من مسؤولية هذه

---

(١) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p168.

(٢) Hiroshima in America "A Half Century of Denial", by Lifton J.R. & Mitchell G., p53.

الوفيات سوء الخدمات الصحية اليابانية[١].

لقد كان الحدث أمرًا هائلاً ومرعبًا، وظلت أيقونة الحدث، «صورة الانفجار الهائل»، في وعي وَحِسّ كل مَن شاهده، ممن كان في سماء هيروشيما يومها، أو على الأرض. وصف قائد الطائرة «إنولا غاي» العميد «بول تيبيتس» المسؤول عن تنفيذ عملية إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما مشهد الانفجار قائلاً: (أخذ الانفجار شكل فِطْرٍ أرجواني يتصاعد في السماء حتى بلغ ٤٥ ألف قدم، ثم ارتفع إلى مستوى أعلى من مستوى الطائرة بثلاثة أميال، واستمر يغلي متصاعدًا كشيء مرعبٍ لا يزال حيًّا، وكان المشهد على الأرض من أسفلنا أشد إرعابًا، كانت النيران تنتشر في كل مكان، وتُصْدِر دخانًا كثيفًا وهائجًا، كان المنظر كمشهد قارٍ يغلي). ووصف المشهد في مناسبة أخرى قائلاً: (لو كان «دانتي» معنا على الطائرة لأصابه الرعب؛ كانت المدينة التي شاهدناها بوضوح قبل دقائق قليلة تبدو الآن كبقعة بشعة، لقد اختفت تمامًا تحت هذا الغطاء الكثيف من الدخان والنيران). أحد أفراد الطائرة عبَّر عن المشهد بأنه كاختلاس النظر لداخل جهنم، فيما كتب مساعد الطيار في سجل الرحلة: (يا إلهي! ما الذي صنعناه!)[٢].

إنها لحظة من أكثر اللحظات التي انكشف فيها المجتمع الغربي خُلُقِيًّا، وبانت حقيقة المنظومة الفكرية الحاكمة لحياته، لقد دخلت البشرية بفعل هذا الحدث في العصر النووي، لكن دخلته من أسوأ أبوابه.

---

(١) Hiroshima in America "A Half Century of Denial", by Lifton J.R. & Mitchell G., p54.

(٢) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p166.

وهي ديستوبيا كان قد تنبأ بها الكاتب والروائي البريطاني «هلبرت جورج ويلز»، وذلك في روايته الخيالية «تحرير العالم» «the World Set Free»، حيث تحدَّث فيها عن حرب نووية تقع بين الألمان والنمسا من جهة، وإنجلترا وفرنسا وأمريكا من جهة أخرى، وتُدَمَّر فيها أكثر من ٢٠٠ مدينة بفعل القنبلة النووية الجامحة، كتب روايته سنة ١٩١٤م، وحين استعملت القنبلة بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة طلب أن يُكْتَب على ضريحه: «Goddamn you all, I told you so!» «لعنة الله عليكم جميعًا، لقد حذَّرْتُكُم!»[١].

كان مشهدًا يبعث على التشاؤم من مستقبل البشرية، وصدمةً لكل متفائِل بتقدُّم العلم والتكنولوجيا، لقد كان «ويلز» مصيبًا إلى حد بعيد حين قال: (يتبدَّى تاريخ البشر أكثر وأكثر كسباق محموم بين التعليم ووقوع كارثة)[٢]، هكذا يكون الأمر حين تنسلخ المعرفة والعلم من القيم والأخلاق، فتتحوَّل إلى مجرد أداة للخراب والدمار.



صبي ياباني يحمل جثمان أخيه الميت عند أحد محارق الجثث لتسليمها في أعقاب تدمير هيروشيما

وحتى تدرك حجم الوقاحة والغطرسة والعنجهية الغربية، وما بلغه المشهد من دركات الإسفاف،

---

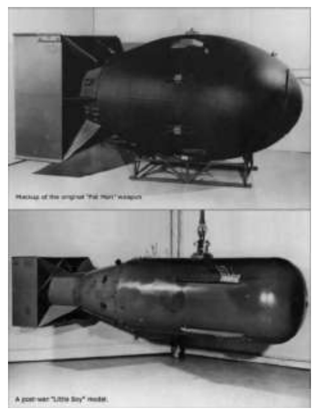
(١) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p132.

(٢) the Outline of History, by H. G. Wells, p1100.

بعيدًا عن الحدَث نفسه بعواقبه وتداعياته؛ إذ الحدث بذاته تعبير صارِخ عن هذه الغطرسة، إليك هذه اللقطة الهامشية من المشهد:

كان من المخطَّط ضرب خمس مدن يابانية تباعًا بالقنبلة الذرية، فشهية القتل الأمريكية لم تكن مقتصرة على حدود دنيا من القتل؛ بل كانت الشهية مفتوحة جدًّا، ولو لم تَجْثُ اليابان على ركبتيها مستسلمةً لاستمرَّت آلة الذبح الأمريكية في عملها، تلك المدن هي: «هيروشيما»، «كاكورا»، «كيوتو»، «يوكوهاما»، «نيغاتا»، ولعلك تلحظ أن مدينة «ناغازاكي» المدينة التي دُمِّرَت ثانيًا وبعد ثلاثة أيام فقط من إلقاء القنبلة الأولى غير موجودة في هذه القائمة، فما الذي جرى؟

يجيبك «إدون ريتشاور» في مذكراته قائلاً: (الشخص الوحيد الذي يستحق أن يُنسَب إليه الفضل في إنقاذ «كيوتو» من الدمار هو وزير الحرب الأمريكي في ذلك الوقت «هنري ستيمسون»، والذي كان عارفًا بكيوتو ومغرَمًا بها، منذ قضى فيها شهر عسله قبل عقود)[1]، هكذا استبعدت «كيوتو» من قائمة الموت هذه لتحل محلها «ناغازاكي»، وهكذا تكون الوقاحة والكِبْر، وهكذا تنحدر قيم الإنسان.



الصورة العلوية نموذج «للرجل البدين»، والسفلى «للفتى الصغير»

أتريد مزيدًا من الاستهتار والوقاحة؟ إليك هذه المعلومة الهامشية

(١) My Life Between Japan And America, by Edwin Reischauer, p 101.

أيضًا: لقد تم تسمية القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما بالفتى الصغير «Little Boy»، وقنبلة ناغازاكي بالرجل البدين «Fat Man»، ولعلَّك تتساءل: من أين جاءت هذه التسمية؟ الأمر عائد في جزء منه بطبيعة الحال إلى شكل كل واحدة منهما، حيث كانت إحداهما أصغر وأنحف من الأخرى، فيم تبدو الأخرى كقنبلة سمينة، لكن تم استلهام الاسمين من شخصيتين من شخصيات فلم «الصقر المالطي» «The Maltese Falcon». هكذا يتم تسمية أدوات القتل والإجرام!!

وبعد أن وقع الحدث، وعايَنت البشرية حجم الدمار التي يمكن أن يخلِّفه استعمال مثل هذا السلاح، كيف كانت رِدَّةُ فِعْلِ الإدارة الأمريكية؟ كانت ردة الفعل الرسمية معبِّرة عن انتفاخ وانتشاء بما جرى دون أدنى مستوى من الشعور بالألم أو الندم، لقد قفز الرئيس «هاري ترومان» حين وصله الخبر ابتهاجًا وهتف: (إن هذا أعظم حدثٍ في التاريخ)[1]، ثم ألقى خطاب الرئاسة حول الحدث قائلاً: (قبل وقت قصير قامت طائرة أمريكية بإسقاط قنبلةٍ واحدةٍ على هيروشيما لتلغي أي فائدة لها بالنسبة للجيش، كانت تلك القنبلة تمتلك قوة تدميرية أشد من القوة التدميرية لعشرين ألف طن من مادة «التي أن تي» المتفجِّرة.



الرئيس الأمريكي «هاري ترومان» أثناء إلقائه خطابًا بمناسبة إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٤٥م

(١) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p171.

لقد ابتدأ اليابانيون الحرب من الجو عند «بيرل هاربر»، وتم الرد عليهم بأضعاف مضاعفة، والأمر لم يَنْتَهِ بعد، بهذه القنبلة أَضَفْنَا سلاحًا نوعيًّا وثوريًّا جديدًا لدعم قدرات قواتنا المسلحة المتنامية، ويتم حاليًا إنتاج المزيد من هذه القنابل بوضعها الحالي، فيما يتم تطوير ما هو أشد قوة.

إنها قنبلة ذرية، تم فيها تسخير القوة الأساسية للكون، القوة التي تستمد منها الشمس طاقتها، تم إطلاقها صوب أولئك الذين جلبوا الحرب إلى الشرق الأقصى)[١].



صورة تعبر عن البهجة الأمريكية بانتصارها علميًّا وعسكريًّا، وسحقها لليابان

هكذا كان الخطاب، الذي لم يتناول في أي فقرة منه أي إشارة إلى عدد الضحايا المدنيين، فضلاً عن إظهار أي لون من ألوان التعاطف معهم؛ بل على العكس فقد أظهر الفرحة والابتهاج بالظلم والاعتداء، فلم يكن الرد بالمثل، ولا الصاع بالصاعين؛ بل كان الأمر أضعافًا مضاعفة.

ويمكن مشاهدة الخطاب ـ وهو على اليوتيوب ـ لتتعرَّف من خلالها على نغمة الصوت، وطبيعة النظرات، ولغة الجسد، التي تؤكِّد جميعًا حجم الغرور الذي اجتاح تلك النفوس عشية ذلك اليوم، وهو أمرٌ عبَّر عنه الرئيس «ترومان» صراحةً، حيث قال عن خطابه هذا بأنه أكثر خطاب سعد بإلقائه في حياته[٢]، وحتى بعد

---

(١) يمكن مشاهدة الخطاب كاملاً على اليوتيوب تحت عنوان:
President Truman announces the bombing of Hiroshima (extended version).

(٢) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p171.

معرفة تفاصيل ما جرى وعدد القتلى ظلَّ على موقفه، ولم يندم أبدًا؛ بل كثيرًا ما كان يتباهى بأنه لم يفقد أي نوم نتيجة هذا القرار، وعندما سُئِلَ في لقاء مرةً هل كان يشعر بالصعوبة الأخلاقية لاتخاذ مثل هذا القرار؟ كان جوابه: (لا طبعًا، كان قرارًا سهلاً اتخذنه هكذا)، وأطلق صوت فرقعة بأصبعيه.



الشكر لله على القنبلة الذرية

وعندما التقى «ترومان» «بأوبنهايمر» ـ المدير العلمي لمشروع القنبلة الذرية ـ لأول مرة سأله: متى تتوقَّع أن يتمكَّن السوفييت من تصنيع القنبلة؟ فأجابه «أوبنهايمر» بأنه لا يدري، فبادره «ترومان»: لكنني أدري، لن يتمكَّنوا من ذلك أبدًا! وكان مما كاشَف به «أوبنهايمر» الرئيسَ في ذلك اللقاء: (سيدي الرئيس، أشعر بأن يداي ملطَّختان بالدماء)، فرد عليه مغضبًا: (قلت لك بأن يداي هما الملطختان بالدماء، دعني أنا من يقلق حول هذا الشأن). وعندما خرج «أوبنهايمر» من عند الرئيس، التفت الرئيس لـ«دين أتشيسون» وكان حاضرًا وقال له: (لا أريد أن أرى ابن العاهرة هذا في هذا المكتب مرةً أخرى)[1].

كانت الرواية الرسمية التي تبنَّتها الإدارة الأمريكية، وَسَعَتْ في إذاعتها ونشرها، أن استعمال القنبلة كان انتقامًا مشروعًا من اعتداء ياباني ظالم؛ بل كان ضرورةً أخلاقية، ليس لحفظ أرواح

(١) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p1178-79.

الأمريكان فحسب بخوض معركة سيطول أمدها، وإنما من أجل حفظ أرواح الملايين من اليابانيين أنفسهم؛ بل رُوِّج ولا يزال فرح اليابانيين وابتهاجهم بإلقاء القنبلة عليهم؛ إذ اضطرت هذه الخطوة نظام الحكم باليابان إلى الخضوع والاستسلام حفاظًا على ما يمكن المحافظة عليه من أرواح اليابانيين، ولولا ذلك لكانت ضحايا الحرب التي



صورة تعبر عن سردية «السلام» الذي مهدت له القنبلة الذرية

سيطول أمدها بالملايين، وفي سبيل ضمان عدم وجود رواية منافسة سعت الإدارة الأمريكية إلى احتكار حق تفسير ما جرى، ومنع أو تحجيم حضور أي رواية أخرى يمكن أن تكشف وجهًا آخر لهذه الكارثة، لقد كان الجيش يسيطر على جميع منافذ تسرُّب الأخبار المتعلقة بالقنبلة، وكانت قواته المستقرة على أرض اليابان عقب انفجار القنبلة تُضيِّق الخناق جدًّا على عمليات الدخول والخروج من كلتا المدينتين ـ هيروشيما وناغازاكي ـ، كان الرقيب باختصار يسيطر تمامًا على المشهد، فكانت الأخبار تتسرَّب بحسب رغبة هذا الرقيب، وبالحدود المناسبة التي يراها[١].

فعلى سبيل المثال سعى الملازم «دانيل مكغفرن» ـ بتنسيق مع الجيش ـ لتوثيق بعض المشاهد من المدينتين، وذلك بمعاونة منتج أفلام ياباني اسمه «أكيرا إيواساكي»، فقامَا بإنتاج فيلمٍ

(١) From Yellow Peril to Japanese Wasteland: John Hersey's "Hiroshima", by Patrick B. Sharp, Twentieth Century Literature, Vol. 46, No. 4, Literature and Apocalypse, pp. 439.

وثائقي لمدة ساعة واحدة بعنوان «تأثيرات القنبلة الذرية في هيروشيما وناغازاكي»، ليكتشفَا أن الأمر جاء على خلاف هوى الجيش ومزاجه، فتم مصادرة المادة المصوَّرة بالكامل، وتم اعتقال «إيواساكي» وفريق العمل واحتجازهما عسكريًا، وبعد ترتيبات استطاع الملازم إخراجهما من الحجز، ليعيدوا الكَرَّة ويُوَثِّقُوا بالصورة تأثيرات القنبلة الذرية على أجساد البشر، لكنهم وبعد الانتهاء من العمل أرسلوا المادة كلها إلى «البنتاغون»، حيث تم تصنيفها هناك بـ«سري للغاية»، ثم أَرْشَفتها وتخزينها ومنع نشرها، واستمر المنع طيلة ٢٢ عامًا.

وكان الجهد التوثيقي الذي قام به «جون هرسي» في كتابنا هذا عرضة كغيره للمصادرة، ولعل عدم التزامه بعرض ما كتب على الإدارة العسكرية حينها، والذي كان عُرفًا ملتزَمًا به من قِبَل الصحفيين، هو الذي صان عمله وجهده من التغييب، ولو التزم بما التزم به غيره لكان مقص الرقيب قد أعمل فيه عمله، هذا لو رضي حارس البوابة أصلاً بمبدأ مرور العمل، وهو ما يفسِّر ما اكتنف نشر هذه الوثيقة في مجلة «النيويوركر» من سرية بالغة[١].

وعودًا لتلك السردية الأمريكية للحدث، وأن خطوتها هذه جاءت اضطرارًا من أجل تقصير أمد الحرب، وسعيًا للمحافظة

---

(١) From Yellow Peril to Japanese Wasteland: John Hersey's "Hiroshima", by Patrick B. Sharp, Twentieth Century Literature, Vol. 46, No. 4, Literature and Apocalypse, pp. 444.

وتجد تفاصيل أوسع حول الموضوع في:

Hiroshima in America "A Half Century of Denial", by Lifton J.R. & Mitchell G., p46.

على أرواح الجانبين، فإن مَن يقرأ مجريات الحرب، وما وصلت إليه الأمور بعد هزيمة الألمان، سيُدرك أن اليابانيين كانوا قريبين جدًّا من الاستسلام، وأن الخلاف فقط في طبيعة هذا الاستسلام وبنوده، وهو ما كان يدركه الأمريكان ويعرفونه قطعًا، فقد صرَّح الإمبراطور الياباني في أكثر من مناسبة عن رغبته إنهاء حالة الحرب في أسرع فرصة، وقد اجتمع كبار القادة اليابانيين في المجلس الأعلى للحرب، والذي كان يُعْرَف بمجلس الكبار الستة في مدينة طوكيو، وقرَّرُوا طلب الوساطة السوفييتية من أجل الحصول على بنود أفضل في مقابل الاستسلام، وليقدموا للاتحاد السوفيتي في مقابل ذلك تنازلات إقليمية في حوض المحيط الهادي، لكن السوفييت كانوا يخشون أن تفوت عليهم فرصة مكاسب أكبر في ظل وعود أكبر كان الحلفاء قد وعدوهم بها في المنطقة مقابل مشاركتهم في الحرب، وهو الأمر الذي كان يزيد من توتر اليابانيين خشية على الوطن الأم «اليابان» من الاتحاد السوفيتي نفسه ومطامعه التوسعية في المنطقة، والذي وُجِدَ في الواقع ما يؤكده ويشهد له؛ إذ أعلن السوفييت الحرب على اليابان فعلاً في أعقاب إلقاء القنبلة على هيروشيما، وبدأ اجتياحهم لمناطق النفوذ الياباني في آسيا، وهو ما أفقد اليابانيين أي أفق للنجاة، وصار الكابوس الذي كانوا يخشون منه قاب قوسين أو أدنى، وكذلك صعب على اليابانيين جدًّا القبول باستسلام غير مشروط خشية على الإمبراطور الياباني أن يحاكَم كمجرم حرب، ويتم قتله أو شنقه كما فُعِلَ بغيره، وهو أمر ما كان يُمكن أن

يتقبَّله اليابانيون مطلقًا؛ إذ كان الإمبراطور شخصية مقدَّسة عندهم تُقارِب الإلٰه، وكان بعض المراقبين يسعى لتقريب هذه الصورة للعقل الغربي بأن الإقدام على قتله سيكون أشبه بصلب المسيح بالنسبة لهم، وأن اليابانيين سيقاتلون جميعًا دون وقوع ذلك.

إذن كان اليابانيون أصلاً على حافة الاستسلام، ولم يكن مبدأ الاستسلام محلًّا للاختلاف، فقد كانوا مدركين حتميته، لكن القصة في بنود هذا الاستسلام وشروطه، ولما بدأت تَلُوح أمارات الاجتياح السوفيتي لليابان نفسها أدرك الجميع أن اليابان سيستسلمون لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه، ومع ذلك فلم يتورَّع الأمريكان عن ضربهم ثانية بقنبلة أكبر في ناغازاكي، وهو ما يفضح تلك السردية الأمريكية الرومانسية المضلِّلة، وأنه كان بالإمكان تجنُّب استعمال القنبلة حتى وفق المعيار النفعي البرغماتي، وأنه لم يكن هناك حاجة فعلية لهذا القتل الرهيب أصلاً، وهو ما أكَّدته شهادات أكثر القيادات العليا في الجيش الأمريكي في ذلك الحين، منهم ستةُ عسكريين من واقع سبعة يمثِّلون أرفع قيادات الجيش، والحائزون على خمس نجوم، كانوا ضد فكرة الحاجة إلى استعمال القنبلة[١].

وعندما أَبْلَغَ وزير الحرب «ستيمسون» الجنرال «دوايت إيزنهاور»، القائد الأعلى للتحالف، بأن إلقاء القنبلة على اليابانيين بات أمرًا محسومًا، وطلب رأيه في الموضوع، صارَحه قائلاً:

---

(١) انظر تفصيل أسمائهم وأقوالهم في:

the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p175 - 177.

(أبلغته بأني ضد هذا القرار؛ لأمرين: أولهما أن اليابانيين كانوا مستعدين فعلاً للاستسلام، وأنه لا حاجة لضربهم بهذا الشيء المروِّع، الثاني أنني أكره لبلدي أن يكون هو السابق لاستعمال مثل هذا السلاح)، وقال الجنرال «كارتر كلارك» ـ المسؤول عن تجهيز الغواصات العسكرية ـ: (لقد استطعنا إخضاعهم للقبول باستسلام بائسٍ بإغراق أسطولهم التجاري وتجويعهم فقط. وعندما لم نكن بحاجة لأن نفعل ذلك، وكنا نعلم بأننا لسنا بحاجة لنفعل ذلك، وكانوا يعلمون أيضًا بأننا كنا نعلم بأننا لسنا بحاجة لأن نفعل ذلك، قمنا باستعمالهم لاختبار قنبلتين ذريتين)[١].

لقد كان الأمر أشبه بلعبةٍ في يد طفلٍ شقيٍّ، وكان يخشى أن يُحْرَم من اللعب بها مستقبلاً، وكان مُصِرًّا على تجربتها، فكان له ذلك، ليس مرةً؛ بل مرتين، ولو لم يُعْلِن الإمبراطور بنفسه خطاب الاستسلام من إذاعات المحطات اليابانية لاستمرَّ اللعب ثالثةً، ورابعةً، وخامسةً.

تخيَّل لو أن المسلمين هم مَن سبقوا إلى اختراع القنبلة الذرية، ووُضِعَ علماءُ الإسلام على محك السؤال: هل يجوز أن تُستعمَل قنبلة لمسح مدينة بأطفالها ونسائها وشيوخها عن الخارطة؟ هنا سيظهر لك حجم الضمانات الشرعية المانعة من استسهال تقديم الجواب بنعم، فعلى خلاف معيار المنفعة الحاكم

(١) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p177.

للمنظومة الحضارية الغربية، فإن المعيار الحاكم في الإسلام قِيَم متجاوِزة لهذا الإطار المادي، فالمسلم يتحرَّك في هذه الحياة لا باعتبارها دارًا تمثِّل نهاية المشوار؛ بل دارًا موصلة لغيرها، وينتظر من ورائها حسابًا وجزاءً، ويرى لزوم الالتزام بحزمة من القيم ولو جاءت على خلاف هواه، ولو كان الأمر على خلاف مظاهر النفع القريبة.

وعَوْدًا لهذا الكتاب، والذي يمثِّل كتابةً استثنائية في معالجة هذا الحدث الْمَهُول؛ إذ هو لا يعالِج هذا الحدث من مَرْقَبٍ عَالٍ يُشكِّل فيه الضحايا أرقامًا مجرَّدة، وتكون فيه مظاهر الدمار مجرَّد إحصائيات؛ بل هو بخلاف ذلك يستغرق في متابعة التفاصيل الحياتية الدقيقة لستة ناجين من ذلك الحدث المرعب، وهو استغراق يكشف للقارئ على مستوى إنساني حجمَ الكارثة التي وقعت، وعن طبيعة الإجرام الذي تم على نحوٍ قريب ودقيق، وينكشف من خلاله فظاعة ما يمكن أن تنحدر إليه هذه الحضارة المهيمنة على عالمنا اليوم.

سافَر مؤلِّف هذا الكتاب الصحفي الأمريكي «جون هرسي» إلى اليابان بعد أقل من سنة من إلقاء القنبلة الذرية على مدينتي «هيروشيما» و«ناغازاكي»، لمقابلة عدد من الناجين من تلك الكارثة؛ ليقرِّر تركيز جهده على توثيق تجربة أولئك اليابانيين الستة فقط، والذين تنوَّعت أحوالهم ما بين شيوخ وشباب، ذكور وإناث، أثرياء وفقراء، متزوِّجين وعزاب، مواطنين وأجانب، ومع تبايُن أحوالهم تلك إلا أن الكارثة جمعتهم، فعايَشوا تلك

التجربة المرعبة لحظةً بلحظة، وعاشَوْا بعدها لِيَرْوُوا ما جرى لهم على نحو مُفَصَّل.

لقد استغرق الأمر منه ثلاثة أسابيع، شعر خلالها بمشاعر الخوف والفزع، ومع أنه غطَّى أخبار حروب سابقة، وشاهَد ما خلَّفته تلك الحروب من خراب ودمار، لكن شأن هيروشيما كان مختلفًا، يقول معبِّرًا عن مشاعره: (كل هذا الخراب وقع في لحظة، وباستعمال أداة واحدة، وهذه الحقيقة مُفْزِعَة إلى حدٍّ بعيد، وإذا كان هذا شعوري وأنا القادم بعد ثمانِ شهور من الحدث، فكيف كانت مشاعر أولئك الذين عايَنُوه في حينه؟!)[1].

وإذا كان الكُتَّاب قبل كتابته مهمومين بالحديث عن طبيعة الانفجار وحجمه، وتداعياته على المباني والكباري والجسور، فإن «هرسي» أعاد للحدث توازُنَه بوضع الإنسان في مركز الحدث، وجعله بؤرة الاهتمام.

ومما ميَّز هذا العمل اعتماد كاتبه تقنيات السرد الروائي في حكاية هذه الأحداث الواقعية، ليشق بذلك نهجًا صحفيًّا جديدًا، وليؤكِّد من خلال هذا العمل على ما تختزنه الرواية والقصة والحكاية من تأثير مذهل.

وهو نهج أحسب أنه من المهم اعتماده في توثيق كثير من المآسي التي تعصف بأُمَّتِنا، وهو نهج يجعل لهذه المآسي معنى، وينزع حالة التبلُّد التي نحياها عند مداولتها والحديث عنها.

---

(١) Hiroshima in America "A Half Century of Denial", by Lifton J.R. & Mitchell G., p87.

تم نَشْر هذا العمل أول الأمر في مجلة «النيويوركر»، حيث كان مقرَّرًا أن تُنْشَر على أربع حلقات، لكن المجلة قرَّرت تخصيص عددها والصادر في ٣١ أغسطس ١٩٤٦م بالكامل لنشر التقرير كاملاً، وهو أمرٌ فريد، وسابقةٌ لم تحصل من قبل، ولم تتكرَّر بعد ذلك، وقد أوضحت المجلة في افتتاحيتها مبرِّرات إقدامها على هذه الخطوة، موضِّحة أن بواعث ذلك شعورها بعدم استيعاب الكثيرين لحجم الحدث، وعدم إدراكهم لتداعيات استخدام سلاح بهذه القوة التدميرية، وما يمكن أن يُحْدِثه من آثار في حياة الناس[١].



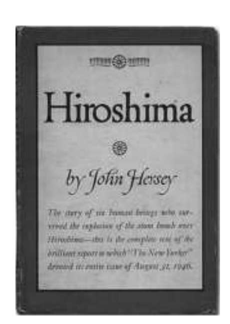
غلاف مجلة «النيويوركر» والتي خصصت بالكامل نشر

وقد لَقِيَ ذلك العدد انتشارًا واسعًا جدًّا، ونالت القصة حفاوة بالغة، حتى بِيعَتْ جميع النسخ، وكانت ٣٠٠ ألف نسخة خلال ساعات، لتأتي مطالَبات القرَّاء بإعادة طباعة ذلك العدد، كان نجاح التقرير كبيرًا، وأقبلت المجلَّات والصحف حول العالم تُعِيدُ نَشْرَ المادة بالكامل على صفحاتها، وأخذت بعض الإذاعات في إنتاج مادة الكتاب على هيئة صوتية، وإذاعته عبر الأثير، كما

الصفحة الأولى من عدد «النيويوركر» والمخصص لنشر الكتاب كاملًا

(١) Hiroshima in America "A Half Century of Denial", by Lifton J.R. & Mitchell G., p86.

فعلت شبكة ABC الإذاعية في أمريكا، وإذاعة الـ BBC في بريطانيا، وقام «نادي كتاب الشهر» بأمريكا ـ وهو نادٍ عريق يُوَفِّر لقاعدة ضخمة من المشتركين خمسةَ كتبٍ شهرية ـ بنشر التقرير على هيئة كتاب، وتوزيعه على مشتركيه مجانًا، وعلى عَجَل، مُبَرِّرِينَ صنيعهم بقولهم: (يصعب علينا تصوُّر أن هناك أي كتاب أكثر أهمية للجنس البشري في هذا الوقت من هذا الكتاب)[١].



غلاف الكتاب في طبعته الأولى

ثم طُبِع الكتاب في طبعته العامة بعد نشرة المجلة بشهرين في صورته التي عُرِف بها، ليُبَاع منه أكثر من ٣ ملايين نسخة حتى اليوم، وقد شكَّل الكتاب جزءًا مهمًّا من ثقافة ذلك الحدث، ورَسْم ملامح نظرة الكثيرين لهولوكوست القنبلة الذرية؛ بل عُدَّ أهم عمل ثقافي تم إنتاجه فترة الحرب العالمية الثانية كما عَبَّرت مجلة التايم[٢].

أما مجلة «نيو ريببلك» «the New Republic» فنشرت مقالة تبجيلية للكتاب جاء فيها: (هذه القطعة لهرسي هي بالتأكيد واحدة من أعظم الكتابات الكلاسيكية للحرب)[٣].

---

(١) How John Hersey's Hiroshima revealed the horror of the bomb, by Caroline Raphael, BBC News, 22 August 2016.
From Yellow Peril to Japanese Wasteland: John Hersey's "Hiroshima", by Patrick B. Sharp, Twentieth Century Literature, Vol. 46, No. 4, Literature and Apocalypse, pp. 434.

(٢) Awakening a Sleeping Giant the Call, by R.Z. Sheppard, TIME (Monday, May 06, 1985).

(٣) Hiroshima by John Hersey, by Bruce Bliven, The New Republic, September 9, 1946, p. 300.

وجاء في الواشنطن بوست: (حتى هذا اليوم لا شيء يُخْبِر بمشاهد رعب هيروشيما على نحو أفضل منه)[١].

أما التايمز فكتبت: (مشهد من الجحيم، تذكِّر صورُها المزعجة بجحيم دانتي)[٢].

لقد غيَّر الكتاب باختصار السرديةَ التي كانت الإدارة الأمريكية راغبة في إشاعتها، وكشف عن حجم الجُرْم الذي وقع، واستطاع أن ينفُذ إلى شريحة مجتمعية واسعة ليخلُق حالة من التعاطُف مع ضحايا الانفجار، والذين كان لا يُنْظَر إليهم باعتبارهم بشرًا من البشر، في ظل عنصريةٍ طاغيةٍ، وروحِ كراهيةٍ لا تخطئها العين، وقد كانت آلة الضخ الإعلامية تمارس دورها في ترسيخ صورة نمطية شديدة القبح عن الشعب الياباني، مستعمِلة في ذلك مختلف القوالب الفنية والإعلامية؛ من رسوم كاريكاتورية، ومجلَّات مصوَّرة، وروايات، وأفلام ومسلسلات؛ بل وحتى أفلام الكرتون الموجَّهة للأطفال، ولا زالت بعض صور تلك الأفلام عالقة في ذاكرتي الآن، في حلقات قديمة لباغنز باني، وبوبايز، وسوبر مان وغيرها[٣].

---

(١) John Hersey Returns to Hiroshima, by Chalmers M. Roberts, Washington Post, August 11, 1985.

(٢) جاءت هذه العبارة على الغلاف الخارجي للكتاب.

(٣) انظر بعض النماذج والأمثلة في:

From Yellow Peril to Japanese Wasteland: John Hersey's "Hiroshima", by Patrick B. Sharp, Twentieth Century Literature, Vol. 46, No. 4, Literature and Apocalypse, pp.437.





هذه عينة يسيرة فقط من صور البروباغندا الأمريكية التي تم تصوير اليابانيين فيها على هيئة الحمقى والدمويين، وأنهم جرذان وحيوانات؛ لتسهيل عملية التعبئة الاجتماعية ضدهم، والحصول على الدعم الذي كانت تحتاجه الإدارة الأمريكية في ذلك الحين، وكان اللقب التحقيري الشائع في وصف اليابانيين هو كلمة «Japs» اختصار «Japanese»، ولكنها كانت تُستعمَل استعمالًا عنصريًا.

كان الأدميرال «وليم بل هلسي» ـ قائد قوات جنوب المحيط الهادي ـ يَحُثُّ جنوده على قتل اليابانيين، ناعتًا إياهم «بالقرود الصُّفر»، وقد كان الناس يتساءلون فعلاً: هل يُعَدُّ اليابانيون من البشر؟! كتبت مجلة التايم: (الياباني العادي جاهلٌ، ولا يمكن التفاوض معه، قد يكون إنسانًا، لكن لا شيء يدل على ذلك).

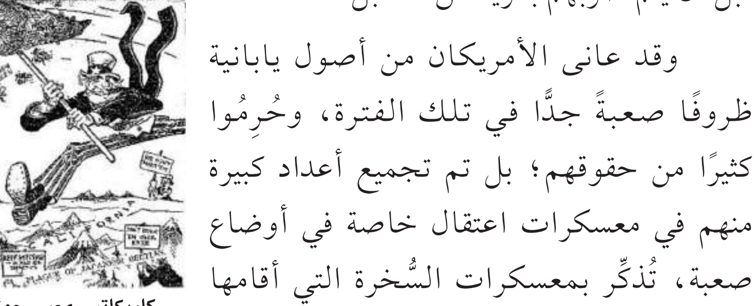


أيها اليابانيون استمروا في المسير.. فهذه حارة خاصة

وقد التقط الصحفي البريطاني «إيرني بايل» ـ والذي اشتهر بتغطية شؤون الحرب بعد انتقاله من أوروبا إلى المحيط الهادي ـ هذه النظرية القاتمة التي كانت تسيطر على العقل الأمريكي في ذلك الحين، وكتب: (كنَّا نشعر في

أوروبا أن أعداءنا مع وحشيَّتهم ودمويتهم لا يزالون بشرًا، ولكن هنا كانت الانطباعات عن اليابانيين مختلفة، فقد كان يُنْظَر إليهم باعتبارهم شيئًا أَحَطَّ من الإنسان، ومثيرًا للتقزُّز والاشمئزاز، تمامًا كشعور البعض تجاه الصراصير والفئران)[١].

وهو شعور شاع في مختلف الشرائح المجتمعية بأمريكا في ذلك الحين، فهذا حلَّاق بكاليفورنيا يعلن عن (حلاقة مجانية لأي ياباني)، لكنه يستدرك في الإعلان ليكتب: (لكني غير مسؤول عن أي خطأ يمكن أن يقع)، وصاحب محل لتجهيز الموتى يقدِّم إعلانًا مضمونه: (أفضل بأن أعقد صفقة مع ياباني عِوَضًا عن أي أمريكي)[٢]، وهذا ما يفسِّر حالة الرِّضَى الواسع من قرار الرئاسة استعمالَ القنبلة الذرية، ففي استفتاء شعبي حول الموضوع ظهر أن ٥٠٪ كانوا مؤيِّدين للرئيس فيما فعل، فيما أبدى ٢٣٪ أسفهم على تعجُّل اليابانيين للاستسلام قبل أن يتم ضربهم بمزيد من القنابل[٣].



كاريكاتير معبر حول معسكرات الاعتقال اليابانية

وقد عانى الأمريكان من أصول يابانية ظروفًا صعبةً جدًّا في تلك الفترة، وحُرِمُوا كثيرًا من حقوقهم؛ بل تم تجميع أعداد كبيرة منهم في معسكرات اعتقال خاصة في أوضاع صعبة، تُذكِّر بمعسكرات السُّخرة التي أقامها النازيون لليهود وغيرهم في ألمانيا، وقد

---

(١) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p.149.

(٢) the Untold History of the United State, by Oliver Stone & Peter Kuznick, p.151.

(٣) Hiroshima in America "A Half Century of Denial", by Lifton J.R. & Mitchell G., p.33.

وَثَّقَتْ كثير من الكتب معاناة هؤلاء ككتاب (Looking Like the Enemy) وكتاب (Infamy: The Shocking Story of the Japanese American Internment in World War II).

وممن تحدَّث عن تجربته في تلك المعسكرات الممثِّل الشهير «جورج تاكي»، والذي أدَّى دور «سولو» في سلسة أفلام «ستار ترك» الشهير، وكذلك الممثِّل «بات موريتي»، والذي أدَّى دور «مياجي» في فيلم «فتى الكاراتيه» «the Karate Kid».

وحتى تلك الأصوات القليلة التي أظهرت بعض المعارضة لاستعمال القنبلة كانت مهمومةً بشكل أكبر بمستقبل البشرية في ظل وجود مثل هذا السلاح، أكثر من اهتمامها بما جرى لليابانيين على وجه الخصوص، كان الشعور السائد في ظل بروباغندا إعلامية طاغية هو أن أولئك القتلى مجرَّد قطيع كبير من متحجِّرِي العقول والمهووسين الذين ماتوا في سبيل إمبراطورهم الشرير، فكان ماذا؟![١]

جاء هذا الكتاب واستطاع أن يذكِّر الجميع ببساطة هذه الحقائق، أن اليابانيين مثلهم، يتألَّمون، ويحزنون، ويبكُون، فعل ذلك بمجرَّد وصف مشهد الكارثة كما هو، دون أن يُضمِّن كتابه رسائل مباشرة، أو يمرِّر رؤاه الشخصية.

أحد العلماء ممن كان يعمل في مشروع مانهاتن، وهو المشروع المسؤول عن إنتاج القنبلة الذرية قرأ الكتاب، وتأثَّر جدًّا، وعبَّر عن تأثُّره في رسالة له إلى أحد زملائه، يقول فيها: (لقد بكيت وأنا أقرأ قصة جون هرسي والمنشورة في النيويوركر)،

(١) From Yellow Peril to Japanese Wasteland: John Hersey's "Hiroshima", by Patrick B. Sharp, Twentieth Century Literature, Vol. 46, No. 4, Literature and Apocalypse, pp. 439.

ثم استرسل يقول: (أشعر بالخزي العظيم كلما تذكَّرت شعور الابتهاج الذي اجتاحني حين عدنا من غدائنا لنجد الآخرين وهم يعلنون قصف هيروشيما، في ذلك المساء أقمنا عشاءً احتفاليًّا على عَجَل، لقد شعرنا بالارتياح لاسترخاء الحالة الأمنية، وأَحْسَسْنَا بالاعتزاز لدورنا في إنهاء الحرب؛ بل وفخرًا بفاعلية السلاح، في الوقت الذي كان يعيش فيه ضحايا القنبلة فظاعات لا يمكن وَصْفُها، لم نكن نعلم، وأتساءل إن كنَّا ندرك ذلك بعد)[١].

لقد كتبت صحيفة النيويورك تايمز: (يجب على كل أمريكي سمح لنفسه بإلقاء النّكَات حول القنابل الذرية، أو مَن اعتبروها مجرَّد ظاهرة مثيرة ينبغي قبولها الآن كمُكَوِّن من مُكَوِّنَات التحضُّر، تمامًا مثل الطائرة ومحرِّك البنزين، أو الذين سمحوا لأنفسهم بالتكهُّن بما يجب فعله في حال أُلْجِئْنَا إلى حرب أخرى، يجب على أولئك جميعًا أن يقرؤوا للسيد هيرسي، حين تُنشَر مقالة المجلة في هيئة كتاب سيقول النُّقَاد إنها وبأسلوبها الخاص عمل كلاسيكي، لكنها في الحقيقة أكثر من ذلك)[٢].

لقد استطاع «هرسي» أن ينقل ما عجز الكثيرون يومها عن تأديته ونقله، وأعاد للصورة توازنها ودقتها، لقد كان حدثًا مفصليًّا مُرْعِبًا مَسَّ بسوطه حياة الملايين من البشر، والأكثر إثارةً للرعب أنه حدثٌ مرشَّح للتكرار في ظل عالَم يزداد ظلمةً وظُلْمًا.

عبد الله بن صالح العجيري

---

(١) The Bomb: A Life, by Gerard DeGroot, p.109.

(٢) The Bomb: A Life, by Gerard DeGroot, p.109.

الفصل الأول

برقٌّ صامت

في تمام الساعة الثامنة والربع من صباح يوم السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م بتوقيت اليابان، وفي اللحظة التي أضاءت فيها سماء «هيروشيما» على وقع انفجار القنبلة الذرية، جلست الآنسة «توشيكو ساساكي» ـ موظفة إدارة شؤون الموظَّفين في مصنع شرق آسيا للقصدير ـ في مكتبها بالمصنع، وأقبلت بوجهها نحو المكتب المجاوِر لتُحادِث جارتها، في تلك اللحظة كان الدكتور «ماساكازو فوجي» يجلس متربِّعًا لقراءة صحيفة «أوساكا أساهي»، في شرفةِ مستشفاه الخاص، والواقع على دلتا أحد الأنهار السبعة التي تقسم هيروشيما، أما السيدة «هاتسويو ناكامورا» ـ أرملة أحد الخيَّاطين ـ فكانت تقف بجوار نافذة مطبخها تنظر لأحد جيرانها فيما هو يهدم بيته؛ ليُخْلِيَ الطريق لمسار النيران؛ والذي يمثل جزءًا من نظام مضادَّات الطائرات، حيث كان منزله يقف في طريقه، وكان الأب الألماني «فيلهلم كلينزوغر» ـ القس في الجمعية اليسوعية ـ مضطجعًا على سرير في أعلى أدوار مبنى البعثة، والمكوَّن من ثلاثة أدوار، بملابسه

الداخلية، يقرأ المجلة اليسوعية «أصوات الأزمان»، وفيما الطبيب الشاب «تيروفومي ساساكي» ـ عضو فريق الجراحة بمستشفى المدينة الكبير والحديث، والتابع للصليب الأحمر ـ يمشي في أحد مَمَرَّات المستشفى حاملاً عيِّنة دم؛ لإجراء اختبار مرض الزهري لأحد المرضى، كان القس «كيوشي تانيموتو» ـ راعي كنيسة هيروشيما الميثودية ـ يقف قليلاً ليرتاح عند باب منزل أحد أثرياء منطقة «كوي»، والواقع في إحدى الضواحي الغربية للمدينة، مستعدًّا لإفراغ عربةٍ ملأى، بعد نزوحه من المدينة خوفًا من غارات طائرات البي ـ ٢٩ الضخمة، والتي كان الجميع يتوقَّع أن تكون هيروشيما ضحيَّتها القادمة قريبًا.

مائة ألف هم ضحايا القنبلة الذرية، فيما هؤلاء الستة كانوا من ضمن الناجين، وظل السؤال الكبير يلّحُ عليهم: لِمَ كُتِبَ لهم أن يعيشوا في حين هلك الكثير؟! كل واحد منهم يحسب حساب عدد من الأمور الصغيرة كانت سببًا في نجاته، إما صدفة هنا، أو قرار اتُّخِذَ هناك، خطوةٌ وقعت في الوقت المناسب، أو قرار دخول إلى داخل البيت، أو اللحاق بعربة ترام معيَّنة دون التي تليها، وكل واحد منهم الآن، وفي سبيل العيش والبقاء، يُدرِك أنه قد عاش عددًا من الحيوات، وشاهَد كمًّا من الموت ما كان يحلُم بأنه سيشاهد مثله في حياته، لكنَّهم في تلك اللحظة ما كانوا يعلمون شيئًا.

* * *

كان القس «تانيموتو» قد استيقظ في الساعة الخامسة من

صباح ذلك اليوم، فوجد نفسه وحيدًا في البيت بعد انتقال زوجته مع طفلهم ذي السنة الواحدة للمَبِيت مع صديقة لها في «أوشيدا» ـ إحدى الضواحي الشمالية للمدينة ـ. ومن بين جميع المدن المهمة في اليابان، فمدينتا «كيوتو» وهيروشيما لم تحظيَا بزيارات ثقيلة لطائرات «بي ـ سان»، أو «السيد بي»، كما كان ينعت اليابانيون طائرة البي ـ ٢٩ بمزيج من التقدير والأُلفة غير المحبَّبة، وهذا ما جعل السيد «تانيموتو» وسائر جيرانه وأصدقائه في حالة توجُّس وقلقٍ دائم.

لقد سمع بالتفاصيل المزعجة عن الغارات الضخمة على كل من «كور»، و«إيواكوني»، و«توكوياما»، وغيرها من المدن المجاورة، وكان متأكِّدًا بأن هيروشيما سيأتيها الدور قريبًا.

لم يهنأ بكثير نوم ليلة البارحة، وذلك بسبب دوِيّ صافرات الإنذار المحذِّرة من غارات جوية محتملة، لقد كانت هيروشيما تَبِيتُ كلَّ ليلة تقريبًا على مثل هذه التحذيرات، الأمر الذي استمر لأسابيع؛ حيث كانت طائرات بي ـ ٢٩ تتَّخذ من بحيرة «بيوا» الواقعة شمال شرق هيروشيما نقطة تجمُّع لها.

وبغض النظر عن المدينة التي كان يخطِّط الأمريكان لضربها، فإن التحصينات المنيعة كانت ممتدَّة بطول الساحل المقارِب لهيروشيما. لكن كان لتواصل التحذيرات مع غياب «السيد بي» عن هيروشيما أثرُه في ازدياد حالة التوتُّر والترقُّب بين السكان، خصوصًا مع تناقُل شائعة مفادها أن الأمريكان يخبؤون شيئًا خاصًّا لهذه المدينة.

السيد «تانيموتو» رجل ضئيل البنية، سريع الكلام، وسريع الضحك والبكاء، شعره أسود وطويل إلى حدٍّ ما، مع فُرقةٍ في الوسط، وبسبب بروز جبهته فوق حاجِبَيْهِ مباشرة، وصِغَر شاربه وفَمِه وذقنه، فقد كان منظره غريبًا، بَدَا وكأنه شيخ شاب، صبياني ولكنه حكيم، ضعيف ولكنه يَتَّقِدُ حماسًا، يتحرَّك على نحو متوتِّر وسريع، ولكن بانضباط يَخْلُق انطباعًا بأنه رجلٌ حَذِرٌ، ووقور، لقد أظهر فعلاً تلك الصفات في الأيام الصعبة التي سبقت يومَ سقوط القنبلة، وفي الوقت الذي كانت تقضي زوجته لياليها في «أوشيدا» فقد كان السيد «تانيموتو» يحمل جميع ما يمكن حَمْلُه من كنيسته إلى مقاطعة «ناغاراغوا»، وهي منطقة سكنية مُكْتَظَّة بالناس تَبْعُد ثلاثة كيلومترات[1] عن وسط المدينة، قاصدًا منزل أحد مُلَّاك مصنع حرير في «كيو»، حيث إن السيد «ماتسوي» ـ وهو صاحب مصنع الحرير هذا ـ قام بفتح منزله غير المأهول حينها لعدد كبير من أصدقائه ومعارفه ليقوموا بتخزين وحِفْظِ ما يرغبون في حفظه في مكان آمِن، وبعيد عن المواقع التي يُحْتَمَل استهدافها، ولم يجد السيد «تانيموتو» صعوبة في نقل الكراسي، وكُتُب التراتيل، والأناجيل، ومحتويات المحراب، وسجلَّات الكنائس عن طريق دفع العربة بنفسه، لكن نقل الأورغ والبيانو كان يتطلَّب بعض المساعدة، وهو ما حصل عليه فعلاً، حيث قام

(١) قمت بتحويل غالب الوحدات من وحدات القياس الأمريكي (كالميل، والياردة، والقدم، والباوند وغيرها) إلى النظام الدولي للوحدات لتكون مثل هذه المسافات والمساحات والأوزان أقرب لذهن القارئ العربي. (المترجم).

صديق له يُسمَّى «ماتسو» بمساعدته في اليوم السابق، وقامَا معًا بنقل البيانو إلى «كوي»، وفي مقابل هذا فقد وَعَدَ السيد «تانيموتو» صاحبه بأن يقدِّم له يد المساعدة في نَقْل مقتنيات ابنته في هذا اليوم، وهو ما حَمَلَهُ على الاستيقاظ في وقت مبكِّر جدًّا من هذا اليوم.

قام السيد «تانيموتو» بإعداد وجبة الإفطار الخاصة به، وقد كان يشعر بالتعب والإعياء الشديدين، فالجهد الذي بذله في نقل البيانو في اليوم السابق، مضافًا إلى ليلةٍ لم يَهْنَأْ فيها بنوم، وأسابيع من التوتُّر والقلق، وعدم انتظام برنامجه الغذائي، واهتمامه برعايا كنيسته، كل ذلك كان يُشْعِرُه بأنه لم يكن مهيَّئًا للقيام بمهام يومه الجديد. كان هناك شيء آخر أيضًا يخص السيد «تانيموتو»؛ فقد درس علم اللَّاهوت في كلية «إيموري»، في مدينة «أتلانتا»، بولاية «جورجيا»، وتخرج منها في ١٩٤٠م، وهو ما يفسِّر قدرته على الحديث بالإنجليزية بطلاقة، كما أنه كان معتادًا على ارتداء الملابس الأمريكية، وكانت له علاقات صداقة بعدد من الأمريكان، والذين استمرت صلته بهم ولقاءاته إلى بدايات الحرب، وهي أمور كانت تزيد من تَوَتُّره، وتبعث عنده شعورًا بعدم الطمأنينة؛ إذ كان متخوِّفًا من أن يكون مراقَبًا، أو أن السلطات تتجسَّس عليه، ولم يكن تخوفه هذا من فراغ؛ فقد استجوبته الشرطة عدة مرات، وقبل بضعة أيام فقط وصله خبر أن أحدَ مَن يعرفهم شخصيًّا ممن له تأثير وشهرة في «هيروشيما»، وهو السيد «تاناكا»، الموظف المتقاعد من شركة «تويو كيسن

كيشا» للنقل البحري، والمناهض للمسيحيين، والذي اكتسب شهرته بسبب أعمال خيرية مبهرجة، وسمعة سيئة بسبب طغيانه الشخصي، كان هذا الرجل يُشِيع بين الناس أنه لا ينبغي الثقة في «تانيموتو»، وكمحاولة لاستعادة شيء من سمعته كياباني جيد تولَّى السيد «تانيموتو» رئاسة «التوناريغومي»، وهي وحدة محلية مُصَغَّرَة تم تأسيسها في الحرب العالمية لإدارة بعض الملفات الأمنية المتعلقة بالحي؛ كالقيام بعمليات الإطفاء، والحراسة، وغير ذلك، وقد أضاف منصبُه هذا لمهامِّه ومسؤولياته مسؤوليةَ تنظيم وإدارة الدفاعات الجوية لعشرين عائلة تقريبًا.

قبل الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم كان السيد «تانيموتو» عند منزل السيد «ماتسو»، وهناك وجد أمامه الحمولة التي جاء لنقلها؛ خزانة يابانية كبيرة ـ تسمى «تانسو» ـ ملأى بالملابس، وبعض الأدوات المنزلية، فبدأ بمعاونة صاحبه في نقلها. كانت السماء صافيةً تمامًا، والجو حارًّا على نحو يُبَشِّر بأنه سيكون يومًا شاقًّا، بعد دقائق قليلة من بَدْئِهما بالعمل انطلقت صافرات الإنذار محذِّرة من غارة جوية محتملة، كانت نغمة الإنذار تستمر في الدوي لمدة دقيقة كاملة، لكنها لم تعد تثير مخاوف كبيرة عند سكان هيروشيما؛ إذ كان هذا الإنذار ينطلق صباحَ كلِّ يوم، وفي ذات الوقت حين تَجُوز الأجواءَ طائرةُ رَصْدِ الطقس الأمريكية، كان الرجلان يسحبان العربة تارةً، ويدفعانها أخرى عبر شوارع المدينة.

كانت «هيروشيما» مدينة تبدو من أعلى وكأنها مروحة،

مستقرة في أغلبها على ست جزر تشكَّلت بفعل أنهار سبعة متفرِّعة من نهر «أوتا»، والتي تَصُبُّ جميعًا في نهاية المطاف في البحر. تغطِّي المناطق السكنية والتجارية الرئيسية حوالي عشرة كيلومترات مربَّعة من مساحة وسط المدينة، ويمثِّل سكانُها ثلاثة أرباع سكان المدينة، وهي نسبة أخذت في التناقُص بفعل برامج الإخلاء، لتنخفض من ٣٨٠ ألف نسمة في ذروة الحرب لتصل إلى حوالي ٢٤٥ ألف نسمة، أما المصانع، وبعض الأحياء السكنية الأخرى، أو الضواحي، فكانت تمتدُّ على نحو مُتَرَاصٍّ في أطراف المدينة، وإلى الجنوب يوجد ميناء المدينة ومطارها، بالإضافة إلى خليج داخلي، وتمتد سلسلة من الجبال لتحيط بالجوانب الثلاثة الأخرى من الدلتا.

شق السيد «تانيموتو» والسيد «ماتسو» طريقهما عبر مركز التسوق، والذي كان ممتلئًا بالناس، ثم قطعَا نهرين ليصلَا إلى شوارع «كوي» المنحدرة، ثم إلى ضواحي وسفوح المدينة، وبينما كانَا يَمُرَّان بأحد الأودية بعيدًا عن المنازل المتراصَّة أخذت صافرات زوال الخطر في العمل، (رَصَدَ مراقِبُو أنظمة الرادار اليابانية ثلاث طائرات فقط، يُفترَض أنها طائرات استطلاع).

كانت عملية دَفْع العربة إلى منزل السيد «ماتسوي» عملية مرهقةً، وبمجرَّد وصولهما بحمولتهما عند عتبة الدار توقَّفَا قليلاً للراحة، لم يكونَا يستطيعان رؤية المدينة؛ إذ كان جزءٌ من الدار يفصل بينهما وبينها، ويحجبها عنهما.

كان المنزل ـ كغالب المنازل في اليابان ـ مؤلَّفًا من إطار

خشبي، وجدران خشبية تحمِل فوقها سطحًا قِرميديًّا ثقيلاً، كانت الصالة الأمامية مملوءة بالفُرُش المطوية والملابس، وكأنها كهفٌ بديع مُكْتَظٌّ بالوسائد الوثيرة، وفي الجهة المقابلة للدار، على يمين الباب الأمامي، كانت هناك حديقة صخرية كبيرة وأنيقة. لم يكن هناك صوت لأي طائرات، ولا زال الصباح هادئًا، والمكان رائعًا ومريحًا.

وفجأة ظهر نور ساطع عظيم شقَّ صفحة السماء، كان السيد «تانيموتو» يتذكَّر بوضوح أن ذلك الضوء كان قادِمًا من جهة المشرق متَّجِهًا نحو المغرب، ومن المدينة ليصل إلى التلال، بَدَا كوابلٍ من أشعة الشمس الساطعة، كانت رِدَّة فِعْلِه والسيد «ماتسو» مملوءة بالرعب والفزع، لكنها كانت كافية للاستجابة للحَدَث (فقد كانَا على بُعْد ٣ كم تقريبًا من مركز الانفجار)، فقد اندفع السيد «ماتسو» مُسْرِعًا إلى داخل المنزل، وانغمس بين الفُرُش المطوية، ودَفَنَ نفسه هناك، أما السيد «تانيموتو» فقد أخذ أربع خطوات أو خمسًا، وألقى بنفسه بين صخرتين كبيرتين في الحديقة، ثم أَلْصَقَ نفسه بواحدة منهما بقوة، محتميًا بها، ولأن وجهه كان مواجِهًا للصخرة فإنه لم يَرَ ما حدث، شعر بضغط مفاجئ، وبدأت تتساقَط عليه أجزاء وشظايا من الخشب وقِطَع القِرْمِيد، ولم يسمع دويًّا بتاتًا، (لا يكاد أحد من أهل هيروشيما يتذكَّر أنه سمع أي صوت للانفجار، لكن أحد صيَّادي السمك أثناء وجوده في زورقه في الخليج الداخلي بالقرب من «تسوزو»، وهو بالمناسبة الشخص الذي كانت تقيم عنده كلٌّ من حَمَاة

وزوجة السيد «تانيموتو»، ذكر أنه رأى ضوء الانفجار، وسمع دوِيَّه الهائل وهو على بُعْد اثنين وثلاثين كيلومترًا، وقد كان هذا الدوِيُّ أشدَّ من دوِيِّ انفجارات «إيواكوني» حين ضربتها طائرات بي ـ ٢٩، وقد كان يَبْعُد عنها حينها مسافة ثمانية كيلومترات فقط).

وحين تجرَّأ قليلاً رفع السيد «تانيموتو» رأسه ليرى أن منزل رجل الحرير قد انهار تمامًا، كان يَظُنُّ لحظتها أن قنبلة قد وقعت على المنزل بشكل مباشر، كانت سُحُب الغبار قد ارتفعت على نحوٍ جعل المشهد يبدو وكأن الشَّفَقَ قد لَفَّ المكان، وبسبب الهلع الذي انتابه لم يفكِّر للحظة في السيد «ماتسو»، والذي كان تحت الأنقاض؛ بل انطلق مسرعًا نحو الشارع، لاحظ أثناء رَكْضِه أن السور الخرساني للمنزل قد وقع باتجاه المنزل إلى الداخل عِوَضًا عن الوقوع للخارج، وكان أول ما رآه لحظةَ وصوله للشارع فرقة من الجنود كانوا يُجَهِّزُون عددًا من المخابئ في التلة المقابلة، كانت تلك واحدة من آلاف المخابئ التي كان يعتزم اليابانيون تهيئتها لمقاومة أي اجتياح مستقبلي، تلة تلو الأخرى، وحياة من أجل حياة، كان الجنود الآن يخرجون من الحفرة التي من المفترض أن تكون محلًّا آمنًا، كانوا يخرجون والدماء تجري من رؤوسهم وصدورهم وظهورهم، لقد كانوا صامتين تمامًا ومَبْهُوتِين. ومن تحت ما يبدو أنه سحابة غبار محلية كان النهار يزداد ظُلْمَةً.

* * *

عند قرابة منتصف الليل، في الليلة التي سبقت يوم إسقاط القنبلة، أعلن المذيع من محطة الإذاعة المحلية أن حوالي مائتي طائرة من طراز بي ـ ٢٩ كانت تقترب من جنوب «هونشو»، ونصح سكان هيروشيما بإخلائها إلى «المناطق الآمنة» المخصَّصة لهم، كانت السيدة «هاتسويو ناكامورا» ـ أرملة الخيَّاط ـ تعيش في منطقة تسمَّى «نوبوري ـ تشو»، واعتادت منذ مدة طويلة أن تكون طَيِّعَةً ومنصاعةً لكل ما تُؤْمَر به.

كان لديها ثلاثة أطفال: «توشيو» الصبي ذو العشر سنوات، و«يايكو» صاحبة الثماني سنوات، والطفلة ذات الخمس سنوات «مِيَكُو»، بعد سماعها للتحذير قامت بإيقاظهم جميعًا، وأَلْبَسَتْهُم سريعًا؛ ليمضوا إلى أحد المناطق العسكرية التي تُعْرَف بقاعدة الموكب الشرقي، والواقع في الطرف الشمال شرقي للمدينة، وبمجرَّد وصولها نشرت عددًا من الحُصر على الأرض، وجعلت أطفالها يستلقون عليها، ناموا جميعًا حتى الساعة الثانية تقريبًا، حيث استيقظوا على وَقْع هدير الطائرات المحلِّقة فوق هيروشيما، وبمجرَّد مرور تلك الطائرات من فوقهم قامت السيدة «ناكامورا»، وأخذت أطفالها عائدة إلى المنزل. حين وصلوا إلى المنزل بُعَيْد الثانية والنصف عمدت مباشرة لتشغيل الراديو، والذي كان ـ لمصيبتها ـ يُذِيع للتَّوِّ تحذيرًا مباشرًا، وحين نظرت لأطفالها ورأت ما بهم من التعب والإرهاق، واسترجعت عدد الرحلات التي قاموا بها في الأسابيع الماضية إلى قاعدة الموكب الشرقي دون فائدة تُذْكَر، قرَّرت عدم فِعْل شيء، على الرغم من التعليمات

الصادرة عن الراديو، فقد كانت ـ ببساطة ـ غير قادرة على معاودة الأمر من جديد، وضعت أطفالها في فُرُشِهم على الأرض، واستلْقَتْ هي الأخرى الساعة الثالثة، لتنام مباشرة وعلى نحو عميق، لدرجة أنها لم تَلْحَظ أصوات الطائرات التي كانت تمر بالأجواء تلك الليلة.

في الساعة السابعة استيقظت فَزِعَةً على وَقْع صافرات الإنذار، قامت على عَجَلٍ وارتدت ملابسها، وذهبت بسرعة إلى منزل السيد «ناكاموتو» ـ والذي يرأس جمعية الحي ـ لتسأله عما يجب عليها فعله، أخبرها بأن عليها أن تبقى في منزلها ما لم تسمع صوت التحذير العاجل، والذي يصدر على هيئة نغمات متقطِّعة ومتتابعة، عادت إلى منزلها، وقامت بإيقاد الفُرْن في المطبخ، وجهَّزت بعض الأرز لطبخه، وجلست تقرأ النشرة الصباحية لصحيفة «هيروشيما تشوغوكو»، وحين بدأت الصافرات تدوِّي في الساعة الثامنة مُعْلِنَةً زوال الخطر شعرت بالراحة والطمأنينة، وصل إلى سمعها صوت الأطفال وقد استيقظوا وهم يتقلَّبون في فُرُشِهم، فقامت إليهم وأَعْطَتْ كل واحد منهم قبضة من حبَّات الفول السوداني، وأمرتهم بأن يَبْقُوا في فُرُشِهم رجاءَ أن يعودوا إلى النوم، بسبب ما عانوه من إرهاق المشي في الليلة الماضية، لكن الصَّخَب الآتي من صاحب البيت المجاوِر من جهة الجنوب بسبب أعمال الطَّرْق، والضرب، والهدم، والتمزيق، لم تكن تساعِد كثيرًا على النوم.

كانت الحكومة المحلية مقتنعة؛ كحال الجميع في

هيروشيما، بأن المدينة ستتعرَّض لهجوم قريب، ولذا فقد بدأت بالضغط عبر التهديد والتحذير لإتمام تهيِئة ممرَّات الحرائق الواسعة، والتي كان يؤمَّل أن تعمل مع الأنهار في تحجيم انتشار الحرائق في المدينة في حال وقوع أي غارة جوية يمكن أن تتسبَّب في حرائق واسعة، وقد كان هذا الجار يضحِّي على مَضَضٍ بمنزله من أجل سلامة المدينة. وقبل يوم واحد فقط أمرت الحكومة المحلية جميع فتيات المرحلة الثانوية، والقادرات على العمل، بالمساعدة لبضعة أيام في تنظيف هذه الممرات، وإزالة أية عوائق منها، فبدأْنَ بالعملِ فعلاً بعد وقت قصير من إطلاق صافرات زوال الخطر.

عادت السيدة «ناكامورا» إلى المطبخ، وألقت نظرة على الأرز، ثم أخذت تراقب جارها، في البداية كانت منزعجة منه بسبب الضجيج والصَّخَب الذي كان يُحْدِثُه، ولكن مشهده بعد ذلك كاد يهيجها على البكاء شفقةً عليه، عواطفها تعلَّقت بشكل خاص بمنظره وهو يهدم بيته قطعةً قطعةً، في وقت انتشر فيه الخراب في كل مكان، على نحو لا يمكن دفعه، شعرت أيضًا بمشاعر عامة من الشفقة على حال مجتمعها، فضلاً عن مشاعر الشفقة التي اجتاحتها على نفسها، فالظروف التي مرَّت عليها لم تكن سهلة.

كان زوجُها «إيساوا» قد التحق بالجيش بعد ولادة «مِيكُو» مباشرة، ولم تتلَقَّ أي نبأ منه أو عنه لفترة طويلة، استمر الأمر كذلك حتى تلقَّت برقيةً في الخامس من مارس سنة ١٩٤٢م،

مؤلَّفةً من سبع كلمات فقط: «لقد مات إيساوا في سنغافورة موتًا مشرفًا». علمت بعد ذلك أنه كان قد تُوُفِّيَ في الخامس عشر من فبراير، في اليوم الذي سقطت فيه سنغافورة، وأنه كان عريفًا حينها في الجيش. لم يكن عمل «إيساوا» في الخياطة مزدهرًا، وكان رأس ماله الوحيد آلة خياطة يستعملها من نوع «سانكوكو». بعد وفاته، وبعد توقُّف مخصَّصاته المالية، أخرجت السيدة «ناكامورا» آلة الخياطة تلك، وبدأت تستقبل طلبات الخياطة بنفسها، ومن ذلك الوقت وهي تَعُول أطفالها من عملها في الخياطة كَفَافًا.

وبينما كانت السيدة «ناكامورا» تقف وتراقب جارها أضاء كل شيء حولها ببياضٍ أشد من أي بياض شاهدته في حياتها، لم تُلْقِ بالًا لِمَا جرى لجارها الذي كانت تراقبه للتَّوِّ؛ بل تحرَّكَتْ بغريزة الأمومة مندفعة نحو أطفالها، أخذت خطوة واحدة فقط في منزل يَبْعُد عن مركز الانفجار ١٢٠٠ متر تقريبًا، لتفاجأ بنفسها تطير في الهواء وكأن شيئًا التقطها للأعلى وقذف بها إلى الغرفة المجاورة فوق سرير تم رفعه، لتتبعها بعد ذلك أجزاء مبعثرة من المنزل.

وعندما سقطت على الأرض تناثرت حولها أجزاء من الخشب المتطاير، وانهالت قطع القِرْمِيد تتساقط عليها، وأظلم حينها كل شيء، فقد كانت مدفونة وسط الحطام، لكن الحطام لم يُغَطِّها بشكل كبير، فنهضت بسرعة وحرَّرت نفسها، كانت تسمع صرخات أحد أطفالها ينادي: «أمي، ساعديني!»، لتشاهِد أصغر

أطفالها «مِيَكُو» البالغة من العمر خمس سنوات، مدفونةً حتى صدرها في وسط الركام، وغير قادرة على التحرُّك، وبينما كانت السيدة «ناكامورا» تَشُقُّ طريقها نحو طفلتها بشكل هستيري، أدركت أنها لا ترى أثرًا، أو تسمع حِسًّا لطفلَيْها الآخَرَيْنِ.

* * *

في الأيام التي سبقت القصف مباشرةً، كان الدكتور «ماساكازو فوجي» يعيش حياة ترفٍ ومتعةٍ، كانت مشاغله قليلة، مما سمح له برفاهية النوم حتى التاسعة، أو التاسعة والنصف صباحًا، ولكنه في صباح ذلك اليوم الذي أُسْقِطَتْ فيه القنبلة كان مضطرًّا للنهوض باكرًا لإيصال أحد ضيوفه وتوديعه عند محطة القطار، استيقظ في السادسة صباحًا، وبعد نصف ساعة كان يسير بصحبة صديقه إلى المحطة التي كانت بالجوار، لم تكن المحطة تَبْعُد كثيرًا، مسافة قطع نهرين من منزله، عاد بعدها إلى منزله ليصل في الساعة السابعة، ولتبدأ صافرات الإنذار بالدوي بنغمة تحذير مستمرة، أكل فطوره، ونظرًا لحرارة الجو في ذلك الصباح قام بخلع ملابسه كلها، وبَقِيَ في ملابسه الداخلية فقط، وخرج إلى الشرفة لقراءة الصحيفة.

هذه الشرفة؛ بل المبنى كله في الواقع، بُني بطريقة غربية، وقد كان الدكتور «فوجي» مالكًا لمؤسسة يابانية مميَّزة على نحو خاص؛ مستشفى خاص يقوم عليه طبيب واحد، كان مبنى المستشفى الواقع بجوار نهر «كيو» وفوقه، وبجوار جسرٍ يحمل اسم النهر نفسه، يحتوي على ثلاثين غرفة لثلاثين مريضًا مع

مرافقيهم، فقد كان العُرْف باليابان يقضي بأن المريض متى ذهب إلى المستشفى فإن واحدًا من أفراد أسرته أو أكثر يتبرَّع للذهاب معه؛ ليقوم على خدمته؛ بالطبخ، والغسل، والتدليك، ومساندته عاطفيًّا ونفسيًّا، والقراءة له، ولولا هذا لانتابت المريض الياباني مشاعر التعاسة حتمًا.

لم يكن لدى الدكتور «فوجي» أَسِرَّة، وإنما حُصُر من قَشٍّ خُصِّصَت للمرضى، لكنه كان يملك أنواعًا متعدِّدة من الأجهزة الحديثة: جهاز أشعة سينية، وجهاز إنفاذ حراري، بالإضافة إلى مختبر مميَّز، كان ثُلُثَا المبنى رابضًا على الأرض، فيما يقف الثلث المتبقِّي مستندًا على أعمدة خشبية فوق المياه المتحركة لنهر «كيو»، كان الجزء الذي يسكنه الدكتور «فوجي» من المبنى يبدو بارزًا وغريبًا بعض الشيء، لكنه كان باردًا في الصيف، وكانت الشرفة التي تُطِلُّ على النهر بعيدًا عن مركز المدينة تُعطِي المراقب شعورًا بالمتعة والارتياح وهو يشاهد منظر النهر الجاري، والقوارب الذاهبة والآتية بطوله.

كانت تمر على الدكتور «فوجي» بين الفَيْنَة والأخرى لحظاتُ قلقٍ وتوجُّس، وذلك حين يرتفع منسوب مياه «أوتا» بفروعه، فيفيض الماء، ولكن ظلَّت الأعمدة الخشبية التي يقوم عليها المبنى صامدة وقوية، بما يحفظ للمبنى استقراره وثباته.

ظل الدكتور «فوجي» عاطلاً نسبيًّا عن العمل لمدة شهرين؛ إذ إنه في يوليو، ومع تناقُص عدد المدن التي لم يتم قصفها، بدت هيروشيما على نحو متزايِد عرضةً لاستهداف مؤكَّد، الأمر

الذي حمله على تَرْك استقبال أي مريض خشيةً من أي غارة جوية محتملة تكون سببًا في وقوع حرائق يكون عاجزًا معها عن إخلاء المستشفى، لم يَتَبَقَّ لديه الآن سوى مريضين؛ امرأة من «يانو» عندها إصابة في الكتف، وشاب في الخامسة والعشرين من عمره، آخِذٌ في التعافي من حروق أصابته جرَّاء قصف مصنع الصلب الذي يعمل فيه، والواقع بالقرب من هيروشيما.

كان لدى الدكتور «فوجي» ست ممرِّضات لرعاية شؤون المرضى، وكانت زوجته وأولاده في مأمن؛ فزوجته وأحد أبنائه كانَا يقيمان خارج «أوساكا»، فيما كان ابنُه الآخر وابنتاه يعيشون في ريف «كيوشو»، لكن إحدى بنات أخته كانت تعيش معه، إضافةً إلى خادم وخادمة، كان لديه القليل ليفعله، ولم يكن يحمل همَّ ذلك، فقد ادَّخَر لنفسه بعض المال، فهو في الخمسين من عمره، ثَرِيٌّ، ويتمتَّع بصحة جيدة، وحياة هادئة ومُبْهِجَة، وكان سعيدًا بتمضية مساءاته في شرب الويسكي مع أصدقائه، لم يكن مُسْرِفًا في الشراب؛ بل كان يشرب على نحو معقول، ومن أجل مداولة الحديث، وكان قبل الحرب قد اقتنى عددًا من أنواعه المستوردة من أسكتلندا وأمريكا، ولكنه الآن رَاضٍ تمامًا عن أفضل ماركةٍ يابانية «سانتوري».

جلس الدكتور «فوجي» متربِّعًا في ملابسه الداخلية على جزء نظيف من الحصير على الشرفة، ولَبِسَ نظارته، وبدأ في قراءة صحيفة «أوساكا أساهي»، فقد كان يحب متابعة أخبار «أوساكا»؛ لأن زوجته كانت هناك، ثم رأى الضوء الخاطف، بالنسبة إليه،

ولأنه كان ينظر في الصحيفة ووجهه منصرف عن مركز المدينة، بَدَا له الضوء أصفر فاقع الصفرة، بدأ في النهوض على قدميه مذعورًا، وفي تلك اللحظة التي كان يبعد فيها ١٤٠٠ متر من المركز، مال المستشفى من ورائه، ومع صوت انهيار رهيب انهار المبنى في النهر، وأثناء محاولته للقيام على قدميه سقط إلى الأمام، ثم إلى الخلف، ثم هوى من أعلى الشرفة، لقد كان مذهولاً مما يَجْرِي، وفَقَدَ القدرة على متابعة ما يجري، إذ كانت الأحداث تتسارَع بشكل رهيب، ووجد نفسه فجأة في الماء.

لم يكن لدى الدكتور «فوجي» وقتٌ كافٍ للتفكير في أنه يموت قبل أن يُدْرِك أنه لا زال على قيد الحياة، محشورًا بإحكام بين جذعين طويلين على شكل حرف V، والذي كان يضغط على صدره بقوة، مثل لقمةٍ معلَّقةٍ بين عودين كبيرين من أعواد الأكل تم رفعهما للأعلى، لم يكن في مقدوره التحرُّك، لكن ـ وعلى نحو مُعْجِز ـ كان رأسه فوق الماء، بينما جذعه وساقاه منغمسان فيه تمامًا.

كانت بقايا المستشفى مبعثرة في كل مكان حوله، في تشكيلة مجنونة من الأخشاب والمواد الممزقة، وكانت كتفه اليمنى تؤلمه على نحو رهيب، ونظَّارته قد فُقِدَتْ تمامًا.

* * *

في صباح يوم الانفجار كان الأب «فيلهلم كلينزوغر» من جمعية يسوع، في حالة واهنة نوعًا ما، فنظام الغذاء الياباني في زمن الحرب لم يلائمه، وبدأت الضغوط النفسية تنال منه؛ إذ كان

أجنبيًّا في بلد باتت تتزايَد كراهيةُ أهله للأجانب، فمع كونه ألمانيًّا، إلا أن هزيمة أرض الآباء لم تَلْقَ شعبيةً هنا، كان الأب «كلينزوغر» صاحب الثماني والثلاثين عامًا، يبدو كصبي ينمو بسرعة كبيرة، رقيق الوجه، مع تفاحة آدم بارزة، وصدر أجوف، ويدين متدلِّيَتَيْنِ، وأقدام كبيرة، يمشي باضطراب، ويميل في مشيته قليلاً نحو الأمام، كان مُتْعَبًا طيلة الوقت، ومما زاد الطين بِلَّةً أنه عانى لمدة يومين مع صاحبه الأب «شيسلِك»، وهو قَسٌّ أيضًا، من إسهال مؤلم طرأ عليه، وقد ألقى باللوم على الفول وخبز التموين الأسود الذي اضْطُرُّوا لأكله، كان هناك قسان آخران يعيشان أيضًا في مجمع البعثة، والواقع في قطاع «نوبوري ـ تشو»، وهما رئيس الدير الأب «لاسال»، والأب «شيفر»، ولحسن حظهما فقد استطاعَا النجاة من تلك المحنة الموجعة.

استيقظ الأب «كلينزوغر» في حوالي الساعة السادسة من صباح يوم إسقاط القنبلة، وظلَّ لمدة نصف ساعة ـ إذ كان غيرَ مُكْتَرِثٍ بالوقت نتيجة مرضه ـ ليبدأ بعدها في قراءة القُدَّاس في مصلى البعثة، كان هذا المصلَّى عبارة عن مبنى خشبي صغير على الطراز الياباني، ولم يكن يحتوي على مقاعد للجلوس، فالمصلُّون هنا معتادون على أن يَجْثُوا على الأرضية المغطاة بالسجاد الياباني، مستقبِلين المذبح المزيَّن بالحرير الفاخر، والنحاس، والفضة، والزخرفة الكثيفة.

في صباح يوم الاثنين لم يكن هناك أحد من المصلِّين سوى السيد «تاكيموتو»، وهو طالب في اللاهوت يعيش في منزل البعثة،

والسيد «فوكاي»، سكرتير الأبرشية، والسيدة «موراتا»، خادمة البعثة، والملتَزِمة بنصرانيَّتها على نحو عميق.

بعد الفراغ من القُدَّاس، وبينما كان الأب «كلينزوغر» يقرأ دعاء الشكر، بدأت صافرة الإنذار بالدوي، أوقف دعاءه، وتراجَع هو وبقية العاملين في البعثة إلى أكبر مبنى في المجمع. هناك، في غرفته في الطابق الأرضي، على يمين الباب الأمامي، ارتدى الأب «كلينزوغر» زِيًّا عسكريًّا كان قد حصل عليه عندما كان يُدَرِّس في مدرسة «روكو» المتوسطة في «كوب»، والذي اعتاد ارتداءه أثناء التحذير من الغارات الجوية.

وكان الأب «كلينزوغر» معتادًا بعد سماع صوت الإنذار أن يخرج لينظر في صفحة السماء، قلَّب نظره في السماء وشعر بالاطمئنان والسعادة حين لم يَرَ في السماء إلا طائرة الطقس الوحيدة، والتي كانت تعبر أجواء هيروشيما يوميًّا في مثل هذا الوقت، ولأنه كان مطمئنًّا بأن شيئًا لن يحدث، دخل وتناوَل وجبة الإفطار مع بقية القساوسة، كانت الوجبة عبارة عن بديل القهوة، وحصة من الخبز، وكانت هذه الوجبة في ظل هذه الظروف كريهة على نحو خاص.

جلس القساوسة معًا وتحدَّثوا لبعض الوقت، حتى جاءت الساعة الثامنة، وسمعوا الصافرات تُعْلِنُ زوال الخطر، انتقلوا بعدها إلى أجزاء مختلفة من المبنى. عاد الأب «شيفر» إلى غرفته للكتابة، أما الأب «شيسلِك» فرجع إلى غرفته ليجلس على كرسي مستقيم واضعًا وسادة على بطنه لتخفيف ما يشعر به من ألم، وبدأ

يقرأ، فيما وقف الأب «لاسال»، رئيس الدير، عند نافذة غرفته وأخذ يفكِّر، أما الأب «كلينزوغر» فصعد إلى غرفته في الطابق الثالث، وخلع جميع ملابسه باستثناء ملابسه الداخلية، واستلقَى على جنبه الأيمن على سرير نَقَّال، وبدأ في قراءة المجلة الألمانية «أصوات الأزمان» « Stimmen der Zeit».

ثم ظهر ضوء رهيب، وهو ضوء ذَكَّر الأب «كلينزوغر» لاحقًا بشيء كان قد قرأه في صِبَاه حول نَيْزَك ضخم يصطدم بالأرض، في تلك اللحظة كان لديه وقتٌ ـ إذ كان يبعد ١٢٨٠ مترًا من مركز الانفجار ـ لفكرةٍ واحدةٍ فقط؛ لقد سقطت قنبلة علينا مباشرة، ثم، ولبضع ثوانٍ أو دقائق، أُغْلِقَ على عقله تمامًا.

لم يَدْرِ الأب «كلينزوغر» بعدها كيف خرج من المنزل، الأمر الذي كان واعيًا به بعد ذلك أنه كان خارج المبنى يَهِيمُ في حديقة الخضروات التابعة للبعثة في ملابسه الداخلية، كان ينزف قليلاً من بعض الجروح الطفيفة على طول جانبه الأيسر، كما كان يتذكَّر أن جميع المباني حوله كانت قد تهاوَتْ باستثناء بيت بعثة اليسوعيين، وذلك بسبب دعائمه التي تم شَدُّها وتقويتها، والتي أُعِيدَ شَدُّها مرة أخرى قبل فترة طويلة من قِبَل قس يدعى «غروبر»، والذي كان مرعوبًا من الزلازل، تذكَّر أيضًا أن النهار قد تحوَّل إلى ظلام، وأن «موراتا سان»، مدبرة المنزل، كانت قريبةً منه، وتصرُخ مرةً بعد أخرى: «شو جيسوسو، أواريمي تاماي!» «ربنا يسوع، أشفق علينا!».

* * *

في القطار الذي كان في طريقه إلى هيروشيما من البلدة التي كان يعيش فيها مع والدته أخذ الدكتور «تيروفومي ساساكي»، جَرَّاح مستشفى الصليب الأحمر، يفكِّر في أمر كابوس مُزْعِج كان قد أفزعه في الليلة السابقة، كان منزل والدته يقع في «موكيهارا»، على بُعْدِ ثمانٍ وأربعين كيلومترًا من المدينة، وكانت رحلته للمستشفى تستغرق منه ساعتين متنقلًا بالقطار والترام، لم يكن مستريحًا أثناء نومه طيلة الليل، واستيقظ قبل ساعة من موعد استيقاظه المعتاد، كان يشعر بشيءٍ من الكسل والخمول، وأنه محموم قليلاً، وقد جعله ذلك متردِّدًا بعض الشيء في الذهاب إلى عمله في المستشفى ذلك اليوم، لكن شعوره بالمسؤولية أجبره في النهاية على الذهاب.

ذهب مستقلًّا القطار السابق لقطاره الذي اعتاد أن يركبه في أغلب صباحاته، كان الحلم مفزعًا بالنسبة إليه على نحو خاصٍّ؛ لأنه كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا ـ في ظاهر الأمر على الأقل ـ بحقيقةٍ مزعجةٍ، فقد كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنةً فقط، وقد أكمل للتَّوِّ تدريبه في الجامعة الطبية الشرقية «في تسينغتاو» في الصين، وكانت عنده نزعة مثالية، شعر معها بالألم؛ لعدم كفاية المرافق الطبية لاحتياجات البلدة التي تعيش فيها والدته، وبدأ من تلقاء نفسه، وبدون تصريح، بزيارة بعض المرضى هناك في وقت المساء، بعد ثماني ساعات كاملة يقضيها في المستشفى، وأربع ساعات أخرى يقضيها في السفر ذهابًا وإيابًا، وقد علم مؤخرًا أن عقوبة ممارسة المهنة دون تصريح كانت شديدة، وعندما استشار

أحد زملائه في هذا الموضوع وَبَّخَهُ بعنف وشدة، ومع ذلك فقد استمرَّ في ممارسة ذلك.

كان قد رأى في منامه أنه بجوار سرير أحد مرضاه من تلك البلدة، ليفاجأ باقتحام الشرطة والطبيب الذي استشاره الغرفة، قبضوا عليه، وجَرُّوهُ للخارج، وهناك ضربوه بقسوة ووحشية، كاد أن يقرِّر وهو في القطار أن يتخلَّى عن العمل كليةً في «موكايهارا»؛ فقد شعر أنه سيكون من المستحيل الحصول على تصريح؛ لأن السلطات سترى في ذلك تعارُضًا مع واجباته في مستشفى الصليب الأحمر.

في نهاية المحطة استطاع اللحاق مباشرة بترام كان قد تحرَّك للتَّوِّ، (أدرك لاحقًا أنه لو استقلَّ قطاره المعتاد في ذلك الصباح، ولو انتظر الترام لبضع دقائق، كما قد جرت عادته في غالب الأحيان، لكان أقرب إلى مركز المدينة لحظة الانفجار، ولكان من المؤكَّد أن يكون في عداد القتلى).

وصل إلى المستشفى الساعة السابعة وأربعين دقيقة، وأبلغ رئيس الجرَّاحين بوصوله، وبعد بضع دقائق ذهب إلى غرفةٍ بالطابق الأول، وقام بسحب عينة دم من ذراع رجل هناك، وذلك لإجراء اختبار لمرض الزهري، كان المختبر الذي يحتوي على الحواضن الخاصة بالاختبار موجودًا في الطابق الثالث، ومضى إلى المختبر وعينة الدم في يده اليسرى، كان يسير مُشَتَّتَ الانتباه، وهو شعور ظلَّ يلازِمه طيلة الصباح، ربما بفعل الحلم والليلة المرهقة التي قضاها، ظل يمشي على طول الممر الرئيسي متجهًا

نحو الدرج، وكان على بُعْد خطوة واحدة من نافذة مفتوحة عندما فاجأه ضوء القنبلة المبهر، لقد بَدَا الضوء ساطعًا كفلاش كاميرا فوتوغرافية ضخمة سُلِّطَتْ على الممر، جَثَا على ركبة واحدةٍ، وأخذ يخاطب نفسه بشيء لا يقوله إلا ياباني: «ساساكي، غامبير!»؛ «كن شجاعًا!»، في تلك اللحظة وقع الانفجار الذي شق أرجاء المستشفى، (كان المبنى يبعُد ١٥٠٠ متر من المركز)، طارت النظارة التي كان يرتديها من على وجهه، وتحطَّمت قِنِّينَة عينة الدم بعد اصطدامها بالجدار، وانزلقت نِعَالُه اليابانية من تحت قدميه، لكنه وبخلاف ذلك لم يُمَسَّ بسوء بفضل المكان الذي كان واقفًا فيه.

صرخ الدكتور «ساساكي» مناديًا رئيس الجرَّاحين، وهرع إلى مكتبه ليجد به جروحًا فظيعة بسبب تطايُر الزجاج، كان المستشفى يمر بحالة ارتباك فظيعة، فقد تهدَّمت أجزاء كبيرة منه، وتهاوت بعض سقوفه على المرضى، انقلبت الأَسِرَّة، وتهشَّم زجاج النوافذ، وتسبَّب في جرح البعض، كانت الدماء متناثرة على الجدران، وعلى الأرضيات، وكانت الأجهزة مبعثَرة في كل مكان، كان كثير من المرضى يركضون وهم يصيحون، والكثيرون كانوا على الأرض موتى. (أحد زملاء الدكتور ممن كان يعمل في المختبر، وهو ذات الشخص الذي كان الدكتور ذاهبًا إليه بعينة الدم قد مات؛ بل إن المريض الذي غادره الدكتور لِلتَّوِّ، وكان قبل لحظات قليلة مرعوبًا من أن يكون مصابًا بالزهري، قد مات هو الآخر).

أدرك الدكتور «ساساكي» بعد ذلك بأنه الطبيب الوحيد في المستشفى الذي لم يُصَبْ بأذى، وكان يظن أن العدو قد ضرب المبنى الذي كان فيه تحديدًا. أخذ بعض الضمادات، وبدأ بتضميد جِرَاح أولئك الموجودين داخل المستشفى، أما في الخارج، وفي جميع أرجاء هيروشيما، فكان الجرحى، والمصابون إصابات بليغة، يتَّجِهون بخطى مضطربة نحو مستشفى الصليب الأحمر ليملئوا المكان، الأمر الذي أنسى الدكتور «ساساكي» كابوسه الخاص لفترة طويلة جدًّا.

* * *

استيقظت موظَّفة مصنع الشرق للقصدير الآنسة «توشيكو ساساكي»، في الساعة الثالثة من صباح اليوم الذي سقطت فيه القنبلة، وهي بالمناسبة لا ترتبط بأي قرابة بالدكتور «ساساكي»، كان عليها إنجاز مجموعة من الأعباء المنزلية المتراكمة، فقد أُصِيبَ أخوها البالغ من العمر ١١ شهرًا «أكيو» باضطراب شديد في المعدة، مما اضطر والدتها لأَخْذِه إلى مستشفى «تمورا» لطب الأطفال، ومرافقته مدة مُكْثِه هناك، كانت الآنسة «ساساكي» في العشرين من عمرها، وكان عليها أن تطهو وجبة الإفطار لوالدها وأخيها وأختها، إضافة إلى تجهيز وجبات يوم كامل لوالدتها وأخيها الصغير، حيث إن المستشفى ـ ولظروف الحرب ـ لم يكن قادرًا على توفير الوجبات للمرضى، فكان عليها تجهيز هذه الوجبات في فترة مبكرة؛ ليتمكَّن والدها الذي يعمل في مصنع سدادات الأذن المطاطية، والتي يستعملها أفراد

المدفعية، مِن أَخْذ تلك الوجبات معه، وذلك في طريقه إلى المصنع.

عندما انتهت من إعداد الطعام، وغسيل أدوات الطهي وإرجاعها إلى أماكنها، كانت الساعة تقارب السابعة. كانت العائلة تقيم في مدينة «كوي»، وكانت رحلتها إلى مصنع القصدير، والواقع في منطقة «كانون ماتشي»، تستغرق منها ٤٥ دقيقة، وكانت مسؤولة عن سجلات الموظَّفين في المصنع.

غادرت مدينة «كوي» في السابعة، وبمجرَّد وصولها إلى المصنع ذهبت مع بعض الفتيات الأخريات من قسم شؤون الموظفين إلى قاعة المناسبات في المصنع، لقد انتحر في اليوم السابق أحد رجال البحرية البارزين، والذي كان موظَّفًا سابقًا بالمصنع، حيث ألقى بنفسه تحت قطار، وفاة اعْتُبِرَتْ شريفة بما يكفي لإقامة حفل تأبين، والذي كان مقرَّرًا أن يُعْقَد في المصنع في العاشرة من صباح ذلك اليوم. قامت الآنسة «ساساكي» والأخريات بترتيب التجهيزات اللازمة للمناسبة، في القاعة الكبرى للمناسبات، وقد استغرق هذا العمل منهن حوالي عشرين دقيقة.

عادت بعدها الآنسة «ساساكي» إلى مكتبها، وجلست على كرسي المكتب، كانت بعيدة إلى حَدٍّ ما عن النوافذ التي كانت موجودة على يسارها، فيما يَقِفُ خلفها عدد من خزائن الكتب التي احتوت على جميع الكتب الْمُشَكِّلَة لمكتبة المصنع، وهي كتب تم جمعها وتنظيمها من خلال إدارة شؤون الموظفين،

استقرت في مكتبها، ووضعت بعض الأشياء في درج، وقلَّبت بعض الأوراق، ثم فكَّرت في محادثة الفتاة التي عن يمينها قليلاً، قبل أن تبدأ العمل على قوائم الموظفين الجدد، والمسرَّحين، والمغادِرين للجيش، وبمجرد تحويلها لرأسها بعيدًا عن النوافذ امتلأت الغرفة بنور ساطع يعمي البصر، لقد شُلَّت تمامًا من الخوف، وظلَّت ثابتة في كرسيها من غير حركة لبُرْهَة طويلة (كان المصنع يبعد ١٤٦٠ مترًا من المركز).

سقط كل شيء، وفَقَدَتِ الآنسة «ساساكي» وَعْيَها، هبط السقف فجأة، وانهارت الأرضية الخشبية للطابق العلوي، وتحوَّلت إلى شظايا، وتهاوَى الناس من أعلى، ليسقط السقف عليهم، أما هي فقد انقضَّت خزائن الكتب عليها، وأسقطتها محتوياتُها على الأرض، وتسبَّب ذلك في التواء ساقها اليسرى بعنف من تحتها حتى كُسِرَت. هناك، في مصنع القصدير، وفي اللحظة الأولى للعصر النووي، تم سَحْق إنسان بواسطة الكتب.

الفصل الثاني

الحريق

قام القَسُّ «كيوشي تانيموتو» بعد الانفجار مباشرة بالهرب بعيدًا عن منزل «ماتسوي»، كان ينظر باندهاشٍ لمشهد الجنود الدامي وهم يندفعون من فتحة الحُفرة التي كانوا يعملون بها، شاهَد سيدةً عجوزًا تمشي وهي ذاهلة، واضعةً يدها اليسرى على رأسها، وتحمل على ظهرها طفلاً صغيرًا يبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات، وهي تصرخ: «إني مصابة! إني مصابة! إني مصابة!»، فاقترب منها السيد «تانيموتو» مُبْدِيًا تعاطُفَه، وأخذ الطفل منها ووضعه على ظهره، وأخذ بيدها إلى أسفل الشارع الذي كان مظلِمًا بما بَدَا أنه سحابة محلية من الغبار.

اقتاد المرأة إلى مدرسةٍ قريبةٍ لتعليم اللغة، والتي تم تعيينها في وقت سابق كمستشفى مؤقَّت في حالة الطوارئ، وبإظهاره لهذا التعاطف والاهتمام استطاع السيد «تانيموتو» التخلُّص من هذا الرُّعب الذي اجتاحه من الحدث دفعةً واحدة، وحين وصل إلى المدرسة فوجئ بمشهد الزجاج المهشَّم في كل مكان، ومن منظر خمسين أو ستين مصابًا ينتظرون العلاج.

بعد تأمُّلٍ توصَّل إلى قناعة بأنه على الرغم من إعلان الصافرات زوالَ الخطر، وعدم سماعه لصوت أي طائرة، فلا بد من أن عددًا من القنابل قد تم إسقاطها بالفعل، تذكَّر تَلَّةً في حديقة السيد «ماتسوي» يمكنه من خلالها الحصول على مشهد كامل «لكوي»، ومشهد كامل لهيروشيما أيضًا، فعاد مسرعًا إلى هناك.

ومن فوق تلك التَّلَّةِ شاهَد السيد «تانيموتو» صورة بانورامية صادمة، لم يكن الدمار مقتصرًا على جزء من «كوي» فقط كما كان يتوقَّع؛ بل تعدَّى الأمر إلى هيروشيما كلها، فبقدر ما كان يمتد إليه بصره من بين الأدخنة المتصاعدة بقدر ما انتابه شعور خانق رهيب، كُتَلٌ من الدخان تتصاعد في السماء من كل مكان من بين سُحُب الغبار، كان يتساءل: كيف يمكن لسماء صامتة أن تُحْدِث مثل هذا الدمار؟! فحتى لو كان هناك عدد قليل من الطائرات فقط لكان لها صوت مسموع. كانت المنازل المجاورة تحترق، وعندما بدأت تتساقط قطرات الماء الكبيرة والتي تبدو كحجم كُرَات البِلْي ظنَّ أنها من المؤكَّد قادمة من خراطيم رجال الإطفاء الذين يدافعون الحرائق، (كانت تلك القطرات في الواقع عبارة عن تكثُّف رطوبة الجو الممتزجة بالغبار المتطاير، والحرارة، وشظايا الانشطار النووي الذي ارتفع لكيلومترات عديدة في سماء هيروشيما).

أشاح السيد «تانيموتو» بوجهه عن المشهد حين سمع السيد «ماتسو» يناديه سائلاً إن كان على ما يرام، لقد كان السيد

«ماتسو» في مأمَنٍ في المنزل المتهاوِي نتيجة تدثُّره بالفُرُش المخزَّنة في الصالة الأمامية، وقد استطاع أن يَشُقَّ طريقه بين الرُّكام للخروج بعد ذلك. أجابه السيد «تانيموتو» باقتضاب شديد، فقد كان يفكِّر في زوجته وطفله، وكنيسته، ومنزله، ورعاياه، كلُّهم كانوا في تلك الظُّلمة المفزِعة، ومرة أخرى بدأ في الرَّكْض نحو المدينة والخوف يملأ جوانحه.

* * *

كانت السيدة «هاتسويو ناكامورا» ـ أرملة الخيَّاط ـ تكافِح من أجل تحرير نفسها من تحت أنقاض منزلها المنهار بعد الانفجار، كانت تستطيع رؤية طفلتها «مِيَكُو» أصغر أطفالها الثلاث مدفونةً حتى صدرها وغيرَ قادرة على الحركة، فأخذت تزحف بين الحطام، وتُبْعِد من طريقها بقايا الخشب المتكسِّر، وترمي بقِطَع القِرْمِيد بعيدًا في محاولة سريعة لتحرير الطفلة، ثم سمعت صوتين صغيرين يصيحان وكأنما ينبعث الصوت من مغارة بعيدة بالأسفل: «تاسوكيت! تاسوكيت!»، «النجدة! النجدة!».

أخذت تُنادِي طفلَيْها بأسمائهما ـ الأكبر ذا العشر سنوات، وأخته صاحبة الثمانِي سنوات ـ: «توشيو! يايكو!»، ووصلتها أصواتهما من أسفل، فتحوَّلت السيدة «ناكامورا» مُقْبِلَةً على مصدر الصوت، تاركةً «مِيَكُو»؛ فقد كانت على الأقل قادرةً على التنفُّس، وفي نوبةِ جُنُون أخذت ترمي وتقذِف بالأنقاض جانبًا، كان الطفلان ينامان متباعِدَيْنِ عن بعضهما بمقدار عشرة أقدام، لكن أصواتهما الآن كانت تبدو متقاربةً وكأنها آتيةٌ من مكان

واحد، كان الصبي «توشيو» لديه بعض الحرية للتحرُّك؛ وقد شعرت به أمه وهو يتحرَّك من تحت رُكَام الخشب والقِرْمِيد قاصدًا إيَّاها، فيما هي تُزِيح الأنقاض من أعلى طلبًا للوصول إليه، وبمجرد أنْ رأتْ رأسه تناولته وجَرَّتْه إليها على عَجَلٍ، وحين أخرجته لاحظت أن ناموسية قد التفَّت حول قدمه بشكل مُعَقَّد، وكأنما قام أحدهما بِلَفِّهَا حول قدمه بعناية، قال لها إنه طار من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر، وإنه وجد نفسه بعد ذلك فوق أخته تحت الأنقاض، قالت أخته إنها لا تستطيع الحركة؛ لأن شيئًا ما فوق ساقها، ومع مزيد من الحَفْر استطاعت السيدة «ناكامورا» أن تُخْلِيَ حُفرة فوق الطفلة، وبدأت تجرُّها من ذراعها، صاحت «يايكو»: «إتاي! إنه يؤلم!»، فصرخت فيها الأم: «ليس هناك وقت الآن للتضجُّر أو الشكوى إن كان يؤلم أم لا»، وقامت بانتزاع ابنتها المتذمِّرة من الأنقاض، وبعدها عادت لـ«مِيَكُو» الصغيرة وحرَّرتها. كان الأطفال مُتَّسِخِينَ جميعًا، ومصابين ببعض الكدمات، لكن واحدًا منهم لم يكن مصابًا بجرح أو خدش واحد.

اقتادت السيدة «ناكامورا» أطفالها إلى الشارع، كانوا في ملابسهم الداخلية فقط، وعلى الرغم من أن اليوم كان حارًّا جدًّا إلا أنها وبسبب تشوُّش ذهنها وارتباكها كانت قَلِقَةً عليهم من أن يشعروا بالبرد، لذا عادت إلى الحطام ونقَّبت فيه لتجد من أسفله مجموعةً من الملابس كانت قد جهَّزتها لحالة طوارئ، ثم رجعت إلى الأطفال وأَلْبَسَتْ كلَّ واحد منهم سروالاً وبلوزة وحذاءً،

بالإضافة إلى خوذة مُبَطَّنَة بالقطن تسمى «بوكوزوكي»؛ بل إنها وبسبب حالة الذهول التي انتابتها ألبستهم معاطفهم، في تصرُّف غير منطقي مع حرارة الجو.

كان الأطفال صامتين تمامًا، باستثناء الصغيرة «مِيَكُو» التي ظلَّت تُكرِّر سؤالها: «لماذا خيَّم الليل فجأة الآن؟ لماذا انهار منزلنا؟ ما الذي حدث؟»، لم تكن السيدة «ناكامورا» على علم بحقيقة ما جرى، «ألم تُعْلِن الصافرات نغمة زوال الخطر؟»، نظرت حولها لترى من خلال الظلمة المخيِّمة أن جميع المنازل في حَيِّها قد تهاوت وانهارت، ها هو المنزل المجاور لهم تمامًا، والذي كان صاحبه يهدمه لإفساح الطريق لمسار النيران، بات الآن مُسوًّى بالأرض، وصاحبه الذي كان يضحِّي بمنزله من أجل سلامة المجتمع قد مات.

نزلت السيدة «ناكاموتو» ـ زوجة رئيس جمعية الحي للدفاع الجوي ـ إلى الشارع ورأسها يقطر دمًا، وأقبلت على السيدة «ناكامورا» تخبرها بأن طفلها قد جُرِحَ جُرْحًا بليغًا، وتسألها إن كان بحوزتها أيَّة ضمادات، وبطبيعة الحال لم يكن لديها شيء من ذلك، لكنها أقبلت على أنقاض منزلها ودخلت تزحف من بين الحُطَام لتجد بعض القماش الأبيض الذي كانت تستخدمه في عملها في الخياطة، وقامت بتمزيقه إلى شرائط، وأعطته للسيدة «ناكاموتو».

لاحظت أثناء إحضار قطعة القماش آلةَ الخياطة الخاصة بها، فعادت إليها وسحبتها للخارج، لم يكن بمقدورها طبعًا أن

تحمل الآلة معها، فقامت وبدون تفكير بإلقاء رمز معيشتها في حوض الماء الإسمنتي الذي كان يُمثِّل رمز سلامتها، والذي أُمِرَ الكل ببنائه تحسُّبًا لأي غارات محتملة.

اقترحت جارتها المتوترة والمنفعلة السيدة «هاتايا» أن يهربوا معًا إلى مُتَنَزَّه «أسانو» الواقع على ضفاف نهر «كيو» القريب، والذي كان مملوكًا لعائلة «أسانو» الثرية صاحبة بواخر خط «تويو كيسن كيشا»، وقد تم تعيين هذا الْمُتَنَزَّه كمنطقة إخلاء لأهل الحي، شاهدت السيدة «ناكومورا» حريقًا يندلع في خربة مجاورة، واقترحت الذهاب للمساهمة في إطفائه، (باستثناء المركز، حيث تسبَّبت القنبلة نفسها بوقوع بعض الحرائق، فإن معظم النيران المنتشرة في أرجاء المدينة كانت بسبب وقوع حطام قابل للاشتعال على الأفران، وبسبب تهاوِي أسلاك الكهرباء الحية أيضًا)، قالت لها السيدة «هاتايا»: «لا تكوني حمقاء، ماذا لو عادت الطائرات وأسقطت المزيد من القنابل؟»، تراجعت السيدة «ناكامورا» عن مقترحها، وبدأت هي وأطفالها وبرفقة السيدة «هاتايا» بالتوجُّه فعلاً إلى مُتَنَزَّه «أسانو»، حملت معها حقيبةَ ظهرٍ تحتوي على بعض الملابس، وبطانية، ومظلَّة، بالإضافة إلى حقيبة أخرى بها بعض الحاجيَّات التي حصلت عليها سابقًا من الملجأ.

وأثناء سيرهم على عجلٍ كانوا يسمعون صرخات مكتومة من تحت الركام تطلب المساعدة، المبنى الوحيد الذي رأوه يقف منتصبًا في طريقهم كان بيت البعثة اليسوعية المجاوِر لروضة الأطفال الكاثوليكية، وهي الروضة التي كانت السيدة «ناكامورا»

تُرسِل «مِيكُو» إليها لبعض الوقت، وحين مرُّوا بالمبنى رأت الأب «كلينزوغر» وهو في ملابسه الداخلية الدامية يركض خارجًا من المنزل حاملاً في يده حقيبة صغيرة.

* * *

بعد الانفجار مباشرة، وفي الوقت الذي كان الأب «فيلهلم كلينزوغر» يَهِيمُ في جَنَبَاتِ حديقة الخضروات أطلَّ رئيس الدير الأب «لاسال» من وراء ركن المبنى من وسط الظلام، كان جسمُه داميًا، وبالأخص ظهره؛ إذ إنه وبمجرد مشاهدة وَمِيض الانفجار من النافذة أدار ظهره لتستقر قِطَعُ الزجاج المتطايِر فيه، ومع ما كان بالأب «كلينزوغر» من حيرة وذهول فقد استطاع أن يسأل صاحبه: «أين البقية؟»، ليظهر في تلك اللحظة القَسَّان الآخران اللَّذان كانَا يعيشان في منزل البعثة، بَدَا الأب «شيسلِك» سليمًا من غير أذى، فيما هو يسانِد الأب «شيفر» الغارِق في دمائه والتي تسيل من جرحٍ غائر فوق أذنه اليسرى، وقد كان شاحبًا جدًّا. كان الأب «شيسلِك» راضيًا عن نفسه ومزهوًّا بها؛ لأنه خَمَّن مسبقًا أن مدخل باب الحجرة من تحت الإطار هو أكثر الأماكن أمانًا في البيت، ولذا وبمجرَّد وقوع الانفجار قفز مباشرة إلى مدخل الحجرة، فلم يُصَبْ بأذى.

طلب الأب «لاسال» من الأب «شيسلِك» أَخْذَ الأب «شيفر» إلى الطبيب فورًا خشية أن يستمر نزيفه فيموت، واقترح عليه إما الذهاب إلى الدكتور «كاندا» والذي يقطُن في الزاوية المقابلة لمبنى البعثة، أو الدكتور «فوجي» والذي يَبْعُد ستة تقاطعات من

المبنى، خرج الرجلان من المجمع ومضيَا في طريقهما عبر الشارع.

وفي وسط هذه الْمَعْمَعَة أقبلت ابنة السيد «هوشيجيما» ـ معلِّم الدين في البعثة ـ تَرْكُض باتجاه الأب «كلينزوغر» مستنجِدة به، تخبره بأن والدتها وشقيقتها مدفونتان تحت أنقاض منزلهم، والذي يقع في الجزء الخلفي من المجمع اليسوعي، وفي الوقت نفسه لاحَظ القساوسة أن منزل معلِّمة الروضة الكاثوليكية والواقع قُبالَة المجمع قد انهار عليها.

سعى الأب «لاسال» والسيدة «موراتا» ـ مدبِّرة شؤون منزل البعثة ـ لمساعدة المعلِّمة واستخراجها من تحت الأنقاض، وذهب الأب «كلينزوغر» إلى بيت المعلِّم المنهار وبدأ في إزالة الأنقاض من فوق الرُّكَام، لم يكن هناك أي صوت يصدر من تحت الأنقاض، وأضحى متأكدًا من موت المرأتين، أخيرًا، وفي أحد زوايا المطبخ استطاع أن يرى رأس السيدة «هوشيجيما» من تحت الأنقاض، شدَّها من شعرها ظانًّا أنها ميتة لتصرخ فجأة: «إيتاي! إيتاي! إنه مؤلم! إنه مؤلم!»، فتركها ليُكْمِل الحَفْرَ حتى تمكَّن من إخراجها، كما تمكَّن أيضًا من العثور على ابنتها تحت الأنقاض واستطاع تحريرها، لم تكن واحدة منهما مصابة بأذى كبير.

بدأت النيران تشتعل في أحد الحمَّامات العامة بجوار منزل البعثة، لكن القساوسة كانوا مطمئنِّين لعدم وصولها للمنزل بسبب هبوب الرياح باتجاه الجنوب بعيدًا عن المنزل، ومع ذلك وكإجراء احترازي ذهب الأب «كلينزوغر» إلى داخل المنزل لِجَلْب بعض الأغراض التي كان يخشى عليها، دخل غرفته ليجدها في

حالة فوضى غريبة، فقد كان ترتيبها منافيًا للمنطق، وجد صندوق الإسعافات الأولية معلَّقًا في مكانه على الجدار وكأن شيئًا لم يكن، لكن ملابسه والتي كانت معلَّقةً هي الأخرى قد ضاعت تمامًا، وما عاد يرى شيئًا منها، كان مكتبه محطَّمًا بالكامل، وشظاياه مبعثرة في كل مكان، لكن حقيبة بسيطة من الورق المقوَّى، والتي كانت مخبَّأة تحت هذا المكتب، كانت الآن منتصبة عند مدخل الغرفة حيث لا تخطئها العين، ومقبضها لأعلى، ولم تُصَب بخدش.

كان الأب «كلينزوغر» في وقت لاحق ينظر إلى هذا الأمر على أنه نوع من العناية الإلهية، حيث كانت تلك الحقيبة تحتوي على كتابه للأدعية، ودفاتر الحسابات الخاصة بالأسقفية، بالإضافة إلى مبلغ مالي كبير من النقود الخاصة بالبعثة والتي كان مسؤولاً عنها، ركض سريعًا إلى خارج المنزل، وأَوْدَعَ الحقيبة في ملجأ الغارات الجوية.

في هذه الأثناء عاد الأب «شيسلِك» والأب «شيفر» ـ والذي لم يتوقَّف نزيفه ـ إلى المجمع؛ إذ لم يُفْلِحَا في الوصول لأي طبيب؛ فقد كان منزل الدكتور «كاندا» مدمَّرًا تمامًا، ولم يستطيعا الخروج عن دائرةِ ما ظنَّاه حينها منطقة الدمار بسبب الحرائق التي أعاقتهما دون الوصول إلى مستشفى الدكتور «فوجي» الخاص الواقع على ضفاف نهر «كيو»، لم يكونا يعلمان بطبيعة الحال بأن هذا المستشفى لم يَعُدْ له وجود على ضفاف النهر؛ وأن بقاياه تسبح في النهر الآن.

❊ ❊ ❊

كان الدكتور «فوجي» بعد سقوطه في النهر مصدومًا، ومحشورًا بين جِذْعَيْنِ خشبِيَّيْنِ يضغطان بشدة على صدره، لدرجة أنه كان غير قادر على التحرُّك أبدًا، وظلَّ هكذا عالقًا في مكانه لحوالي عشرين دقيقة في ذلك الصباح المظلِم، لبث على هذه الحال حتى تذكَّر أمرًا أرعبه؛ تذكَّر أن منسوب الماء سيرتفع بفعل الماء القادِم من مصبَّات النهر، وسيؤدِّي ذلك حتمًا إلى غرقه، كانت هذه الفكرة كافيةً لتحفيزه لمحاولة تحرير نفسه، فأخذ يتلوَّى ويتحرَّك مستنفِدًا البقية الباقية من قُوَاه، وعلى الرغم من عدم انتفاعه بذراعه اليسرى بسبب الألم الحاد في كتفه، إلا أنه لم يَمْضِ وقت طويل حتى استطاع فعلاً تحرير نفسه من فَكِّ الكَمَّاشة. وبعد أن ارتاح قليلاً صعد فوق كَوْمَةٍ من الأخشاب، وهناك عثر على جذع طويل مائل نحو الضفة، فتعلَّق به بيديه ورِجْلَيْهِ، وأخذ طريقه إلى الضفة مع ما به من ألمٍ ووجع.

وجد الدكتور «فوجي» نفسه غارقًا في الماء بملابسه الداخلية، ومُتَّسِخًا، كان قميصه الداخلي ممزَّقًا، والدماء تجري من جرح غائر في ذقنه وظهره، وفي ظل الفوضى العارمة والارتباك مشى إلى جسر «كيو» حيث كان مستشفاه يقف بجواره، كان الجسر لا يزال منتصبًا في مكانه لم يتهدَّم، وحين وقف عليه أخذ يقلِّب بصره فيما حوله، لم يكن يستطيع أن يرى ما حوله بوضوح لِفَقْدِه نظارته، لكن ما رآه من منازل متهدِّمة في كل مكان كان كافيًا لإصابته بالدهشة والذهول، وعلى الجسر صادَف صديقه الدكتور «ماتشي»، فسأله في حيرة وارتباك: «برأيك ما الذي

حدث؟!»، أجابه الدكتور «ماتشي»: «حتمًا كان مولوتوفانو هاناكاغو» ـ سلة زهور مولوتوف، وهو الاسم الياباني المتأنِّق لسلة الخبز، أو بعبارة مطابقة لحقيقة الحال مجموعة من القنابل الانشطارية.

في البداية لم يكن الدكتور «فوجي» يرى إلا حريقين؛ حريقًا في الضفة الأخرى من النهر، وآخر في أقصى الجنوب من موقعه الحالي، لكنه في الوقت نفسه لاحظ وصديقه شيئًا أثار حيرتهما ـ خصوصًا كأطباء ـ فقد لاحظَا أنه بالرغم من قلة الحرائق التي شاهدَاها إلا أن الجرحى كانوا يعبرون الجسر في مسيرة لا تنتهي، تعلوهم جميعًا كآبة وبؤس لا يُوصَفان، وكان كثير من أولئك الجرحى مصابين بحروق فظيعة في وجوههم وأيديهم، سأل الدكتور فوجي صاحبه مندهشًا: «ما السبب في رأيك؟»، كان وصاحبه متلهِّفَيْنِ لأي فرضية يمكنها تفسير ما جرى، وظلَّ الدكتور «ماتشي» متشبِّثًا برأيه: «لعله بسبب سلة زهور المولوتوف».

في صباح ذلك اليوم حين رافَق الدكتور «فوجي» صديقه ليوصله ويُوَدِّعَه في محطة القطار كان الجو ساكنًا بلا نسيم يلطِّف الجو، لكن الرياح الآن كانت تهب من كل اتجاه، وهنا تحديدًا على الجسر كانت تهب باتجاه الشرق، كانت الحرائق الجديدة تظهر فجأة وتتصاعد مرتفعة في السماء، لتنتشر بسرعة في كل مكان، وخلال وقت يسير جدًّا صار المكث على الجسر أمرًا مستحيلاً بسبب شلَّالات الهواء الساخن، ووابل الرماد المتساقط عليه.

ركض الدكتور «ماتشي» بسرعة إلى الجانب الآخر من

النهر، ومضى مسرعًا يجري في طريق سالم من الحرائق، أما الدكتور «فوجي» فنزل إلى الماء من أسفل الجسر، وهناك وجد عددًا من الأشخاص قد لجئوا إلى هذا المكان أيضًا، ومِن بينهم خدمُه الذين استطاعوا تحرير أنفسهم من الحطام، ومن مكانه هذا استطاع الدكتور «فوجي» أن يرى مُمَرِّضَةً معلَّقةً من رِجْلَيْهَا بين حطام المستشفى، وأخرى مثبَّتة في مكانها بشكل مؤلم من ثديها، طلب مساعدة بعضِ مَن كان معه تحت الجسر، وذهبوا لمعاونة الممرضتين، واستطاعوا فعلاً تحريرهما.

لوهلة ظن أنه سمع صوت ابنة أخته، لكنه لم يتمكَّن من العثور عليها يومها، ولم يَرَهَا بعد ذلك أبدًا، أربعة من مُمَرِّضاته لاقَيْنَ حتفهنَّ في المستشفى، بالإضافة إلى المرضى، عاد الدكتور «فوجي» بعدها إلى النهر وانتظر فيه حتى تهدأ النيران.

* * *

لو رغبنا في تقييم وَضْع أغلبية أطباء وجرَّاحي هيروشيما في ذلك اليوم فإنه يمكن أن نمارس ذلك بالانطلاق من أحوال أولئك الأطباء الثلاثة: الدكتور «فوجي»، و«كاندا»، و«ماتشي»؛ فهم عينة صالحة للتعبير عن أحوالهم، لقد دُمِّرت مكاتبهم ومستشفياتهم، وفقدوا أجهزتهم ومعداتهم، ونالتهم جِرَاح متفاوتة جعلتهم عاجزين عن تأدية دورهم على النحو المطلوب، كانت هذه الوضعية سببًا مباشرًا في عدم تلقِّي جرحى ذلك اليوم ما يحتاجونه من علاج ورعاية، وهو ما يفسِّر كَمَّ الضحايا الذين كان في المقدور استنقاذهم من الموت لو وجدوا العناية الطبية اللازمة.

لقد حصد الموت خمسة وستين طبيبًا من أصل مائة وخمسين طبيبًا حَفَلَتْ بهم المدينة، فيما أُصِيب معظم البقية بجروح متفاوتة، أما الممرِّضات فقد أُصيبت ١٦٥٤ ممرِّضة من واقع ١٧٨٠ ممرِّضة، منهنَّ مَن فقدت حياتها ورحلت إلى عالم الأموات، أو ظلَّت حيَّة، ولكن بإصابات بليغة مانعة من العمل، وفي أكبر مستشفى بالمدينة ـ مستشفى الصليب الأحمر ـ كان ستة أطباء فقط من بين ثلاثين طبيبًا قادرين على العمل، فيما لم يَتَبَقَّ من ممرِّضات المستشفى إلا عشر ممرِّضات فقط من بين أكثر من مائتي ممرِّضة.

كان الدكتور «ساساكي» هو الطبيب الوحيد يومها الذي لم يُصَبْ بأي أذى في هذا المستشفى، وقد هَرَعَ بعد الانفجار إلى مستودع المواد الطبية لإحضار بعض الضمادات، كان المستودع ـ ككل الغُرَف التي رآها أثناء رَكْضِه في أروقة المستشفى ـ في حالة فوضى عارمة؛ زجاجات الأدوية مُلْقَاة ومهشَّمة، والجدران ملطَّخة بالمراهم والأدوية، والأدوات الطبية مُبَعْثَرَة في كل مكان، أخذ بعض الضمادات وتناوَل زجاجة سليمة لأحد مطهِّرات الجروح، وأسرع عائدًا إلى رئيس الجرَّاحين، وأخذ يضمِّد جراحه، خرج بعدها إلى الممرِّ، وبدأ في تضميد جراح المرضى والأطباء والممرِّضات هناك، كان عاجزًا عن الرؤية بوضوح بسبب فقدان نظارته أثناء الانفجار، فأخذ نظارة ممرِّضة جريحة، وبرغم أنها لم تطابِق درجة ضعف بصره لكنها كانت أفضل من لا شيء، وظلَّ معتمدًا على تلك النظَّارة لأكثر من شهر بعد ذلك.

ظل الدكتور «ساساكي» يعالِج مَن حوله بطريقة غير منهجية، فمن كان أقرب إليه كان يَحْظَى بخدمته، وبعد وقت يسير لاحَظ أن ممرَّ المستشفى بدأ يزدحم بالمصابين بشكل أكبر وأكبر، وأثناء علاجه لبعض المصابين بجروح وخدوش، وهي تمثِّل معظم الإصابات التي عانى منها مَن كان بالمستشفى، لاحَظ أن بعض المصابين كانوا يعانون من حروق مُرَوِّعة، أدرك بعد مدة أن المصابين والضحايا كانوا يتدفَّقون إلى المستشفى من الخارج، كانت الأعداد كبيرة جدًّا، لدرجة أنه بدأ يتجاوز المصابين بجروح طفيفة، وقرَّر أن يَقْصُرَ جهده على علاج مَن يخشى عليه من النزيف حتى الموت.

بعد فترة وجيزة كان المرضى يملؤون المكان، منهم المستلقِي، ومنهم الجالس، مُوَزَّعِين على مختلف أنحاء المستشفى؛ في أجنحة المرضى، وفي المختبَرات، وفي جميع الغرف الأخرى، وفي الممرَّات أيضًا، وعلى السلالم، وعند مدخل المستشفى، وفي فنائه؛ بل امتدت جموعهم لأكثر من أربعة تقاطعات خارج المستشفى.

كان الجرحى يعاوِنون غيرهم من أصحاب الإعاقات والإصابات البليغة، وكانت الأُسَر المشتَّتَة تنضم لبعضها وتُبْدِي دعمها وتضامنها، الكثير ممن كان حاضرًا كان يتقيَّأ، وتسلَّل إلى المستشفى عددٌ هائل من طالبات المدارس ممن أُخِذْنَ من فصولهنَّ ليعملن في الخارج، وليُنَظِّفْنَ ممرَّات حواجز النيران.

في مدينة تعدادها مائتان وخمس وأربعون ألفًا، قُتِل ما

يقارب مائة ألف إنسان في ضربة واحدة، وأُصِيبَ مائة ألف آخرون، واستطاع ما لا يقل عن عشرة آلاف جريح الوصول إلى أفضل مستشفى في المدينة، وهو مستشفى لم يكن مستعدًّا مطلقًا لهذا العدد الهائل من الحشود؛ إذ كان يحتوي على ستمائة سرير فقط، وكانت كلها مستعملةً في ذلك الوقت.

كان الناس في ذلك الحشد الخانق يبكون ويصيحون عَلَّ الدكتور «ساساكي» يسمعهم: «سنسي! أيها الطبيب!»، وكان المصابون بجروح أقل خطورة يَجُرُّونَهُ من أكمامه متوسِّلين إليه أن يصحبهم لمساعدة أولئك مِمَّنْ جراحهم خطيرة.

لقد كان الدكتور «ساساكي» يتنقَّل هنا وهناك في جواربه مندهشًا من أعداد الجرحى، ومذهولاً من كمية الدم ومشهد اللحم البشري، ما أفقده كل إحساس بالمهنية، حتى توقَّف عن العمل كجرَّاح ماهر، وفَقَدَ تلك الروح التي كانت تميِّزه وتبعث فيه نوازع الرحمة والتعاطف، ليصبح كائنًا ميكانيكيًّا، يمسح الجرح بشكل آلي، ثم يدهنه بالعلاج، ثم يَلُفُّهُ، يمسح، ويدهن، ويَلُفُّ، يمسح ويدهن ويَلُفُّ، وهكذا، لقد أَضْحَتْ مثل هذه الرعاية الصحية المتواضعة تَرَفًا لا يحلم به كثير من جرحى هيروشيما في ذلك اليوم.

* * *

هناك بين أنقاض مكتب شؤون الموظَّفين في مصنع شرق آسيا للقصدير، كانت الآنسة «ساساكي» متكوِّرة على نفسها تحت كومة هائلة من الجصّ والخشب والحديد، فاقدة للوعي، ظلَّت

هكذا فاقدة للوعي بالكلية، بحسب ما تذكر مدة ثلاث ساعات، وكان أول إحساس سَرَى في جسدها ذلك الألم الفظيع القادم من ساقها اليسرى، كان السواد حالكًا تحت أكوام الكتب والحطام، وشكَّل الخط الفاصل بين حضور الوعي وغيابه برزخًا ظلَّتْ تُرَاوِح بين جنبتيه عدة مرات، وظل الألم يجيء ويذهب بحسب تنقُّلها بين الجانبين، وفي ذروة لحظات الألم كانت تشعر وكأن ساقها قد بُتِرَتْ من تحت الركبة، بعد مدة سمعت خَطْوَ أقدام من فوق الحطام، وتعالَتْ بعض الأصوات المكروبة من حولها، ومن تحت الأنقاض تنادي مستنجدة: «أرجوك ساعدنا! أَخْرِجْنَا من هنا!».

* * *

عالَج الأب «كلينزوغر» جرح الأب «شيفر» النازِف بأفضل ما يستطيع؛ فقد كان لديه بعد الضمادات التي حصل عليها من الدكتور «فوجي» قبل أيام قلائل، وعندما انتهى من مهمته هذه ركض عائدًا إلى منزل البعثة مرة أخرى، ووجد سترة زِيِّهِ العسكري، وبنطالاً رماديًّا قديمًا لَبِسَهما وخرج، وحين خرج رأته امرأة من الجيران، فركضت باتجاهه، وصاحت به مستنجدة بأن زوجها مدفون تحت رُكَام منزلها، وأن النيران بدأت تشتعل في الركام، وأنه يتعيَّن عليه المجيء وإنقاذه.

ومع تتابُع مسلسل الشدائد وتراكُمها بدأت تتسرَّب للأب «كلينزوغر» حالة من البرود مقرونة بالذهول، لكنه أجابها: «ليس لدينا الكثير من الوقت»، فقد كانت المنازل المحيطة في كل اتجاه

تشتعل، وبدأت الرياح تهب الآن بشدة، سألها: «هل تعرفين بالضبط تحت أي جزء من المنزل هو؟»، قالت له: «نعم، نعم، تعالَ بسرعة!»، ذهبوا إلى منزلها ليجدوا ركامه المتبقِّي يشتعل بشدة، واتَّضح أن المرأة لم يكن لديها أدنى فكرة عن مكان زوجها، صرخ الأب «كلينزوغر» عدة مرات مناديًا: «هل هناك أي شخص هنا؟»، لكن لا جواب، التفت الأب «كلينزوغر» للمرأة، وقال لها: «يجب علينا الابتعاد من هنا، أو أننا سنموت جميعًا».

عاد بعدها إلى المجمع الكاثوليكي، وأخبر رئيس الدير بأن الرياح تدفع النيران نحوهم، فقد بدأت تَهُبُّ من جهة الشمال، وأنَّ عليهم الرحيل من هنا فورًا، وحين أرادوا الانصراف نبَّهت معلمة رياض الأطفال القساوسة بأن السيد «فوكاي»، سكرتير الأبرشية، لا زال واقفًا يُطِلُّ من نافذة غرفته في الدور الثاني باتجاه موقع الانفجار ويبكي.

ظن الأب «شيسلِك» بأن درج المنزل قد تهدَّم، فركض سريعًا يبحث عن سُلَّم خلف منزل البعثة، وهناك سمع صوت أناس من مكان قريب يبكون ويطلبون المساعدة من تحت سقف انهار عليهم، رأى بعض المارة الهاربين، فطلب المساعدة منهم ليعاونوه في رفع ذلك السقف، لكن أحدًا لم يعبأ به، واضطر لِتَرْك أولئك المنكوبين هناك تحت الأنقاض ليموتوا. أما الأب «كلينزوغر» فقد ركض إلى داخل المنزل واندفع مسرعًا عبر الدرج، والذي كان مائلاً ومليئًا بركام متهدِّم، ونادى على السيد «فوكاي» من باب غرفته، التفت السيد «فوكاي» إليه ببطء، وكان

رجلاً قصيرًا جدًّا في الخمسين من عمره، ونظر إليه نظرةً غريبة، وقال له: «اتركني هنا»، اقتحم الأب «كلينزوغر» الغرفة، وأخذ السيد «فوكاي» من تلابيبه، وصاح فيه: «تعالَ معي وإلا فستموت!»، فقال له: «اتركني هنا لأموت»، بدأ الأب «كلينزوغر» يَجُرُّهُ ويدفعه للخروج من الغرفة، وجاء أحد تلاميذ البعثة ليُمْسِك بقدمي السيد «فوكاي»، فيما تناوَل الأب «كلينزوغر» كتفيه، وقامَا معًا بحمله إلى الطابق السفلي، ومنه إلى الخارج، وهو يصرخ فيهم: «إنني لا أستطيع المشي، اتركوني هنا!»، تناول الأب «كلينزوغر» حقيبته، والتي كانت مشتملة على المال، ثم أخذ السيد «فوكاي» وحمله على ظهره، وبدؤوا جميعًا يتحرَّكون قاصدين منطقة الأمان التي حُدِّدَتْ لهم سلفًا، ميدان الشرق، وبينما كانوا يتجاوزون بوابة المجمع أخذ السيد «فوكاي» يضرب كتف الأب «كلينزوغر» وكأنه طفل، ويصيح: «لن أرحل! لن أرحل!»، التفت الأب «كلينزوغر» إلى الأب «لاسال» وقال له: «لئن فَقَدْنَا جميع ما نملك فإننا لم نَفْقِدْ روح الدعابة».

كان الشارع ممتلئًا بالأنقاض، وأعمدة الهاتف المتهاوية، والأسلاك المبعثرة، وكانت الأصوات تتعالى بين كل منزل وآخر طالبةً النجدة من تحت الأنقاض، أولئك الذين كانوا مدفونين الآن وتَمَّ هَجْرُهم بلا مساعدة، كانوا ينادون مستنجِدين بلغة رسمية متأدبة: «تاسوكيت كور!» «من فضلك، ساعدنا!»، لقد استطاع القساوسة تمييز عدد من تلك الأصوات؛ إذ كانت لمعارف وأصدقاء، ولكن لم يكن هناك وقت لنجدتهم، فقد كانت النيران

تجتاح المكان، وطوال وقت مسيرهم كان السيد «فوكاي» يتذمَّر باكيًا: «اتركوني هنا».

اضطر الموكب للاتجاه يمينًا حين صادفوا منزلاً متهدِّمًا، بَدَا الآن كشعلة متوهِّجة من النيران، وبعد مدةٍ وصلوا لجسر «ساكاي»، كان ميدان الشرق يقع على طرفه الآخر، لكنهم رأوا النيران هناك وهي تأكل كل شيء، فقرَّروا العدول إلى مُتَنَزَّه «أسانو»، والذي يقع عن شِمالهم.

لقد بدأ الإرهاق والتعب يَدُبُّ إلى أوصال الأب «كلينزوغر»، إذ انضاف عبء ما وَاجَهَهُ خلال الأيام الماضية؛ من مرض وإسهال، على هذا العبء المحمول على ظهره باحتجاجاته واعتراضاته، وحين حاوَل الصعود على حُطَام بعض المنازل التي كانت تُعِيق طريقهم للوصول إلى المتنزَّه تَعَثَّر، وهوى على وجهه إلى حافة النهر، وسقط السيد «فوكاي» من على ظهره، وعندما نهض على قدميه رأى السيد «فوكاي» يولِّي هاربًا، صاح الأب «كلينزوغر» في بعض الجنود الواقفين عند الجسر طالبًا منهم أن يمنعوه من الهرب، وعندما أراد الأب «كلينزوغر» اللحاق به ناداه الأب «لاسال» طالبًا منه تَرْكَهُ، قائلاً: «أَسْرِعْ! فلا وقت لدينا لنضيِّعه!»، وهكذا ترك الأب «كلينزوغر» السيد «فوكاي»، وطلب من الجنود هناك أن يعتنوا به، فوعدوه بأنهم سيفعلون، ولكن استطاع هذا الرجل القصير المحطَّم أن يَفِرَّ منهم، ويركض متجهًا صوب النيران، وكان ذلك آخر العهد به.

* * *

كان السيد «تانيموتو» خائفًا على عائلته، وعلى الكنيسة، فاختار أن يُسْرِع إليهم سالكًا أقصر الطرق المؤدية لهم، فمضى في طريق «كوي» العام، كان الشخص الوحيد حينها المتَّجِه نحو المدينة، بينما المئات والمئات يَفِرُّونَ منها، وكل واحد منهم مصابٌ بطريقة ما، فَقَدَ بعضهم حواجبه تمامًا، فيما كانت جلودهم تتدلَّى من على وجوههم وأيديهم جرَّاء الحرائق. فيما كان البعض الآخر يرفع يديه وكأنه يحمل شيئًا من شدة الألم، بعضهم كان يتقيَّأ أثناء مشيه، وكان الكثيرون عُرَاة، أو في ملابس ممزَّقة، كانت الحروق تظهر على بعض تلك الأجساد العارية بذات أشكال الأحزمة والحمَّالات التي كانوا يرتدونها، كانت أشكال الورود تظهر على أجساد بعض النساء؛ إذ كان اللون الأبيض يعكس حرارة القنبلة، فيما الألوان الداكنة تمتص تلك الحرارة، وتمرِّرها إلى الجلد، لتتشكَّل صور تلك الورود على جلودهنَّ من أثواب الكيمونو التي كنَّ يرتدينها، وبالرغم من تلك الإصابات فقد كان الكثيرون يعاونون أقاربهم الأسوأ حالاً، كان الكل تقريبًا مُطْرِقًا برأسه، شاخصًا ببصره إلى الأمام، صامتًا، ووجوههم خالية من كل تعبير.

بعد أن قطع السيد «تانيموتو» جسر «كوي» وجسر «كنون» جريًا على قدميه، وصار على مقربة من مركز المدينة، رأى أن جميع المنازل قد سُحِقَتْ تمامًا، وأن الحرائق قد انتشرت في كل مكان، كانت الأشجار هنا عارية من أوراقها، وجذوعها متفحِّمة.

حاوَل عدة مرات، ومن جهات مختلفة أن يتجاوَز

الأنقاض، ولكن محاولاته جميعًا باءت بالفشل بسبب ألسنة اللهب المتصاعدة، ومن تحت ركام المنازل المتهدِّمة كانت صرخات الكثيرين تتعالى مستنجِدة، لكن صرخاتهم لم تَلْقَ مُجيبًا؛ فالناجون في ذلك اليوم كانوا يقتصرون في تقديم يد المساعدة لأقاربهم وجيرانهم المباشرين، ولم يكونوا قادرين على استيعاب أو احتمال دائرة بؤس وشقاء أوسع من محيطهم القريب.

كان الجرحى الهاربون من جحيم الحرائق يَجُرُّونَ أقدامهم متجاوِزين تلك الصرخات، ولم يكن السيد «تانيموتو» استثناءً هنا؛ فهو الآخر كان يركض متجاوِزًا تلك النداءات، كان كنصراني مملوءًا بالشفقة والرحمة تجاه أولئك المحبوسين من تحت الأنقاض، وشعر كياباني بشعور غامِر بالخزي والعار أن كان من غير المصابين، ظلَّ وهو يركض يدعو قائلاً: «اللَّهُمَّ ساعدهم وأَنْقِذْهُم من تلك النيران».

اعتقد أن بإمكانه تجاوُز النيران بالالتفاف حولها من جهة الشمال، فعاد مسرعًا إلى جسر «كنون»، وسار لمسافة بمحاذاة النهر، ثم جرَّب أن يمضي في عددٍ من التقاطعات، لكنه وجدها جميعًا مسدودة، فاستمر يجري متجهًا لـ«يوكوغاوا»، وهي محطة تقع على سكة قطار تحيط بالمدينة كحلقة ضخمة، وحين وصلها سار بمحاذاة السكة حتى وصل لمقطورة تحترق.

كان مندهشًا من حجم الدمار الذي رآه، فقد قطع مسافة ثلاثة كيلومترات حتى وصل إلى ضاحية «غيون» في السفوح، وعلى امتداد طريقه كان يرى مشاهد حرقٍ فظيعة، وأناسًا ممزقين،

كان يشعر بالذنب، وكان يتلفت يمينًا وشمالاً أثناء عَدْوِه، ويقول لبعض أولئك الجرحى: «سامحوني؛ إذ لم أُصَبْ بشيء مما أصابكم»، وحين اقترب من «غيون» رأى جموعًا من أهل الضواحي متَّجِهين نحو المدينة ليقدِّموا يد المساعدة، وحين رأوه هتف عدد منهم: «انظروا! هناك مَنْ لم يُصَبْ»، وبمجرد وصوله لـ«غيون» انحرف مع فرع النهر الأيمن ـ «أوتا» ـ ومضى بمحاذاته ليصادف في طريقه النيران مرةً أخرى.

لم تكن هناك أي حرائق في الضفة الأخرى، فنزع قميصه، وخلع حذاءه، وانغمس في النهر، وحين انتصف في النهر الجاري وجد التيار قويًّا، وكان فَزِعًا خائِرَ القُوَى، فقد جرى لأكثر من ١١ كم، وأخذه التيار وجرفه في طريقه، أخذ يدعو ويتضرَّع: «يا رب، أرجوك أَعِنِّي على العبور»، غرق بعدها في أفكاره: «من غير المعقول أن أموت غرقًا وأنا المعافَى من أي إصابة»، فتحامَل على نفسه، واستطاع أن يحرِّك يديه، وجَدَّفَ بها قليلاً ليصل إلى جرف في أثناء النهر، وتمكَّن فعلاً من الوصول لضفة النهر الأخرى، وهناك مضى في طريقه ليصل إلى أحد مزارات الشنتو الكبيرة، ووجد عنده المزيد من النيران، وبينما هو يحاول الالتفاف حوله وقعت مصادفة عجيبة، فقد وجد زوجته وهي تحمِل ابنتهم الرضيعة أثناء التفافه حول المزار.

كان السيد «تانيموتو» مُنْهَكًا عاطفيًّا إلى درجة أن شيئًا لم يكن ليفاجئه الآن، رأى زوجته ولم يحتضنها حتى، وإنما قال لها ببساطة: «أوه، أنتِ بخير!!»، فأخبرته أنها عادت للمنزل من

«أوشيدا» لتدرك هناك لحظة الانفجار، وأخبرته أنها ظلَّت مدفونة تحت الأنقاض وهي تحتضن الرضيعة في ذراعيها، وكيف أن الركام كان يضغط عليها، وكيف كان الطفل يبكي بين يديها، لقد رأت بَصِيصًا من الضوء من ثغرة صغيرة، وبِيَدٍ واحدة استطاعت توسيعها، ومضت في ذلك شيئًا فشيئًا، بعد نصف ساعة وصلها صوت قرقعة الخشب، إنه يحترق، وأخيرًا كانت الحفرة كبيرة بالقدر الذي سمح لها بإخراج طفلتها، ثم خروجها هي الأخرى زَحْفًا إلى الخارج، قالت له إنها كانت ذاهبةً إلى «أوشيدا» مرةً أخرى، فقال لها: إنه يرغب في رؤية كنيسته، وأن يقدِّم الرعاية لجيرانه من أهل الحي، وهكذا افترقوا بطريقة عادية وببرود، وبذات الحيرة التي كانوا فيها في لحظة لقائهم.

أفضى الطريق الذي سلكه السيد «تانيموتو» به إلى ميدان الشرق، والذي كان ملجأً ومنطقة أمان للكثيرين، وهناك رأى مشاهد بشعة ومرعبة، صفوفًا على إثر صفوف من أصحاب الجروح الدامية والحروق، كان أصحاب الحروق يَئِنُّونَ ويتأوَّهون: «ميزو! ميزو!»: «ماء! ماء!»، وجد السيد «تانيموتو» طشتًا في شارع مجاور، وصنبور ماءٍ لا زال يعمل، وبدأ في نقل الماء إلى أولئك الغرباء الذين يقاسون العطش والألم، أدرك بعد أن سقى حوالي ثلاثين منهم أن الأمر يأخذ منه وقتًا كبيرًا، فخاطب أولئك الذين كانوا حوله، أولئك الذين كانوا يرفعون أيديهم إليه، ويصيحون من العطش، قال لهم وقد رفع صوته: «اعذروني، فلديَّ الكثير من الناس لأرعاهم»، ثم ركض بعيدًا.

عاد إلى النهر مرةً أخرى، كان الطشت لا يزال في يده، وقفز نحو نتوءٍ بَرِّيٍّ في النهر. وهناك رأى المئات من الجرحى بجروح بليغة للحد الذي لم يكونوا يستطيعون التحرُّك للخروج من حدود المدينة المحترقة، وحين رأوا رجلاً منتصب القامة، واقفًا على قدميه معافًى من أي جراح، أخذوا يهتفون مرةً من بعد أخرى: «ميزو، ميزو، ميزو»، لم يكن في مقدور السيد «تانيموتو» تجاهُلهم، فجلب لهم الماء من النهر، ليتنبَّه إلى خطأ صنيعه؛ إذ كان الماء أُجاجًا بسبب المد.

كان هناك قاربان أو ثلاثة في النهر ينقلان المصابين إلى مُتَنَزَّه «أسانو»، وحين وصل أحدها إلى الجرف رفع السيد «تانيموتو» صوته مرة أخرى، وقدَّم خطاب اعتذار لأولئك الجرحى، وقفز إلى القارب.

أخذه القارب عبر النهر إلى المتنزَّه، وهناك، ومن بين الشُّجَيْرَات وجد عددًا من جيرانه ممن كان مشتركًا في وحدة الحي الخاصة بهم، والذين سبق أن أرشدهم لقصد هذا المكان في حال وقوع خطر داهم، ورأى أيضًا عددًا من معارفه، ومن بينهم الأب «كلينزوغر» وغيره من الكاثوليك، لكنه لم يرَ معهم صديقه المقرَّب السيد «فوكاي»، سألهم: «أين فوكاي ـ سان؟»، فأجابه الأب «كلينزوغر»: «لم يكن راغبًا في المجيء معنا، لقد ركض عائدًا إلى المدينة».

* * *

حين سمعت الآنسة «ساساكي» أصوات أولئك المحبوسين

معها تحت ركام مصنع القصدير، بدأت تحادِثهم، واكتشفت أن أقرب الأشخاص منها فتاة في المرحلة الثانوية، ممن أُوكِلَ إليها مهمة العمل في المصنع، لقد أخبرتها تلك الفتاة بأن ظهرها قد كُسِر، قالت لها الآنسة «ساساكي»: «أنا مستلقية هنا وعاجزة عن الحركة، وساقي اليسرى مبتورة».

بعد مدة سمعت مرةً أخرى وَقْعَ أقدام فوقها، ثم لاحظت أن الخطوات اتجهت بعيدًا عنها، واستقرت في الجانب الآخر، وأيًّا ما كان ذلك الشخص فقد بدأ في الحفر هناك، استطاع هذا الشخص تحرير عدد من الأشخاص، وحين وصل لفتاة المرحلة الثانوية استطاع تحريرها أيضًا لتكتشف بعد ذلك أن ظهرها سليم، ولتخرج من مكانها زحفًا.

نادت الآنسة «ساساكي» ذلك المنقذ، واتجه إليها فعلاً، أزاح عددًا كبيرًا من الكتب، وشكَّل نفقًا نحوها حتى تمكَّنت من رؤية وجهه وهو يتصبَّب عرقًا ويناديها: «اخرجي يا آنسة»، حاولت، ولكنها عجزت، وأخبرته: «لا أستطيع أن أتحرَّك»، قام الرجل بمزيد من الحَفْر، وسألها ثانية بأن تحاول بكل قوتها أن تخرج، لكنها لم تستطع، لقد كانت مثبتة بإحكام تحت الكتب الثقيلة فوق خصرها، لاحظ الرجل أن خزانة الكتب كانت تميل فوق ركام الكتب، وأن عمودًا ثقيلاً كان واقعًا على الخزانة، طلب منها الانتظار، وقال: «سأحضر عتلة»، ذهب الرجل وغاب لفترة طويلة، وعندما عاد كان مغضبًا وسيئ المزاج، وكأن المحنة التي هي فيها من فِعل يديها، صاح من خلال النفق قائلاً: «ليس

لدينا رجال لمساعدتك! يجب عليك أن تُخْرِجِي نفسك بنفسك»، قالت له: «هذا مستحيل، فساقي اليسرى..»، لكن الرجل ذهب بعيدًا.

بعد مدة طويلة جاء عدد من الرجال واستطاعوا سحب الآنسة «ساساكي» للخارج، لم تكن ساقها مبتورة، لكنها كانت مكسورة بشدة ومجروحة، ومعلَّقة على نحو منحرف من تحت الركبة، أخذوها للفناء الخارجي، حيث كانت السماء تمطر، وجلست هناك على الأرض تحت المطر، وعندما زاد هطول المطر اقترح شخص على جميع الجرحى أن يتوجَّهوا إلى ملجأ المصنع والمخصَّص للغارات الجوية، نادتها امرأة جريحة: «تعالي، يمكنك القفز»، لكن الآنسة «ساساكي» كانت عاجزةً تمامًا عن الحركة، وظلَّت في مكانها تنتظر تحت المطر المنهمر، فقام رجل بنزع سقف معدني، وهيَّأه ليكون كمظلَّة في ناحية من فناء المصنع، وأقبل إليها، وحملها إلى تلك المظلَّة، كانت مُمْتَنَّةً له، حتى جاء بشخصين آخرين كانت جراحهم مُرَوِّعَة لمشاركتها هذه السقيفة البسيطة، امرأة تمزَّق ثديها بالكامل، ورجل كان وجهه داميًا واللحم مكشوف جرَّاء احتراقه بالكامل، لم يرجع إليهم أحد بعد ذلك، توقَّفت الأمطار مع مجيء المساء، والذي كان غائمًا وحارًّا، ومع اقتراب حلول الظلام كانت رائحة أولئك الثلاث تحت تلك المظلَّة سيئة على نحو لا يطاق.

* * *

كان «يوشيدا» رئيس جمعية حي «نوبوري ـ تشو» السابق،

وهو الحي الذي يسكنه القساوسة الكاثوليك، رجلاً يمتلئ حيوية ونشاطًا، وكان يتفاخَر، حين كان مسؤولاً عن دفاعات الحي ضد الغارات الجوية، ويقول بأن النار قد تأكل هيروشيما بالكامل، ولكنها لن تتمكَّن من الوصول أبدًا إلى «نوبوري ـ تشو»، لقد دمرت القنبلة منزله بالكامل، وهو الآن مثبَّتٌ من ساقيه بلوح خشبي، على مرأى ومسمع من منزل البعثة اليسوعية عبر الشارع، وبمرأى مِن كل مَن كان يمر بذلك الشارع من الناس.

وفي مَعْمَعَةِ الارتباك والحيرة لم تلحظ السيدة «ناكامورا» ولا أطفالها، ولا الأب «كلينزوغر»، والسيد «فوكاي» على ظهره، وجودَه هناك معلَّقًا في منزله المتهدِّم، فقد كان مجرَّد جزء من الصورة الضبابية لمشهد البؤس الذي كانوا يمضون فيه، ولم تكن نداءات الاستنجاد التي يَبُثُّهَا تلقى أذنًا صاغية؛ فقد كانت صرخات الاستنجاد تملأ المكان، ولم يكن بالإمكان تمييز صوته من بين زحمة تلك الأصوات، لقد ذهبوا جميعًا والآخرون في طريقهم دون أن يتنبَّهوا له، وأصبحت «نوبوري ـ تشو» مهجورةً تمامًا، والنيران تأكلها أكلاً.

لقد رأى السيد «يوشيدا» النيران تلتهم منزل البعثة الخشبي، وقد كان المنزل الوحيد الذي ظلَّ قائمًا في المنطقة، كان يشعر بوهج ذلك الحريق على صفحة وجهه، ثم دبت النيران لتتسلَّل إلى جانبه من الشارع، وأخذت طريقها إلى منزله، وفي نوبة من الفزع الشديد استطاع تحرير نفسه، وأخذ يجري في أَزِقَّة «نوبوري ـ تشو» بين النيران التي زعم أنها لن تصل أبدًا للمنطقة، ومن

حينها صار يتصرَّف كرجل عجوز، وابيضَّ شعره تمامًا بعد شهرين.

* * *

بينما كان الدكتور «فوجي» واقفًا في النهر، والماء يحاذِي رقبته، رغبةً في تجنُّب حرارة النيران الملتهبة، كانت الرياح تشتد وتشتد، وبعد مدة يسيرة لم يَعُدْ بإمكان مَن كان تحت الجسر البقاء في الماء، فمع كون الماء قليلاً، لكن الأمواج كانت تتعالى وتتعالى بفعل الرياح العاصفة. تحرَّك الدكتور «فوجي» إلى قرب شاطئ النهر، وجلس هناك جاثمًا في الماء، ومحتضِنًا صخرة كبيرة بذراعه السليمة، وبعد مدة صار من الممكن شقُّ طريقٍ في الماء بالتخوُّض فيه على حافة النهر تمامًا، وهكذا انطلق الدكتور «فوجي» والممرِّضتان الناجيتان بعكس تيار الماء، واستطاعَا قطع مسافة مائتي متر تقريبًا لِيَجِدَا لسانًا رمليًّا ممتدًّا في النهر بالقرب من متنزَّه «أسانو».

كان الكثير من الجرحى ممدَّدين على الرمل، وكان الدكتور «ماتشي» هناك مع عائلته، لقد نالت ابنته حروق بالغة في يديها وساقيها؛ إذ كانت في الخارج وقت وقوع الانفجار، ولكن لحسن حظِّها لم تَمَسَّ الحروق وجهها، ومع ما كان يُحِسُّ به الدكتور «فوجي» من ألمٍ فظيع نتيجة إصابة كتفه، إلا أنه وبشيء من الفضول قام بفحصٍ حروق تلك الفتاة، ثم استلقى على الأرض، وعلى الرغم من البؤس الذي كان يملأ المكان، فقد كان يشعر بالخجل من مظهره، وأفضى للدكتور «ماتشي» بذلك،

وأخبره أنه يبدو في ملابسه الداخلية الممزَّقة والدامية كمتسوِّل.

في وقت متأخِّر من المساء، بدأت النيران تهدأ، فوجدها فرصة للذهاب إلى منزل أبويه والواقع في ضاحية «ناغاتسوكا»، طلب من الدكتور «ماتشي» أن يرافقه، لكنه اعتذر إليه، وأخبره بأنه وأهله سيَبِيتُون الليلة على التَّلَّة، فقد كان يصعب عليهم التحرُّك مع ما بابنتهم من إصابات.

مضى الدكتور «فوجي» مع الممرِّضتين إلى «أوشيد» أولاً، وهناك وجد منزلاً لبعض قراباته، كان المنزل مهدمًا جزئيًّا، ووجد فيه موادَّ إسعافات أولية كان قد خزنها هناك، فقامت الممرِّضتان بمعالجة جراحه، وقام هو بالمقابل بمعالجة جراحهنَّ، ثم أكملوا مسيرهم.

لم يكن هناك الكثير من المشاة في الشوارع الآن، لكن أعدادًا كبيرة كانت جالسةً ومستلقية على الرصيف، كانوا يتقيؤون، وينتظرون الموت، وكان الموت يزورهم فعلاً، كانت أعداد الجثث التي تملأ الطريق إلى «ناغاتسوكا» تبعث على الحيرة، وظَلَّ الدكتور يتساءل متعجِّبًا: هل بإمكان سَلَّة زهرة مولوتوف أن تفعل هذا كله؟ ووصل الدكتور «فوجي» إلى منزل عائلته في الليل، كان المنزل يَبْعُد عن مركز المدينة مسافة ثماني كيلومترات، ومع ذلك وجد سقفه منهارًا، وجميع النوافذ محطَّمة.

* * *

كان الناس يتدفَّقون إلى متنزَّه «أسانو» طوال اليوم، ومِن

حُسْن الحظ أن المتنزَّه كان بعيدًا بالقدر الكافي عن الانفجار بحيث لم يتضرَّر، وبقي بأشجاره سليمًا لم يُصَبْ، فهذه أشجار الخيزران، والصنوبر، والغار، والقيقب، كلها على قيد الحياة، كان هذا المكان الأخضر يجتذب اللاجئين من مختلف المناطق لأسباب متعدِّدة؛ فالبعض حمله على المجيء ظَنُّهُ بأن الأمريكان إن أغاروا مجدَّدًا على المدينة فسيقصفون المباني فقط، والبعض الآخر كان يجد في المكان طمأنينة وراحة، فقد كان مركزًا للحياة والسكينة، وكانت بساتينها الصخرية الرائعة، وبِرَكُهَا الهادئة، وجسورها المقوَّسة، تُعِيدُ إلى الأذهان صورة اليابان، آمنةً وطبيعيةً، وهناك مَن جاء مدفوعًا برغبةٍ غريزية بدائيةٍ جامحة للاختباء تحت أوراق الأشجار.

كانت السيدة «ناكامورا» وأطفالها من بين أول الواصلين هنا، وأخذوا محلَّهم في بستان الخيزران قرب النهر، شعروا جميعًا بالعطش الشديد، وارتووا من ماء النهر، وفي لحظة واحدة انتابهم جميعًا الغيثان، وبدؤوا يتقيَّؤون مباشرة، واستمرُّوا على هذه الحال طوال يومهم، ولم تكن هذه المعاناة خاصةً بهم، فقد كانت هناك رائحة قوية تملأ الجو نتيجة التأيُّن، كانت كرائحة حريق كهربائي انبعثت من انشطار القنبلة، وظنُّوا جميعًا بسبب تلك الرائحة أنهم مرضى من غاز أطلقه الأمريكان في الأجواء.

* * *

عندما وصل الأب «كلينزوغر» وبقية القساوسة للمتنزَّه رأوا عددًا من أصدقائهم ومعارفهم هنا، وكانوا يُومِئُونَ إليهم برؤوسهم

أثناء مرورهم، وعندما مَرُّوا بعائلة «ناكامورا» وجدوهم مُمَدَّدِينَ على الأرض مرضى.

سيدة اسمها «إيواساكي» ممن كانت تعيش في ذات الحي الذي به البعثة كانت تجلس الآن بالقرب من السيدة «ناكامورا»، وحين رأت القساوسة مُقْبِلِينَ قامت إليهم وسألتهم إن كان عليها المكث في مكانها أو مرافقتهم، صارحها الأب «كلينزوغر» قائلاً: «أجد صعوبة كبيرةً في تحديد المكان الأكثر أمانًا الآن»، فعادت إلى مكانها وظلَّت فيه، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وعلى الرغم من سلامتها ظاهريًّا من أي جروح أو حروق، فقد حصدها الموت، وضمَّها إلى قائمته.

مضى القساوسة في طريقهم على طول النهر، وحَطُّوا رحالهم عند بعض الشجيرات. وضع الأب «لاسال» جسده الْمُنْهَك على الأرض، وبمجرَّد أن فعل ذلك غرق في سبات عميق، أما طالب البعثة الذي يدرس اللاهوت، فقد كان يرتدي الآن نِعَالَه، ويحمل معه حزمة من الملابس، في ضمنها زوجين من أحذية جلدية، وحين جلس مع الآخرين وجد أن حزمة الملابس قد تحرَّرت، وأن زوجًا من الأحذية قد سقط، فيما لم يتبقَّ له إلا الفردة اليسرى من كل زوج، نهض من مكانه، ورجع قليلاً يبحث عما فَقَدَ متتبِّعًا خطواته، ليجد فردةً واحدةً من أحذيته المفقودة، وحين عاد والتحق برفاقه قال لهم: «يبدو الأمر غريبًا، فما عاد للأشياء أي قيمة، بالأمس كانت أحذيتي هذه أغلى ما أملك، واليوم ما عدت أعبأ بها، زوج واحد منها يبدو كافيًا»، أبدى الأب «شيسلِك»

تَفَهُّمَه، وقال: «فعلاً، فقد اصطحبت كتبي معي، لكن هجم عليَّ هاجس بعد ذلك بأن الوقت ليس وقت الكتب».

* * *

حين وصل السيد «تانيموتو» للمتنزَّه كان الطشت لا يزال في يده، وكان المنتزَّه مزدحمًا جدًّا بالبشر، وكان التمييز بين الأحياء والأموات عملية شاقة، فقد كان أكثرهم ـ أحياءً وأمواتًا ـ ممدَّدين على الأرض وعيونهم مفتوحة.

كان الصمت الذي أطبق على المكان بجوار النهر، ومشهد المئات بجروحهم البشعة، ومعاناتهم الجماعية، يمثِّل بالنسبة للأب «كلينزوغر» كمراقب غربي واحدًا من أكثر المشاهد الْمُرَوِّعَة والرهيبة التي صادفها في حياته كلها.

كان المصابون صامتين تمامًا، فلم يَبْكِ أحد منهم، ولم يكن ثمة مَن يشتكي، القليل جدًّا كان يصرخ من الألم، حتى أولئك الذين كانوا يموتون كانوا يمضون نحو الموت في هدوء، وحتى الأطفال أيضًا لم يكونوا يبكون أو يصيحون، همسات قليلة تسمعها هنا وهناك.

كان الأب «كلينزوغر» يتنقَّل بالماء بين المصابين، وحين كان يَسقِي بعض أولئك ممن كانت وجوههم يابسة تمامًا وجافَّة بسبب حروق الإشعاع المتوهِّج، كانوا يأخذون حصتهم من الماء، ويتحامَلون على أنفسهم وينهضون قليلاً فينحنون له شكرًا على ما قدَّم.

رَحَّبَ السيد «تانيموتو» بالقساوسة، ثم أخذ يفتِّش عن مزيد من الأصدقاء، رأى السيدة «ماتسوموتو» ـ زوجة مدير مدرسة الميثودية الخاصة بالبعثة ـ وسألها إن كانت عطشى، أجابته بنعم، فذهب إلى إحدى البِرَك في الحدائق الصخرية وجلب لها شيئًا من الماء في الطشت الذي كان معه.

بعدها قرَّر أن يحاول مجدَّدًا الذهاب إلى كنيسته، وفعلاً بدأ رحلته إلى «نوبوري ـ تشو»، سالكًا ذات الطريق التي سلكها القساوسة في هروبهم، لكنه لم يستطع المضي بعيدًا، فقد كانت النيران مُسْتَعِرَةً وعنيفة في الشوارع، للحد الذي اضطرَّه للعودة إلى المتنزَّه، مشى إلى ضفة النهر، وبدأ البحث عن قارب يُمكِّنه من نقل بعض أصحاب الإصابات الخطرة من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى بعيدًا عن مجال النار المنتشرة، وسرعان ما رأى قاربًا بحجم مناسب قد أُرْسِيَ على ضفة النهر، وحين وصل إليه رأى مشهدًا فظيعًا، خمسة رجال ميتين في داخله وحواليه، جميعهم شبه عراة، ومحترقين، ويظهر من حالهم أنهم ماتوا جميعًا في نفس الوقت، وكان مشهدهم مُوحِيًا بمحاولتهم دَفْع القارب إلى داخل النهر. بدأ السيد «تانيموتو» برفع الجثث وإبعادها عن القارب، وأثناء ذلك انتابه شعور بالرعب من إزعاج الموتى، وكأنه منعهم بتصرُّفه هذا من أن يُطْلِقُوا قاربهم في الماء ويمضوا أشباحًا في سبيلهم، لقد حمله هذا الشعور على إعلان اعتذاره لهم، ورفع صوته قائلاً: «أرجوكم سامحوني لأخذي قاربكم؛ فأنا محتاج إليه لمساعدة الآخرين ممن لا يزالون أحياء».

كان القارب ثقيلاً، لكنه استطاع زحزحته ودفعه في الماء، لم يكن به أي مجاديف، وكل ما تمكَّن من إيجاده عصا سميكة من الخيزران، أخذ القارب عبر النهر إلى منطقة مزدحمة من المتنزَّه، وبدأ في نقل الجرحى.

كان بإمكانه أن يحمل معه في كل رحلة عشرة أو اثني عشر شخصًا، لكن واجهته صعوبة بطَّأت من رحلته، فقد كان النهر عميقًا في منتصفه، مما كان يضطرُّه للتجديف بعصاه، ونتيجة لذلك كانت الرحلة تستغرق مدة طويلة جدًّا، ظل على هذه الحال يعمل لمدة ساعات.

وفي فترة مبكِّرة من ذلك المساء تسلَّلت النيران إلى داخل متنزَّه «أسانو»، وأخذت تنتشر في كل مكان، وحين رأى السيد «تانيموتو» أعدادًا كبيرة من الناس قد انحازوا إلى جانب النهر، وذلك أثناء عودته إلى المتنزَّه في قاربه، علم أن شيئًا ما قد حدث، وبمجرَّد ملامسة القارب لضفة النهر قفز منه وذهب ليتحرَّى الموضوع، وعندما رأى النيران صرخ فيمن حوله: «ليلحق بي جميع الشُّبَّان ممن ليس لديهم إصابات شديدة!»، قام الأب «كلينزوغر» بنقل صاحبيه الأب «شيفر» والأب «لاسال» إلى مقربة النهر، وطلب ممن كان هناك أن يعبروا بهما النهر في حال اقتربت النيران أكثر، ثم التحق بمجموعة المتطوعين مع «تانيموتو».

أرسل السيد «تانيموتو» مجموعة للبحث عن دِلَاءٍ وأَوَانٍ لنقل الماء، فيما أمر آخرين بالسعي لإخماد نيران الشجيرات

بالضرب عليها بملابسهم، وحين وصلت الأواني والدِّلَاء قام بتشكيل سلسلة بشرية تصل إلى إحدى البِرَك بالمتنزَّه لنقل الماء، قاوَم الفريقُ النيرانَ لأكثر من ساعتين، وتمكَّنوا تدريجيًّا من هزيمتها.

وأثناء عمل أولئك الرجال في مكافحة النيران كانت الجموع الخائفة في المتنزَّه تزدحم أكثر وأكثر مقتربةً من النهر، وفي النهاية أجبر هذا الحشد أولئك الأقلَّ حظًّا ممن كان على حافة النهر لاقتحام الماء، وكان من بين أولئك التُّعَسَاء الذين دُفعوا إلى النهر السيدة «ماتسوموتو» من مدرسة البعثة وابنتها، والذي انتهى أمرهما إلى الغرق في مياه النهر.

* * *

عندما عاد الأب «كلينزوغر» إلى أصحابه بعد مشاركته في صد النيران وجد الأب «شيفر» شاحبًا بشكل فظيع، ولا زالت جراحه تنزف، كان بعض اليابانيين مُحْدِقِينَ به، ويرمقونه بأبصارهم، فالتفت الأب «شيفر» للأب «كلينزوغر»، وابتسم ابتسامة ضعيفة وهمس له: «يبدو الأمر كما لو كنت ميتًا بالفعل»، فردَّ عليه صاحبه: «ليس بعد».

كان قد أحضر معه عُدَّةَ الإسعافات الأولية للدكتور «فوجي»، ولاحظ أن الدكتور «كاندا» كان على مقربة من بين الجموع، فسعى إليه وطلب منه تضميد جراح الأب «شيفر» الغائرة، كان الدكتور «كاندا» قد شاهَد زوجته وابنته جُثَثًا هامدةً في ركام المستشفى الخاص به، وكان الآن على الأرض جالسًا،

مُطْرِقًا برأسه إلى الأسفل، حاملاً إياه بين كَفَّيْهِ: «لا أستطيع فعل أي شيء»، هكذا أجاب طلب الأب «كلينزوغر».

عاد الأب «كلينزوغر» لصاحبه وقام بنفسه بتضميد جراحه؛ بوضع مزيد من الضمادات فوق ضماداته، ثم نقله إلى مكان منحدر ليستلقِي هناك، وجعل رأسه مرتفعًا عن مستوى قدميه، وسرعان ما توقَّف نزيفه.

* * *

في هذه الأثناء سمع الحشد الموجود بجوار النهر صوت هدير الطائرات مقبلة، صاح أحدهم ممن كان بجوار عائلة «ناكامورا»: «إنها طائرات حربية آتية لقصفنا!»، خبّازٌ يدعى «ناكاشيما» وقف وأمر الجمع: «مَن كان يرتدي شيئًا من البياض فلينزعه فورًا»، قامت السيدة «ناكامورا» مباشرة بنزع القمصان عن أطفالها، وفتحت مظلَّتها وأمرتهم بالدخول تحتها، عدد كبير من الناس، حتى أولئك المصابين بحروق بليغة، أخذوا يزحفون ويختبؤون بين الشجيرات، في انتظار ذهاب ذلك الصوت المنبعث من تلك الطائرات، والتي لم تكن في الحقيقة سوى طائرات استطلاع، أو استكشاف الطقس.

ثم بدأت السماء تُمْطِر، أبقت السيدة «ناكامورا» أطفالها تحت المظلَّة، كانت قطرات المطر كبيرة بشكل غير اعتيادي، فصاح أحدهم مرعوبًا: «إن الأمريكان يرشون البنزين علينا، وسيقومون بإشعال النيران فينا!» (كان مصدر هذا القلق فرضية تحوَّلت لشائعة سَرَتْ في أرجاء المتنزَّه في تفسير كيف انتشرت

النيران في أرجاء واسعة من هيروشيما، مفاد هذه الشائعة أن طائرة واحدة قامت برش البنزين في أنحاء المدينة، ثم وبطريقة ما أُشْعِلَ ذلك البنزين في لحظة خاطفة)، لكن تلك القطرات في الواقع كانت مجرَّد مياه كما هو واضح وملموس، وبينما كانت تلك القطرات تتساقط، كانت الرياح تزداد قوة، ولعل ذلك بسبب الحرارة الهائلة للمدينة المحترقة، وتكوَّنت وعلى نحو مفاجئ زوبعة اخترقت المتنزَّه، لتحطِّم في طريقها الأشجار الضخمة، وتقتلع الشجيرات الصغيرة من جذورها، وتطير بها في الهواء، وفي أعالي الزوبعة استقرَّت مجموعة عشوائية من الأشياء المسطَّحة، قِطَعٌ من السقوف الحديدية، والورق، والأبواب، والحُصر الممزَّقة، كلها تدور في هذا القُمْع الدوَّار.

وضع الأب «كلينزوغر» قطعةً من القماش فوق عيني الأب «شيفر»، لئلا يظن هذا الرجل الواهن المريض أنه بدأ يُجَنُّ مما يجري حوله، لقد قذفت العاصفة السيدة «موراتا»، مدبرة شؤون البعثة، والتي كانت تجلس بالقرب من النهر، حتى وصلت بها إلى أسفل الجسر حيث المياه الضحلة، والصخور التي تملأ المكان، فخرجت من هناك وقدماها العاريتان تنزفان دمًا، انتقلت الدَّوَّامَة إلى النهر، حيث امتصَّت الماء وارتفعت به كعمود في السماء، ثم اضمحلَّت الدوامة وتلاشت في نهاية الأمر.

بعد أن هدأت العاصفة عاد السيد «تانيموتو» إلى عمله في نقل الناس بين جنبتي النهر مرة أخرى، فيما طلب الأب «كلينزوغر» من طالب البعثة أن يقطع النهر، ويذهب إلى دار

الرهبان اليسوعية في «ناغاتسوكا» والواقعة على بُعْد خمسة كيلومترات من وسط المدينة، ليطلب من القساوسة هناك الإتيان لمساعدة الأب «شيفر»، والأب «لاسال».

ركب الطالب قارب السيد «تانيموتو»، وذهب معه مجتازًا النهر، سأل الأب «كلينزوغر» السيدة «ناكامورا» إن كانت راغبةً في الذهاب إلى «ناغاتسوكا» مع بقية القساوسة متى ما جاؤوا للمساعدة؛ فأخبرته بأنها عاجزة عن ذلك، فقد كان معها بعض الأمتعة، وبوادر المرض بادية على أطفالها، فقد كانوا يتقيؤون من وقت لآخر، كما أنها كانت تعاني من ذلك أيضًا، أخبرها بأنه يعتقد أن بإمكان القساوسة من بيت الرهبان أن يجيؤوا مرةً أخرى في الغد لمعاونتها، وأن بإمكانهم إحضار عربة معهم لحمل الأغراض.

* * *

في وقت متأخِّر من ذلك المساء، وبينما كان السيد «تانيموتو» يمشي على الشاطئ، مستمتعًا ببقية طاقته وحزمة مبادراته التي بات الكثيرون يعتمدون عليها الآن، وجد أناسًا يَسْتَجْدُونَ اللقمة من الطعام، استشارَ الأب «كلينزوغر» في الموضوع، واتَّفَقَا على العودة إلى المدينة لإحضار بعض الأرز من جمعية الحي التي كان يرأسها السيد «تانيموتو»، ومن ملجأ البعثة أيضًا، فانطلقا جميعًا، وفي رُفْقَتِهم الأب «شيسلِك»، واثنان أو ثلاثة آخرون.

مع بداية انطلاقهم، وعند وصولهم لصف من المنازل

الخربة، أصبحوا تائهين، فقد تغيَّرت ملامح المدينة فجأة، وتحوَّلت من مدينة مُكْتَظَّة يسكنها ٢٤٠ ألف إنسان في صباح ذلك اليوم إلى مجرَّد أطلالٍ خاويةٍ بحلول المساء، كان إسفلت الشوارع لا يزال لَيِّنًا وساخنًا جدًّا من آثار النيران الملتهبة، مما جعل المشي عليه عملية مُضْنِيَة.

واجهوا في طريقهم شخصًا واحدًا فقط، امرأةً قالت أثناء مرورهم بها: «زوجي يسكن في ذلك الرماد»، وحين وصلوا إلى مجمع البعثة غادر السيد «تانيموتو» المجموعة متوجِّهًا إلى جمعية الحي، أما الأب «كلينزوغر» فبمجرد أن رأى حجم الدمار الذي لحق بالمبنى انتابه شيء من الفزع والرهبة.

دخلوا المجمع، وأثناء مرورهم بالحديقة متجهين للملجأ وجد يقطينةً قد تم شيُّها وهي لا تزال معلَّقة بعروقها، تناوَب هو والأب «شيسلِك» تذوُّقَها ليجدوا طعمَها رائعًا، تفاجئوا من حجم الجوع الذي كان بهم، وأكلوا منها مقدارًا حسنًا، قاموا بعد ذلك بإخراج عدد من أكياس الأرز، ثم جمعوا بعضًا من اليقطين المطبوخ، ونبشوا عن بعض البطاطس ليجدوها قد طُبِخَت هي الأخرى على نحوٍ رائع تحت الأرض، وعادوا أدراجهم، وأثناء عودتهم التحق بهم السيد «تانيموتو»، أحد مَن كان معهم اصطحب معه عددًا من أدوات وأواني الطهي.

وفي المتنزَّه طلب السيد «تانيموتو» ممن أصيبت بجراح خفيفة من نساء حيِّه أن يبادرن بالطبخ، عرض الأب «كلينزوغر» على أسرة «ناكامورا» بعض اليقطين، وجرَّبوها فعلاً، ولكنهم

عجزوا عن استبقائها في بطونهم بسبب الغثيان، كان الأرز إجمالاً يكفي لإطعام قرابة المائة شخص.

* * *

قبل حلول الظلام صادَف السيد «تانيموتو» السيدة «كاماي»، فتاةً تبلغ من العمر عشرين عامًا، وتسكن في البيت المجاور له، كانت جاثمة على الأرض، وتحمِل بين يديها جسد ابنتها الرضيعة، لقد كانت ميتةً طوال النهار، وحين شاهدت السيدة «كاماي» جارها قفزت إليه مباشرة، وسألته إن كان بإمكانه أن يساعدها في تحديد مكان زوجها، كان السيد «تانيموتو» على علمٍ بأن زوجها قد التحق بالخدمة العسكرية قبل يوم واحد فقط من الكارثة، فظلَّ معها يواسيها ويسلِّيها علَّها تنسى الموضوع.

كان السيد «كاماي» قد أُلْحِقَ بالخدمة بالمركز الرئيسي للقوات الإقليمية بتشوغوكو قرب القصر الأثري في وسط المدينة، حيث كان يتمركز أربعة آلاف جندي تقريبًا، خَمَّن السيد «تانيموتو»، بناءً على ما شاهده من قتل وتشويهٍ لَحِقَ بالجنود، بأن ثكناتهم قد دُمِّرَتْ بشكل كبير بذلك الشيء الذي ضرب المدينة، كان يعلم تمامًا أنه لا فرصة أبدًا لإيجاد زوج السيدة «كاماي»، حتى لو حاول البحث عنه، لكنه أراد أن يطيِّب خاطرها ويسايرها، فقال لها: «سأحاول»، قالت له: «يجب عليك أن تجده، فقد كان يحب طفلتنا كثيرًا، أريده أن يراها مرةً أخرى».

الفصل الثالث

تحقيقٌ في التفاصيل

في وقتٍ مبكرٍ من مساء يوم انفجار القنبلة كانت سفينة سلاح البحرية اليابانية تَذْرَعُ أنهار هيروشيما السبعة ببطء، توقَّفت تلك السفينة هنا وهناك لتُدْلِي ببعض البيانات لتلك الجموع المنتشرة على طول النهر، هذا النهر الذي بات يتمدَّد على شطآنه وعلى جسوره مئات الجرحى. وصلت السفينة في نهاية المطاف ومع حلول شفق الغروب لمتنزَّه «أسانو»، وقف ضابط صغير السن على متن السفينة وهتف عبر مكبِّر الصوت: «اصبروا! فهناك سفينة طبية عسكرية قادمة لتقديم الرعاية الصحية لكم».

كان منظر السفينة ومن ورائها مشهد الدمار المنتشر بطول النهر، وصورة هذا الشاب ببدلته العسكرية الأنيقة وثباته، وفوق هذا كله هذا الوعد الباذِخ بوصول الرعاية الصحية، والتي كانت تمثِّل أولى بُشْرَيَات الإغاثة التي تلقَّاها الناس في هذا اليوم، بعد اثني عشر ساعة من العذابات المتواصلة، كافيًا لإحداث فرحةٍ عارمةٍ لجميع مَن كان في المتنزَّه يومئذ.

❊ ❊ ❊

لم تفارِق السيدة «ناكامورا» وعائلتها المكان تلك الليلة، خصوصًا بعد اطمئنانها بأن طبيبًا سيأتي لمعالجة ما بأطفالها من مرضٍ، ويُوقِف ما بهم من غثيان وتقيُّؤ مستمر، أما السيد «تانيموتو» فقد استأنف عمله في نَقْل الجرحى من ضفة النهر إلى ضفته الأخرى، بينما استلقى الأب «كلينزوغر» على الأرض، وأَخَذَ يُرَتِّل بعض الدعوات، ليدخل بعدها في نومه مباشرة، ولكن ما إن أغمض عينه حتى هزَّته السيدة «موراتا»، مدبِّرة منزل البعثة، لتقول له: «هل قلت دعوات المساء؟»، ليجيبها متذمِّرًا: «بالطبع فعلتُ»، وحاوَل أن يعود إلى النوم مجدَّدًا لكنه عجز عن ذلك، ويبدو أن هذا ما كانت تريده السيدة «موراتا»؛ فقد بدأت في الدردشة مع هذا القس الْمُنْهَك، كان أحد الأسئلة التي طرحتها عن موعد وصول القساوسة من دير الرهبان، بعد أن أرسل إليهم بُعَيْد الظهيرة مَن يستدعيهم، وذلك لنقل رئيس الدير الأب «لاسال» والأب «شيفر» إلى ذلك الدير.

وصل ذاك الرسول فعلاً إلى ذلك الدير الواقع في التلال على بُعْد خمسة كيلومترات من المتنزَّه في الساعة الرابعة والنصف، كان هناك ستة عشر قَسًّا، وكانوا يعملون جميعًا في إنقاذ الجرحى والمصابين في ضواحي المدينة، وكانوا طيلة الوقت قَلِقِينَ على رفاقهم ممن كانوا يقطنون المدينة، ويرغبون في تقديم يد المساعدة لهم، لكنَّهم لم يكونوا يعلمون كيف ولا أين يبحثون عنهم، كانوا الآن يجهِّزون على عَجَلٍ نَقَّالة خشبية من عصيٍّ

وألواح، وبعد أن انتهوا من ذلك مضى ستة من القساوسة مع الطالب إلى المناطق المنكوبة.

ساروا بمحاذاة نهر «أوتا» بأعلى المدينة، واضطروا مرتين للنزول إلى مياهه بسبب حرارة النيران الملتهبة، وحين وصلوا إلى جسر «ميساسا» صادَفُوا صفًّا طويلاً من الجنود وهو متوجِّه في مسيرة عجيبة خارجين من مقر قيادة الجيش الإقليمية بشوغوكو، والواقع في مركز المدينة، كانوا جميعًا مصابين بحروق فظيعة، ويسيرون مُعْتَمِدِين على بعضهم، أو مُتَوَكِّئِينَ على عِصِيٍّ معهم، كما وجد القساوسة على الجسر أيضًا خيولاً مريضة ومصابة بحروق، وهي تدلي برؤوسها إلى أسفل.

حين وصل فريق الإنقاذ إلى المتنزَّه بعد حلول الظلام كان المضي قُدُمًا لقطع المتنزَّه عملية شاقة، بسبب ركام الأشجار المتساقطة من كل الأحجام نتيجة الزوبعة التي اخترقت المتنزَّه ذلك المساء. وأخيرًا، وبُعَيْد سؤال السيدة «موراتا» عنهم، وصل الفريق إلى أصحابهم، وقدَّمُوا لهم النبيذ وبعض الشاي الثقيل.

تناقَش القساوسة في كيفية نقل الأب «شيفر» والأب «لاسال» إلى دير الرهبان، فقد كانوا يخشون أن طريقهم في المتنزَّه سيكون مضطربًا، وذلك ما سيجعل رحلة نقل المصابين شاقة وخطيرة، فمع التخبُّط والاهتزاز فوق النَّقَّالة الخشبية قد يخسر الجريح مزيدًا من الدماء مما سيكون مُهَدِّدًا لحياته.

فكر الأب «كلينزوغر» في السيد «تانيموتو» وقاربه، وناداه من على النهر، وحين وصل السيد «تانيموتو» إلى الضفة أبدى

استعداده لنقل المصابين ومَن سيحملهم بقاربه إلى حيث يمكن أن يجدوا طريقًا سالكة.

وفعلاً وُضِعَ الأب «شيفر» على النَّقَّالة وأُنزِل إلى القارب، ورافقه اثنان من القساوسة، وانطلق القارب. كان السيد «تانيموتو» مضطرًّا لاستعمال عصا الخيزران في تحريكه ودفعه؛ إذ لم يكن لديه حتى الآن أيَّة مجاديف تقوم بالعملية، وبعد حوالي نصف ساعة عاد السيد «تانيموتو» إلى بقية القساوسة وألَحَّ عليهم أن يساعدوه في إنقاذ طفلين كانَا غارِقَيْنِ في النهر حتى أكتافهما، فتوجَّهت مجموعة منهم وساعدوه في انتشال الطفلين من الماء، كانتا فتاتين صغيرتين فَقَدَتَا أسرتهما، وكانتا مصابتين بحروق شديدة.

قام القساوسة بوضعهما بجوار الأب «كلينزوغر»، ثم شرعوا في حَمْل الأب «لاسال»، وقدَّر الأب «شيسلِك» أن بإمكانه الْمُضِيَّ إلى الدير على قدميه، فركب مع بقية المجموعة في القارب ومضى معهم، أما الأب «كلينزوغر» فكان واهنًا جدًّا، ولذا قرَّر أن يَبِيتَ تلك الليلة في المتنزَّه، وطلب من رفاقه قبل أن يغادروا أن يُحضروا معهم في اليوم التالي عربةً ليتمكَّنوا من أَخْذ السيدة «ناكامورا» وأطفالها إلى الدير.

غادر السيد «تانيموتو» بقاربه المكان مجدَّدًا، وبينما كان ركاب تلك السفينة يخوضون بها غمار النهر ببطء كانوا يسمعون صرخات ضعيفة تطلب النجدة، كانت إحدى هذه الصرخات لامرأة بَدَا صوتها مميَّزًا في زحمة تلك الصرخات، كانت تستنجد

وتقول: «أنقذونا! هناك أناس هنا على وشك الغرق! والمياه آخِذَة في الارتفاع!»، كان رُكَّاب القارب قادرين على مشاهدة عدد من أولئك المصابين تحت أشعة النيران الملتهبة، كانوا ممدَّدِين على حافة النهر، والماء يغطِّيهم جزئيًّا، وحركة المد تزيد من ارتفاع منسوب المياه، ولن يمضي وقت طويل حتى يغطيهم النهر تمامًا.

أراد السيد «تانيموتو» أن يتوقَّف لمساعدتهم، ولكن القساوسة كانوا يخشون على حياة الأب «شيفر» من الموت إن تأخَّروا، فألَحُّوا على قائد المركبة بالمضي، فأنزلهم حيث أرادوا، وعاد أدراجه إلى أولئك المستنجدين قُبَالَةَ تَلَّةٍ رملية.

❊ ❊ ❊

كانت ليلة حارَّة، وبَدَتْ أشد حرارة مع تصاعُد ألسنة النيران في السماء، ولكن الفتاتين الصغيرتين بجوار الأب «كلينزوغر» اشتكتا إليه أنهما تشعران بالبرودة، فقام بتغطيتهما بسترته. كانت الفتاة وأختها الكبرى غارقتين في المياه المالحة للنهر لبضع ساعات قبل أن يتم إنقاذهما، وكانت الصغرى تعاني من حروق ضخمة منتشرة في جسدها، ولبثها بتلك الحال في النهر المالح كان بالتأكيد تجربةً مؤلمةً جدًّا. كانت الآن ترتعش بشدة، وتكرِّر شكواها من البرد، استعار الأب «كلينزوغر» بطانيةً من شخص قريب منه ولَفَّها عليها، لكنها كانت ترتعش أكثر وأكثر، وتكرِّر شكواها: «أشعر ببرودة شديدة»، وفجأة توقَّفت تمامًا عن الارتعاش، ورحلت إلى عالم الأموات.

❊ ❊ ❊

حين عاد السيد «تانيموتو» لمكان أولئك المستنجدين وجدهم ممدَّدين على أحد ألسنة النهر، كانوا نحوًا من عشرين رجلاً وامرأة، وعندما لامَس بقاربه ضفة النهر قريبًا منهم، حَثَّهُم على الصعود، لكنهم لم يتحرَّكوا، وأدرك أنهم كانوا أضعف من أن يقدروا على حَمْل أنفسهم والنهوض، مدَّ يده ليُعِينَ امرأة منهم على النهوض، فانزلق الجلد من على يدها كقطعة قفاز ضخم، لقد كان المشهد مُفْزِعًا ومثيرًا للغثيان، مما اضطرَّه للجلوس قليلاً والتقاط أنفاسه، ثم نزل إلى الماء، وعلى الرغم من كونه رجلاً صغير البنية، إلا أنه استطاع أن يحمل عددًا من الرجال والنساء إلى قاربه لينقلهم للضفة الأخرى، لقد كانوا عُرَاة، وظهورهم وصدورهم نَدِيَّة رطبة، تذكر على نحو غير مريح منظر تلك الحروق الفظيعة التي كان يشاهدها طيلة اليوم؛ بلونها الأصفر في أول الأمر، ثم حمراء منتفخة من غير جلد، لتنتهي إلى قروح بشعة ذات رائحة كريهة.

ومع ارتفاع منسوب النهر بسبب المد لم تَعُد عصا الخيزران قادرة على دفع المركبة لِقِصَرِهَا، مما اضطرَّه إلى التجديف بها معظم المسافة المتبقية، وحين وصل إلى الضفة الأخرى حمل تلك الأجساد اللزجة التي لا زالت حية ووضعها في مكان مرتفع بعيدًا عن قبضة الماء، ظل يكرِّر على نفسه بشكل واعٍ: «هؤلاء بشر»، واستغرق أمر نقلهم جميعًا ثلاث رحلات من ضفة إلى أخرى، وحين انتهى من مهمته هذه قرَّر العودة إلى المتنزَّه لينال قسطًا من الراحة.

وعندما وصل إلى المتنزَّه نزل من قاربه في الظلام، وأثناء مشيه تعثَّر بشخص، وقال له آخر مُغْضَبًا: «انتبه! هذه يدي!»، شعر بالخجل من إيذاء الجرحى، وبالحرج من قدرته على المشي منتصبًا دونهم، وفجأة مرَّ بخاطره أمر السفينة الطبية، والتي لم تأتِ يومها؛ بل لم تأتِ بتاتًا، وللحظة اجتاحه شعور طاغ بغضبٍ عارمٍ من طاقم تلك السفينة الحربية، ومن ثم لجميع الأطباء: «لماذا لم يأتوا لمساعدة كل هؤلاء الناس؟».

* * *

كان الدكتور «فوجي» مستلقيًا في منزل أهله الواقع في أطراف المدينة، كان المنزل بلا سقف، وكان يعاني من ألم رهيب طوال الليل، بدأ يتفحَّص جسمه تحت ضوء الفانوس ليجد ترقوته اليسرى مكسورة، مع جروح وسجحات منتشرة في جسمه، بالإضافة إلى جرح غائر في ذقنه وظهره وساقيه، وكدمات ورضوض واسعة في صدره وعلى جذعه، مع احتمال وقوع كسور في عدد من أضلاعه، ولولا إصاباته البالغة هذه لكان من المحتمل أن يكون هناك في المتنزَّه يقدِّم يد العون لعدد من الجرحى والمصابين.

* * *

حين خيَّم الليل على المدينة كان عشرة آلاف من ضحايا الانفجار مُوَزَّعِين في أرجاء مستشفى الصليب الأحمر، لقد كان الدكتور «ساساكي» الآن منهكًا تمامًا، يتحرَّك على غير هدى بطول

الممرَّات القذرة، جيئةً وذهابًا، مرتديًا تلك النظارة التي أخذها من إحدى الممرِّضات، حاملاً في يديه الضمادات وزجاجات المطهِّر، مُقَدِّمًا العلاج لأصحاب الجروح الأكثر سوءًا. بعض الأطباء الآخرين كانوا مشغولين بوضع المحاليل الملحية لأصحاب الحروق السيئة، كان هذا كل ما يستطيعون تقديمه لهؤلاء، وبعد حلول الظلام استمروا في العمل على ضوء حرائق المدينة، وعلى ضوء الشموع التي كانت ترفعها البقية الباقية من الممرِّضات العشر.

لم يتجاوز الدكتور «ساساكي» بنظره طيلة اليوم حدود المستشفى، فقد كان المشهد بالداخل سيئًا جدًّا للحد الذي لم يخطر بباله أن يسأل عمَّا حدث خارج أبواب ونوافذ المستشفى، كانت الأسقف والجدران قد تهاوَت، وكان الجص، والغبار، والدم، والقيء، يملأ المكان، كان المرضى يموتون بالمئات، ولم يكن هناك أحد لحمل الجثث للخارج، بعض العاملين بالمستشفى كان يوزِّع قطع البسكويت وكرات الأرز، ولكن رائحة الموت كانت قوية بحيث لم يشعر بالجوع إلا القليل.

بعد الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي كان الدكتور «ساساكي» قد عمل على نحو مُضْنٍ لمدة تسع عشرة ساعة متواصلة، وأصبح الآن عاجزًا تمامًا عن تضميد جرح واحد، خرج ومجموعة من العاملين من المستشفى يحملون معهم حُصر القش، كان هناك آلاف المرضى والقتلى في ساحات المستشفى ومداخلها، فذهبوا مسرعين لفناء المستشفى الخلفي، وهناك

استلقوا على الأرض في موضع خفي علَّهم يَحْظَوْنَ بقليل من النوم، وفي غضون ساعة واحدة فقط أحاط بهم جمعٌ من الجرحى يشتكون ويصيحون: «أيها الأطباء! ساعِدُونا! كيف يمكنكم أن تناموا؟!»، استيقظ الدكتور «ساساكي» على وقع نداءاتهم، وعاد إلى العمل مرةً أخرى.

في وقت مبكِّر من هذا اليوم، وللمرة الأولى، تذكَّر والدته ومنزلهم في «موكايهارا»، والذي يَبْعُد عن المدينة قريبًا من خمسين كيلومترًا، عادةً ما كان يتوجَّه إلى منزله هناك كل ليلة، وكان يخشى أن تظن والدته أنه قد مات.

* * *

كان بالقرب من تلك البقعة التي أنزل عندها السيد «تانيموتو» القساوسة سَلَّة كبيرة ممتلئة بكعكات الأرز، والتي أحضرها مجموعة من المنقِذين معهم لتوزيعها على الجرحى، ولكن يبدو أنهم لم يفعلوا، وحين رأت المجموعة السلَّة أثناء نقلهم للقس المصاب التقطوها وبدؤوا يقتسمون فيما بينهم تلك الكعكات، وبعد دقائق قليلة مرَّت بهم فرقة من الجنود، وحين استمع أحد الضباط إليهم وهو يتكلَّمون بلغة أجنبية استلَّ سيفه وبدأ يصرخ فيهم بصورة هستيرية: «من أنتم؟!»، نجح أحد القساوسة في تهدئته، مُبَيِّنًا له أنه وبقية المجموعة من الألمان حلفاء اليابان، اعتذر الضابط إليه، وأخبره بأن هناك بلاغًا بأن مجموعة من المظلِّيِّينَ الأمريكيين قد نزلوا في المنطقة.

قرَّرت المجموعة نَقْل الأب «شيفر» أولاً، وبينما هم

يستعدون للمضي في طريقهم قال لهم رئيس الدير الأب «لاسال» بأنه يشعر ببرودة شديدة، قدَّم واحد من اليسوعيين معطفه، وآخر قميصه، وبَدَا أنهم كانوا سعداء بذلك، خصوصًا في هذا الليل الحارّ والرطب، وبدأ الفريق رحلته.

كان طالب البعثة يقود المجموعة ويحذِّرهم من أي عوائق في الطريق، ولكن أحد القساوسة تعثَّر بأحد أسلاك الهاتف المرمية ليُسقط الجزء الذي كان يحمله من النقالة، تدحرج الأب «شيفر» من على النقالة، وفقد الوعي، ثم استيقظ وبدأ يتقيَّأ، حمله أصحابه مرة أخرى، وذهبوا به إلى حافة المدينة حيث التقوا بمجموعة أخرى من القساوسة ممن رتَّبوا معهم الأمر، وسلَّموه لهم، وعادوا أدراجهم إلى الأب «لاسال». كان تمدُّد الأب «لاسال» على النَّقَّالة الخشبية تجربة مؤلمة جدًّا؛ إذ كان مستلقيًا عليها بجروحه الملأى بقطع الزجاج المهشَّم في ظهره، وحين وصلت المجموعة لحافة المدينة كان عليها أن تلتفَّ حول سيارة محترقة، وأن تنحني إلى الأرض في هذا الطريق الضيِّق، وبسبب الظُّلْمَة التي لَفَّت المكان لم يتنبَّه مَن كان يحمل أحد جانبي النقَّالة لطريقهم فوقعوا في حفرة عميقة، سقط الأب «لاسال» على الأرض، وانكسرت النَّقَّالة إلى قطعتين، ذهب أحد القساوسة إلى الدير لإحضار عربة يد، لكنه سرعان ما وجد واحدة بجانب منزل خاوٍ، فعاد إلى رفاقه يدفعها بين يديه، رفع القساوسة الأب «لاسال» ووضعوه في العربة، ودفعوه بها لبقية الطريق.

كان رئيس دير الرهبان طبيبًا قبل انخراطه في هذه المجموعة

الدينية، فقام بتنظيف جراح القَسَّيْنِ ووضعهما في سريرين بشراشف نظيفة، وحمدًا الله على الرعاية الطيبة التي تلقَّيَاها.

* * *

كان الآلاف من الناس في ذلك اليوم محرومين ممن يساعدهم، وكانت الآنسة «ساساكي» واحدة من هؤلاء، فقد تُرِكَتْ تلك الليلة محرومةً من كل حولٍ وقوةٍ، وباتت ليلتها تحت تلك المظلَّة الهزيلة في باحة مصنع القصدير، مجاورةً لتلك المرأة التي فقدت ثديها، وذاك الرجل الذي احترق وجهه حتى بالكاد تبقَّى له شيء يسمى وجهًا، لقد عانت تلك الليلة معاناة فظيعة، وزادت أوجاعها بذاك الألم الفظيع المنبعث من ساقها المكسورة، لم تستطع أن تنام تلك الليلة أبدًا، ولم تكلِّم أحدًا من رفاقها كذلك.

* * *

في المتنزَّه أبقت السيدة «موراتا» الأب «كلينزوغر» مستيقِظًا طوال الليل بحديثها المتواصل معه، وكذلك ظلَّ جميع أفراد عائلة «ناكامورا» مستيقظين، ولم يهنؤوا بشيء من النوم، وعلى الرغم من المرض الشديد الذي كان يعاني منه الأطفال، إلا أنهم كانوا مهتمِّين بكل ما يدور حولهم، لقد بَدَوْا مبتهجين حين شاهدوا انفجار أحد خزانات الغاز بالمدينة لتتشكَّل كرة لهب هائلة، صاح «توشيو» في الآخرين: «انظروا إلى انعكاس صورة الانفجار في النهر».

وبعد مسيرة مُضْنِيَة من الركض المتواصل، والعمل لساعات

عدة، اضطجع السيد «تانيموتو» ليغفو غفوةً غير مريحة، وحين استيقظ مع بواكير الفجر نظر عبر النهر ليدرك أنه لم يحمل تلك الأجساد المتقرِّحة لمكان مرتفعٍ كفايةً في الليلة السابقة، جاء المد، وارتفع النهر ليصل إليهم، ولم يكن بهم قوة على الحراك، لقد غرقوا بالتأكيد، ثم رأى عددًا من الجثث طافية فوق النهر.

* * *

في وقت مبكِّر من ذلك اليوم، السابع من أغسطس، بثَّت الإذاعة اليابانية إعلانًا مقتضبًا، مثَّل أول بيان رسمي حيال الحدث، وهو إعلان لم يستمع إليه إلا عدد قليل من المهتمين بمضمونه من الناجين من أهل هيروشيما، جاء الإعلان على النحو التالي: «لقد عانت هيروشيما من أضرار كبيرة نتيجة هجوم عددٍ قليلٍ من طائرات بي ـ ٢٩، ويعتقد أنه استعملت نوعية جديدة من القنابل، والتحقيقات جارية لمعرفة المزيد من التفاصيل».

وإذا كان أكثر الناجين لم يستمعوا لهذا البيان، فمن المستبعَد أن أحدًا منهم قد استمع عبر الموجة القصيرة إلى إعادة بثٍّ لخطاب الرئيس الأمريكي الاستثنائي، والذي صرَّح فيه بأن القنبلة الجديدة هي قنبلة ذرية، «وأن قوَّتها التدميرية تفوق عشرين ألف طن من مادة التي.أن.تي المتفجِّرة، وأنها أقوى بألفي ضعفٍ من أقوى قنبلة استُخدمت حتى ذلك الحين في تاريخ الحروب، وهي قنبلة البطل الكبير البريطانية».

أولئك الضحايا الذين ما زال في مقدورهم أن يهتموا بما جرى كانوا يضربون أخماسًا في أسداد، ويقدِّمون تخميناتهم فيما

حدث بطريقة بدائية بسيطة ولغة طفولية: إنه بنزين تم رَشُّه من بعض الطائرات، أو ربما كان غازًا قابلاً للاشتعال، أو مجموعة قنابل عنقودية، أو هو من عمل المظلِّيِّينَ، ولكن حتى لو كانوا يعرفون الحقيقة، فمعظمهم كان مشغولاً جدًّا، أو مُرْهَقًا جدًّا، أو مصابًا على نحو خطير ليعبأ أو يهتم بحقيقة أنه كان مجرَّد جزء يسير من عملية اختبار ضخمة تُعَدُّ الأولى من نوعها للقنبلة الذرية، والتي كانت بحسب ما صَدَحَتْ به موجات الإذاعة القصيرة: بأنه لا بلد ـ باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية بتطوُّرها الصناعي، واستعدادها للدخول في مقامرة في زمن الحرب بملياري دولار ذهبية ـ كان في مقدوره تطوير قنبلة كهذه.

* * *

كانت مشاعر الغضب تجاه الأطباء لا تزال تستعر في جوف السيد «تانيموتو»، فقرَّر بأنه سيقوم شخصيًّا بإحضار واحدٍ منهم، ولو استدعى الأمر أن يَجُرَّه من رقبته فسيفعل، اجتاز النهر، وتجاوَز المزار الذي التقى زوجتَه عنده للحظات في اليوم السابق، ومضى إلى ميدان الشرق، قدَّر أنه سيجد فريقًا طبيًّا هناك؛ إذ كانت تلك المنطقة إحدى مناطق الإخلاء التي تم تحديدها منذ مدة طويلة، وحين وصل هناك وجد ما كان يطمع فيه فعلاً، حيث وجد فريقًا طبيًا تابعًا للجيش، لكنه وجد هذا الفريق غارقًا في أعباء لا تنتهي، وأمامهم آلاف المرضى ممدَّدِين على الأرض، مختلِطين بآلاف الجثث، ومع ذلك فقد أقبل على أحد أطباء الجيش مُوَبِّخًا: «لماذا لم تأتوا إلى متنزَّه «أسانو»؟ فثمة حاجة

ماسة لكم هناك»، ومن غير أن يرفع الطبيب بصره إليه قال له بصوت مُتْعَب: «هذه هي محطتي، وهناك عدد كبير من الجرحى يموتون على ضفة النهر هناك، أول واجباتي هو العناية بأصحاب الجروح الطفيفة»، سأله السيد «تانيموتو»: «لماذا مع وجود كثير من أصحاب الجروح الخطيرة هناك؟»، انتقل الطبيب لمداواة مريض آخر، وقال له، وكأنه يقرأ من دليل إرشادي: «في مثل حالات الطوارئ هذه فإن أول واجبات الطبيب هو مساعدة أكبر عدد ممكن من الأشخاص، واستنقاذ حياة مَن يمكن إنقاذه، وهؤلاء الجرحى لا أمل لهم، سوف يموتون، لا يمكن أن نشغل أنفسنا بهم»، قال له السيد «تانيموتو»: «قد يكون هذا صحيحًا من وجهة نظرٍ طبية. .»، وأخذ يقلِّب بصره بامتداد الميدان حيث كانت جثث الموتى تملأ المكان مجاوِرة لأجساد الجرحى ممن لا يزالون أحياء، وأشاح بوجهه عنهم دون أن يُكمل جملته الأخيرة، فقد كان الآن غاضبًا على نفسه، لم يكن يعرف ماذا يفعل، فقد وَعَدَ بعضَ مَن كان يحتضر في المتنزَّه بأنه سيُحضر لهم معونة طبية، قد يموتون الآن معتقِدين أنهم قد خُدِعُوا، رأى محطة تموين في جانب الميدان، وتوسَّل لمن بها أن يحظى ببعض كعك الأرز والبسكويت، أخذ حصةً منها وعاد بها إلى المتنزَّه بدل العودة بالأطباء.

* * *

كان هذا الصباح كسابقه حارًّا أيضًا، فذهب الأب «كلينزوغر» لجلب الماء للجرحى، كان معه قِنِّينَة وإبريق شاي

استعاره ممن كان هناك، سمع أن بإمكانه أن يجد بعض الماء الصالح للشرب من صنبور خارج متنزَّه «أسانو»، فمضى مخترقًا الحدائق الصخرية، متسلِّقًا حينًا، وزاحفًا أخرى بين جذوع أشجار الصنوبر المتهاوية، ووجد نفسه أثناء ذلك وَاهِنَ القوى، كان هناك العديد من القتلى في الحدائق، وأثناء مروره على جسر مقوَّس أنيق وجد امرأة عاريةً لا تزال حيَّة، كانت قد احترقت بالكامل جسدها، من رأسها حتى أخمص قدميها، وكان جسدها مُحْمَرًّا من آثار تلك الحروق.

وحين وصل إلى مدخل المتنزَّه وجدَ أحد أطباء الجيش مزوَّدًا ببعض اليود المطهِّر فقط، كان يصبغ به ما يجده أمامه من جروح وكدمات وحروق لزجة، باختصار كان يصبغ به كل شيء، وكانت تلك الإصابات تتفجَّر الآن بالقيح والصديد.

خرج الأب «كلينزوغر» بعدها من بوابة المتنزَّه ليجد صنبور ماءٍ لا زال يعمل، كان صنبورًا متبقيًا من منزل اختفى من الوجود، فملأ ما معه من أوعية ومضى عائدًا، وحين فرغ من سَقْيِ الماء لبعض الجرحى عاوَد رحلته لجلب الماء مرة أخرى، وحين مرَّ بتلك المرأة العارية عند الجسر وجدها قد فارقت الحياة، وفي طريق عودته بالماء انعطف وراء شجرة ساقطة ليضل طريقه، وبينما هو يفتِّش عن الطريق الصحيح سمع صوتًا من بين الحشائش يسأله إن كان لديه شيء للشرب، التفت إلى مصدر الصوت ليجده رجلاً ببذلته العسكرية، وبينما هو يقترب منه بالماء متوهمًا أنه مُقْبِل على رجل واحد، وجد من وراء الحشائش قرابة

العشرين رجلاً، كانوا جميعًا في حالة مرعبةٍ، لقد كان مشهدًا كفيلاً بإثارة الكوابيس لمن يشاهدها، فوجوههم جميعًا كانت محترقة بشكل كامل، وكانت محاجر عيونهم فارغة، فقد ذابت عيونهم وانساحت على خدودهم، (لا بد أنهم كان مُقْبِلِينَ بوجوههم على القنبلة لحظة الانفجار، ولعلهم من الفريق العامل على أسلحة مضادات الطائرات)، وكانت أفواههم متورِّمة ومُجَرَّحَة والصديد ينبعث من تلك الجروح، ولم يكن بإمكانهم أن يمدوا شفاههم ليشربوا من الماء.

تناول الأب «كلينزوغر» قشةً كبيرةً من الأرض واستلَّ ساقها الداخلي ليحوِّلها إلى مصاصة، وبدأ الأب يسقيهم الماء بواسطة قشة المص هذه، أحدهم كان يقول: «لا أستطيع أن أرى شيئًا»، حاول الأب «كلينزوغر» طمأنته بصوت يبعث على التفاؤل بقدر المستطاع: «هناك طبيب عند مدخل المتنزَّه، هو مشغول الآن، لكنه سيأتي عن قريب ويعالج عينيك».

أخذ الأب «كلينزوغر» يسترجع ذكرياته، ويتذكَّر أيامًا كانت مشاهد الألم فيها تصيبه بالدوار، وكيف أنه رأى يومًا أصبعًا داميًا فأغمي عليه، ولكنه اليوم وفي هذا المتنزَّه كان فاقدًا للإحساس، وكأنما خَدِرَتْ مشاعره، فبعد أن رأى هذا المنظر الرهيب توقَّف عند إحدى البِرَك ليحادِث رجلاً بجروح طفيفة عمَّا إذا كان من الآمِن أَكْل تلك السمكتين السمينتين الطافيتين على سطح الماء، قرَّرَا بعد نظر وتأمُّل أن من الحكمة تَرْك ذلك.

عاد الأب «كلينزوغر» للمرة الثالثة إلى ملء أوعيته بالماء

والعودة إلى ضفة النهر، وهناك، وفي وسط جموع الموتى والمحتضرين، رأى شابةً معها خيطٌ وإبرةٌ وهي تُصْلِح ثوب الكيمونو الخاص بها، والذي تمزَّق قليلاً، مازَحَها الأب «كلينزوغر» قائلاً: «يا إلهي مِن تَأَنُّقِك!»، التفتت إليه ضاحكةً من تعليقه.

لقد كان يشعر الآن بالتعب والإعياء، فألقى بجسده على الأرض، وبدأ يحادِث طفلين كان قد تعرَّف عليهما الليلة الماضية، كانَا من عائلة «كاتاوكا»، فتاة بعمر الثالثة عشرة، وصبي في الخامسة، كانت الفتاة على وشك الذهاب إلى حلاقٍ لحظة سقوط القنبلة، وبينما كانا هارِبَيْنِ مع أمهما لمتنزَّه «أسانو» قرَّرت الأم أن تعود لِأَخْذ المزيد من الطعام والملابس، لكن الجموع الهاربة حالت بينهما وبين أُمِّهم، ولم يَرَيَاهَا منذ ذلك الحين، كانَا بين الفينة والأخرى يتوقَّفان فجأة عن لعبهما البهيج لتنحدِر دموعهما على خدودهما، ويدخلَا في نوبة بكاء طلبًا لأمهما المفقودة.

كان من الصعب على جميع الأطفال هنا أن يتصوَّرُوا حجم الكارثة التي وقعت، بَدَا «توشيو ناكامورا» متحمِّسًا جدًّا وسعيدًا حين رأى صديقه «سيشي ساتو» راكبًا القارب في النهر مع عائلته، فركض إلى الشاطئ، وأخذ يُلَوِّح له ويصرخ: «ساتو! ساتو!».

أدار الصبي رأسه متسائلاً: «من هذا؟».

ليُجِيبَه صاحبه: «ناكامورا».

وليرد عليه: «أهلاً توشيو!».

«هل أنت بأمان».

«نعم، وماذا عنك؟».

«نعم، نحن على ما يرام، أخواتي يتقيؤون، لكنَّني بخير».

بدأ العطش يَسْرِي للأب «كلينزوغر» في هذا الجو الخانق، لكنه لم يشعر أن لديه القوة الكافية للذهاب لجلب الماء مرةً أخرى، وقبل دخول الظهيرة بقليل رأى امرأة يابانية توزِّع شيئًا على الموجودين. وسرعان ما جاءت إليه وقالت له بصوت لطيف: «هذه بعض أوراق الشاي، امضغها أيها الشاب ولن تشعر بالعطش»، كان راغبًا لحظتها في البكاء مما رآه من رِقَّة تلك المرأة ورحمتها، كان لأسابيع يشعر بالقهر من الكراهية المتزايِدة التي كان اليابانيون يُبْدُونَها، حتى لم يَعُد يشعر بالراحة حتى مع أصدقائه اليابانيين، كانت لَفْتَة تلك المرأة الغريبة عنه كافية لِجَعْلِه يمر بحالة هستيرية قليلاً.

ومع مجيء الظهيرة وصل القساوسة للمتنزَّه ومعهم عربة، لقد ذهبوا قبل ذلك إلى مجمع البعثة في المدينة، واستعادوا بعض الحقائب التي تم إيداعها في ملجأ الغارات الجوية هناك، كما انتشلوا من بين الرماد بقايا أواني المذبح، والتي ذابت مع الحريق، وضعوا حقيبة الأب «كلينزوغر» في العربة مع أغراض السيدة «موراتا» والسيدة «ناكامورا»، ثم جعلوا بنات عائلة «ناكامورا» من فوق الأغراض، واستعدُّوا للمغادرة.

تذكَّر أحد اليسوعيين أمرًا يخص ما هم فيه، تذكَّر أنه تم إبلاغهم سابقًا بأنه في حال تعرَّضت ممتلكاتهم لأي عطب بسبب

العدو فلهم الحق في المطالبة بتعويض مادي من شرطة المحافظة، تباحَثُوا الموضوع هناك في المتنزَّه، والجرحى مُحْدِقِينَ بهم صامتين كالأموات، وقرَّرُوا أن يتولى الأب «كلينزوغر» مهمة المطالبة بالتعويض؛ كونَه أحد سكان المجمع المدمَّر، وفعلاً اتجه الأب «كلينزوغر» إلى مركز الشرطة بعد أن ودَّعَ أطفال عائلة «كاتاوكا»، فيما مضت القافلة في طريقها.

وحين وصل إلى المركز وجده يُدَار من قِبَل شرطة من مدينة أخرى مرتدين زيًّا مرتَّبًا ونظيفًا، فيما يحيط بهم حشد كبير من المواطنين المشوَّشِين بملابسهم القَذِرَة وحالتهم المثيرة للشفقة، كان أكثرهم يسأل عن أقاربهم الذين افتقدوهم، أخذ الأب «كلينزوغر» استمارة المطالبة وملأها بالمعلومات المطلوبة وسلَّمها، ثم خرج يمشي قاطعًا وسط المدينة متجهًا إلى «ناغاتسوكا»، وبينما هو يمشي أدرك حجم الدمار الذي وقع، فقد كان يجتاز خربةً ليمر على أخرى، ومع كل ما رآه في المتنزَّه من قبل، فما رآه اليوم كان كافيًا أن يسرق أنفاسه، وحين وصل إلى الدير كان مرهقًا تمامًا، وكان آخر شيء فعله قبل أن يسقط على فراشه طلبه أن يعود أحدهم لأخذ أطفال «كاتاوكا» الذين فقدوا أمهم من المتنزَّه.

* * *

ظلت الآنسة «ساساكي» ليومين وليلتين تحت ذاك السقف المعدني، بساقها المسحوقة، ورفقتها غير السارَّة، ومن غير أن يجيء أحد لمساعدتها، مصدر الإلهاء الوحيد كان لحظة قدوم

عدد من الرجال لملجأ المصنع، كانت تنظر إليهم من زاوية ملجئها الخاص وهم يستخرجون بعض الجثث بواسطة بعض الحبال، نظرت إلى ساقها، فرأت أنها أَضْحَتْ منتفخة، متغيِّرة اللون، وتصدر منها رائحة كريهة، مضى عليها الوقت هناك دون طعام أو ماء.

وفي اليوم الثالث، الثامن من أغسطس، أقبل بعض الأصدقاء على المصنع متوهِّمين أنها قد ماتت، بحثًا عن جثتها، ليجدوها حيةً تُرزق، أخبروها بأن والدتها ووالدها وشقيقها الصغير كانوا بمستشفى «تامورا» للأطفال لحظة انفجار القنبلة، وأنهم بالتأكيد قد قُتِلُوا جميعًا، فقد دُمِّر المستشفى تمامًا، تركها أصدقاؤها قليلاً لتستوعب الخبر الذي نزل عليها للتَّوِّ.

وفي وقت لاحق حملها بعض الرجال من ذراعيها وساقيها لمسافة بعيدة ليضعوها في شاحنة بعد ذلك، انطلقت الشاحنة في طريق وَعِرَة لمدة ساعة، واكتشفت الآنسة «ساساكي» في ذلك الطريق أنها كانت واهمة حين ظنَّت أنها فقدت الإحساس بالألم، فها هي تُحِسُّ بوقعه الآن، وحين توقفت الشاحنة رفعها الرجال وحملوها إلى محطة إغاثة في مقاطعة «إنوكوتشي» حيث فحصها طبيبان عسكريان هناك، وفي اللحظة التي لمس أحدهما جرحها أغمي عليها، استعادت وعيها لتجدهما يتحدثان في شأنها، وإن كان يتعيَّن عليهما قطع ساقها أو لا، أحدهما كان يقول بأنها مصابة بغرغرينا غازية، وأنهما إن لم يبترَا الساق فستموت حتمًا، قال الطبيب الآخر: يبدو هذا مؤسفًا؛ إذ لم يملكَا الأدوات اللازمة لإجراء العملية.

أغمي عليها مرة أخرى، وحين استيقظت هذه المرة كانت محمولة على نقَّالة ويتم نقلها لمكان آخر، وُضِعَت على متن سفينة ذهبت بها إلى جزيرة قريبة تعرف بـ«نينوشيما»، وعلى الجزيرة تم نقلها إلى مستشفى عسكري واقع على تلك الجزيرة، وهناك فحصها طبيب آخر، ليبشرها بأنها لا تعاني من الغرغرينا الغازية، وإن كانت تعاني من كسور مضاعفة شنيعة إلى حد ما، قال لها بلغة لا تخلو من البرود بأنه آسف، لكن يتحتَّم عليها العودة إلى هيروشيما في تلك الليلة؛ إذ كان هذا المستشفى مخصَّصًا للعمليات الجراحية فقط، وأنها كانت في عافية من الغرغرينا، ولكن ما شاهده على الترمومتر حين فحص درجة حرارتها جعله يقرِّر السماح لها بالبقاء.

* * *

في ذات اليوم، الثامن من أغسطس، ذهب الأب «شيسلِك» إلى المدينة بحثًا عن السيد «فوكاي» سكرتير الأبرشية، الذي خرج من المدينة المحترقة على ظهر الأب «كلينزوغر»، ليعود إليها ركضًا في نوبة جنون، بدأ الأب «شيسلِك» رحلة البحث في حي جسر «ساكاي»، حيث كان آخر عهدهم به، ليذهب بعدها إلى ميدان الشرق، والذي كان منطقة إخلاء، فمن المحتمل أن الرجل قد ذهب إليها محتميًا بها، بحث عنه بين الجرحى والقتلى ولم يجده، فذهب إلى شرطة المحافظة وقيَّد بلاغًا عنه، لم يكن بوسعه أن يجد أثرًا للرجل، أما في دير الرهبان فقد أخبر طالب البعثة ـ والذي كان يسكن مع السيد «فوكاي» في نفس الغرفة ـ

بقيةَ القساوسة بأن السيد «فوكاي» حدَّثه مرةً أثناء إنذار من غارة جوية غير بعيدة «بأن اليابان تموت، وأنه إن وقعت غارة جوية هنا في هيروشيما فإني أرغب أن أموت مع بلدي». توصَّل القساوسة إلى قناعة بأن السيد «فوكاي» إنما ركض عائدًا ليضحِّي بنفسه في تلك النيران الملتهبة، لقد كان ذلك آخر العهد به.

* * *

في مستشفى الصليب الأحمر كان الدكتور «ساساكي» مستمراً في العمل لثلاثة أيام متواصلة، باستثناء ساعة واحدة فقط قضاها في النوم، كان في يومه الثاني مشغولاً بخياطة الجروح السيئة، وظلَّ كذلك طيلة الليل، وحتى صباح اليوم التالي، لقد كانت كثير من تلك الجراح متقرِّحةً، ولكن لحسن الحظ وجد أحدهم كمية لم تُمَسّ من أحد المسكِّنات اليابانية التي تسمى «ناروكوبون»، فكان الطبيب يعطِي ذلك المسكن لعدد من المرضى لتخفيف آلامهم.

كان العاملون في المستشفى يتداولون فيما بينهم أن شيئًا غريبًا يميِّز هذه القنبلة العظيمة عن غيرها، فقد ذهب نائب رئيس المستشفى في اليوم الثاني إلى قَبْوِ المستشفى حيث كانت تُخَزَّن ألواح الأشعة السينية ليجدها جميعًا تالفةً بعد تعرضها لإشعاع وهي مستقرة في مكانها.

في ذلك اليوم حَظِيَ المستشفى بطبيب جديد وعشر ممرِّضات من مدينة «ياماغوتشي»، مصطحِبين معهم ضمادات ومطهِّرات إضافية، وفي اليوم الثالث جاء طبيب آخر، وعدد من

الممرِّضات من «ماتسو»، لكن العدد لم يكن كافيًا، حيث كان هناك ثمانية أطباء فقط لمعالجة أكثر من عشرة آلاف مريض.

ومع مجيء اليوم الثالث أصبح الدكتور «ساساكي» منهكًا تمامًا من عمليات الخياطة الرديئة التي يقوم بها، وظلَّت فكرة أن والدته تظن أنه ميت تُلِحُّ عليه حتى صار مهووسًا بها، حصل على إذن بالذهاب إلى «موكايهارا»، وفعلاً خرج إلى الضواحي القريبة، ومنها انطلق بخدمة قطارٍ كهربائيٍّ لا زال يعمل، حتى وصل إلى منزله في وقت متأخِّر من ذلك المساء، وهناك أخبرته والدته بأنها كانت تعرف أنه بخير طيلة الوقت، فقد زارتها إحدى الممرِّضات ممن أُصِبْنَ وبشَّرتها بذلك، ذهب إلى سريره وغطَّ في نومٍ عميق لسبع عشرة ساعة متواصلة.

* * *

قبل فجر يوم الثامن من أغسطس دخل أحدهم غرفة الدير حيث كان يرقد الأب «كلينزوغر» في السرير، ورفع يده إلى مصباح كهربائي معلَّق وقام بتشغيله، سيل النور المفاجئ الذي انسكب على الأب «كلينزوغر» وهو نصف نائم أفزعه، وجعله يقفز من سريره، ويتَّخذ وضع الاستعداد لهزَّة جديدة، وعندما أدرك ما حدث ضحك بارتباك وعاد إلى السرير، ليمكث فيه طوال اليوم. لقد كان مرهقًا وظل كذلك طيلة اليوم التالي، التاسع من أغسطس. زاره رئيس الدير ونظر في جِرَاحه وقال له بأنها لم تكن بحاجة لتضميد حتى، وأنه إن أبقاها نظيفة فستلتئم في غضون ثلاثة أو أربعة أيام. كان الأب «كلينزوغر» يشعر بعدم الارتياح،

وكان غير قادر على استيعاب ما جرى له، وكأنه كان مسؤولاً عن شيء فظيع، وشعر أنه يتعيَّن عليه العودة مرة أخرى إلى مسرح العنف الذي عانى فيه.

نهض من سريره، ومشى إلى المدينة، وهناك ظلَّ ينقب في بقايا منزل البعثة لبعض الوقت، ولكنه لم يجد شيئًا، ذهب بعدها إلى عدة مدارس، وسأل عن أناس كان يعرفهم، كما بحث عن عدد من اليابانيين الكاثوليك، ولكنه لم يجد إلَّا بقايا بيوت متهدِّمة، وعاد أدراجه إلى الدير مصدومًا مما رأى، ومن غير فَهْمٍ جديد لِمَا جرى.

❊ ❊ ❊

بعد دقيقتين من الساعة الحادية عشرة من صباح يوم التاسع من أغسطس أُلْقِيَت القنبلة الذرية الثانية على مدينة «ناغازاكي»، لم يعلم الناجُون بهيروشيما يومها بأن لهم شركاء في الكارثة؛ بل لم يعلموا بما جرى إلا بعد عدة أيام، فقد كانت الإذاعة والصحافة اليابانية شديدة التكتُّم على كل ما يتصل بشأن ذلك السلاح الغريب.

❊ ❊ ❊

وفي التاسع من أغسطس كان السيد «تانيموتو» لا يزال يعمل في المتنزَّه، ذهب إلى ضاحية «أوشيدا»، حيث كانت زوجته تقيم مع بعض الأصدقاء، واصطحب معه عائدًا منها خيمةً كان قد خزنها هناك قبل الانفجار، وحين وصل للمتنزَّه قام بنصب تلك

الخيمة، وهيَّأها كملجأ لبعض الجرحى ممن كان عاجزًا عن التحرُّك، أو يتعذَّر نقلهم من المكان.

ومع كل خطوة كان يخطوها في المتنزَّه، أو عمل يعمله، كان يشعر بنظرات جارته السابقة السيدة «كاماي»، الفتاة البالغة من العمر عشرين عامًا، تلاحقه، وهي الفتاة التي رآها يوم انفجار القنبلة حاملة ابنتها الرضيعة بين يديها، ظلت متشبِّثة بتلك الجثة الصغيرة في ذراعيها لمدة أربعة أيام، بالرغم من الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث منها في اليوم الثاني.

جلس السيد «تانيموتو» معها لبعض الوقت، لتخبره بقصَّتها، وكيف أن القنبلة دفنتها تحت المنزل، وأن طفلتها كانت مشدودة إلى ظهرها، وأنها حين استطاعت أن تحرِّر نفسها بالحفر اكتشفت أن الطفلة كانت تختنق، وأن فمها كان مليئًا بالتراب، وكيف أنها بادرت إلى تنظيف فم الصغيرة بعناية بأصبعها الصغير، لتعاوِد التنفُّس مجددًا على نحو طبيعي، وبَدَا كل شيء مطمئنًا، لكنها فجأة توقَّفت عن التنفس وماتت، تحدَّثت أيضًا عن زوجها بثناء عَطِر، وكيف أنه رجل طيب، وألحَّت عليه ثانيةً للبحث عنه.

كان السيد «تانيموتو» قد تنقَّل في مختلف أرجاء المدينة في اليوم الأول، ورأى الإصابات والحروق البشعة التي لحقت بالجنود في المركز الذي كان «كاماي» يتبعه، وفي كل مكان أيضًا، كان يعلم أن العثور على الزوج ضَرْبٌ من الخيال حتى لو كان حيًّا، لكنه بطبيعة الحال لم يصارحها بما كان يَجِيشُ في خاطره.

ظلَّت في كل مرة ترى فيها السيد «تانيموتو» تسأله إن كان قد وجد زوجها بعدُ أم لا، حاوَل لمرة واحدة أن يشير عليها بأنه ربما حان الوقت لحرق جثمان الطفلة، لكن السيدة «كاماي» تشبَّثت بها أكثر، وضمَّتها إلى صدرها بإحكام، حاول أن يُبْعِد نفسه عنها، لكن في كل مرة تتلقي فيها عيونهما كان يجد فيهما ذات السؤال: هل وجدت زوجي؟ حاوَل أن يتجنَّب نظراتها بتوليتها ظهره قدر المستطاع.

* * *

حمل اليسوعيون معهم حوالي خمسين لاجئًا إلى كنيستهم الفخمة عند الدير، وهناك قدَّم رئيس الدير لهم ما كان يقدر عليه من رعاية طبية، والتي لم تتجاوز في غالب الأحوال مجرَّد تنظيف جراحهم مما بها من صديد.

وقُدِّم لكل فرد من عائلة «ناكامورا» بطانية وناموسية، كانت السيدة «ناكامورا» وابنتها الصغرى فاقدة للشهية، واعتذرَا عن أكل أي وجبةٍ قُدِّمَت إليهما، فيما أقبل الابن والبنت الأخرى على الطعام يأكلان.

وفي العاشر من أغسطس جاءتهم صديقة العائلة السيدة «أوساكي» زائرةً، وأخبرتهم بأن ابنها «هيديو» قد مات حرقًا في المصنع الذي كان يعمل فيه، كان «هيديو» بطلاً في عين الصغير «توشيو»، والذي كان كثيرًا ما يذهب إلى المصنع لمشاهدته وهو يعمل على آلته هناك.

في تلك الليلة استيقظ «توشيو» من نومه مذعورًا يصرخ، لقد رأى في منامه السيدة «أوساكي» تخرج من فتحة من الأرض مع عائلتها، ثم رأى «هيديو» وهو يعمل على آلته، كانت الآلة كبيرة، ولها حزام دوَّار، ولسببٍ ما كانت رؤياه هذه مبعث رعب بالنسبة إليه.

* * *

في العاشر من أغسطس سمع الأب «كلينزوغر» من شخص ما أن الدكتور «فوجي» كان مصابًا، وأنه كان ينزل حاليًا في منزل صديق له يدعى «أوكوما» في بلدة «فوكاوا»، فطلب من الأب «شيسلِك» إن كان في مقدوره أن يذهب لزيارة الدكتور «فوجي»، والاطمئنان على صحته، ذهب الأب «شيسلِك» إلى محطة «مي ـ ساسا» خارج هيروشيما، وركب قطارًا كهربائيًّا لمدة عشرين دقيقة، ثم مشى لمدة ساعة ونصف تحت الشمس اللاهبة إلى منزل السيد «أوكوما»، والواقع بجوار نهر «أوتا» عند سفح جبل.

وهناك وجد الدكتور «فوجي» جالسًا على كرسي مرتديًا كيمونو، وقد وضع بعض الكمادات على ترقوته المكسورة، قال للأب «شيسلِك» بأنه قد فَقَدَ نظارته، وأنه من يومها وهو متضايق من عينيه، ثم كشف عن جزء من جسده ليري القس أثر الرضوض التي خلَّفها ضغط الجذعين على صدره، لقد كانت تبدو كشرائط ضخمة ملوَّنة، زرقاء وخضراء ممتدة على صدره.

عرض على القس سيجارة ثم بعض الويسكي، ومع أن الوقت لا زال مبكرًا على الشراب؛ إذ لم تتجاوز الساعة الحادية

عشرة ظهرًا، فقد اعتقد الأب «شيسلِك» بأنه لو تناول القليل منها فسيفرح الدكتور «فوجي»، ولذا قَبِلَ عرضه، جلب الخادم بعض الويسكي من نوع «سنتوري»، ودخل القس والدكتور والمضيف في حديث ممتع جدًّا.

كان السيد «أوكوما» قد عاش في هاواي مدةً، فحدَّثهم عن بعض الأمور عن الأمريكان، أما الدكتور «فوجي» فتحدث قليلاً عن الكارثة، وقال: إن السيد «أوكوما» وإحدى الممرِّضات قد ذهبا إلى أنقاض المستشفى وجلبَا معهما خزانة حديدية صغيرة كان قد وضعها في ملجأ المستشفى، كانت تحتوي على بعض أدوات الجراحة، وناول الدكتور «فوجي» الأب «شيسلِك» عددًا من المقصَّات والملاقط لإيصالها لرئيس الدير علَّه يستفيد منها.

كان الأب «شيسلِك» يمتلك بعض المعلومات الخاصة المتعلقة بالانفجار، ويكاد ينفجر متحدثًا بها، لكنه آثَرَ إتيان اللحظة المناسبة لها أثناء الحديث، والتي جاءت بطبيعة الحال حين وصل الحديث إلى لغز القنبلة، فأخبرهم بأنه يعلم أيَّ نوعٍ من القنابل تلك التي أُلْقِيَتْ، وأن لديه معلومات من مصدر موثوقٍ جدًّا، حيث زارهم صحفي ياباني في الدير. قال لهم بأن القنبلة لم تكن في الحقيقة قنبلة أصلاً؛ بل كانت نوعًا مميزًا من مسحوق المغنيزيوم تم رَشُّها على كامل المدينة بطائرة واحدة، وأنها اشتعلت لحظة ما مَسَّت الأسلاك الكهربائية الحية للمدينة.

فقال الدكتور «فوجي» والذي بَدَا راضيًا تمامًا عن هذا التفسير، خاصةً وأن مصدر المعلومة صحفي: «هذا يعني أن هذه

المادة لا يمكن إلقاؤها إلا على المدن الكبيرة، وفي النهار فقط، حين تكون خطوط الترام وغيرها شغَّالة».

* * *

في الحادي عشر من أغسطس، ولمدة خمسة أيام قضاها السيد «تانيموتو» في إسعاف الجرحى في المتنزَّه، عاد إلى منزله المنهار، وبدأ ينبش في أنقاضه، وجد بعضًا من سجلات الكنيسة، ومذكرة يومياته، والتي خبَّأها في عدد من الكتب، كانت حوافها فقط محترقة، كما وجد أيضًا بعض أدوات الطبخ والفخار.

وأثناء عمله هذا جاءته الآنسة «تاناكا»، وأبلغته أن والدها يطلبه، كان لدى السيد «تانيموتو» ما يدعوه إلى كراهية والدها المتقاعد من شركة الشحن؛ فبالرغم من سيل التبرُّعات التي قدَّمها، والتي لم تكن خالية من مراءاةٍ، فقد كان معروفًا أيضًا بأنانيته وقسوته، وقبل أيام قليلة فقط كان يتحدث على نحو مكشوف بأن السيد «تانيموتو» جاسوس للأمريكان، كما سَخِرَ في مناسبات متعدِّدة من النصرانية، ووصفها بأنها غير متوافقة مع القيم اليابانية.

في لحظة الانفجار كان السيد «تاناكا» يمشي في شارع في مقابل محطة إذاعة المدينة؛ فأُصِيبَ لحظتها بحروق خطيرة نتيجة لفحات القنبلة الحارقة، لكنه مع ذلك كان قادرًا على المشي إلى منزله. لجأ إلى مأوى جمعية الحي، ومن هناك حاول جاهدًا أن يحصل على رعاية طبية، كان يظن أن جميع الأطباء في هيروشيما

سيهبُّون لمساعدته؛ فقد كان غنيًّا جدًّا، ومشهورًا أيضًا بسخائه، وتوزيعه للأموال، وحين لم يأتِه أحد منهم خرج مغضبًا للبحث عنهم. مشى من مستشفى خاص إلى مستشفى خاص متكئًا على ذراع ابنته، ولكنه وجدها جميعًا مدمَّرةً، فعاد أدراجه إلى الملجأ مرة أخرى.

كان ضعيفًا جدًّا، ومدركًا أنه على مشارف الموت، وكان مستعدًّا لنيل جرعةِ مواساةٍ وطمأنةٍ من أي دين، ولذا ذهب السيد «تانيموتو» ليبذلها له.

نزل إلى ملجأ شبيه بالقبور، وعندما تكيَّفت عيناه مع الظلام رأى السيد «تاناكا»، كان وجهه وذراعاه منتفخةً ومغطاةً بالقيح والدم، وعيناه مغلقتان من شدة تورُّمهما، كانت رائحة هذا الكهل مُنْتِنَة، وكان يَئِنُّ باستمرار، بَدَا أنه قد تعرَّف على صوت السيد «تانيموتو»، وأثناء وقوفه على درج المأوى لينال بعض الضوء تلا السيد «تانيموتو» بصوت عالٍ من نسخة جيب من الكتاب المقدس باللغة اليابانية:

«فإنَّ ألف سنةٍ في عينيك كيومِ أمس العابر، أو مثل هزيعٍ من الليل.

تجرفُ البشر كما يجْرُفُهُمُ الطُّوفان، فيزُولُون كالحلم عند الصَّبَاح مثل العُشْب الذي ينمو.

يُزْهرُ في الصباح وينمو، وفي المساء يُقْطَعُ ويَجِفُّ.

إنَّ غضبك قد أفنانا، وسخطك قد روَّعَنا.

جَعلتَ آثامنا أمامك وخطايانا الخفيَّة ظاهرةً لديك.

لأنَّ أيامنا كُلَّها تنقضي في غضبك الشَّديد، وأعوامنا تتلاشى كزفرة»[1].

وهنا توفي السيد «تاناكا» أثناء تلاوة السيد «تانيموتو» للمزمور.

* * *

في الحادي عشر من أغسطس وردت أنباء لمستشفى «نينوشيما» العسكري بأن عددًا كبيرًا من جرحى مَقَرِّ قيادة الجيش الإقليمي بشوغوكو سيصلون إلى الجزيرة في ذلك اليوم، وأنه يتعيَّن إخلاء جميع المرضى المدنيين من المستشفى، ومع ما كانت تعانيه الآنسة «ساساكي» من حرارة مرتفعة على نحو مخيف فقد وُضِعَت على متن سفينة كبيرة. كانت ممدَّدة على سطح السفينة، وساقها موضوعة فوق وسادة، ولم تستفد كثيرًا من المظلَّات المنتشرة حولها على السطح، إذ أن مسار السفينة جعلها عرضةً لأشعة الشمس، لقد كانت تشعر وكأن عدسة مكبِّرة قد سُلِّطَتْ عليها لتزيد من ضراوة الشمس الملتهبة، وكان جرحها يتفجَّر بالقيح والصديد، وسريعًا ما تلوَّثت الوسادة كلها بذلك الصديد.

أُخِذَت إلى شاطئ «هاتسوكايتشي»؛ بلدة تقع عدة أميال في

---

(١) آثرت نقل ترجمة نص المزمور من ترجمة «كتاب الحياة» للكتاب المقدس، وهي ترجمة حديثة، تدخل في جنس الترجمات التفسيرية التي تهتم بالمعنى أكثر من ملاحقة الصياغات العبرية البعيدة عن روح اللسان العربي، وهي معلومة استفدتها من الصديق الدكتور سامي عامري سلمه الله المختص في دراسات الكتاب المقدس.

الجنوب الغربي من هيروشيما، وتُرِكَت هناك في مدرسة إلهة الرحمة الابتدائية، والتي حُوِّلَت إلى مستشفى، مكثت هناك لعدة أيام قبل مجيء مختص في الكسور من «كوب»، وحين وصل إليها كانت ساقها حمراء منتفخة حتى وركها، فحص الطبيب ساقها، وقرَّر أنه ليس في إمكانه معالجة الكسور، لكنه شق جرحًا في الساق ووضع فيه أنبوبًا مطاطيًّا ليستخرج العفونة.

* * *

كان طفلَا «كاتاوكا» ـ اللذان فقدَا أمهمَا في معمعة الأحداث ـ موجودَيْنِ في دير الرهبان محطَّمَيِ الفؤاد، وفي حالة تثير الشفقة، حاوَل الأب «شيسلِك» جاهدًا أن يُلْهِيَهُمَا ويشغلهما ببعض الألغاز، فكان يسألهما: «ما هو أذكى حيوان في العالم؟»، وبعد أن خمَّنت ذات الثلاث عشرة سنة قائمة من الحيوانات؛ القرد، والفيل، والحصان، قال: «لا، لا، إنه حتمًا فرس النهر»، كان يُداعبها فقط؛ إذ كان فرس النهر يسمَّى باليابانية «كابا»، عكس كلمة «باكا» والتي تعني غبي. قصَّ عليهما قصصًا توراتية، مبتدئًا بترتيب الأشياء في الخليقة، كما أراهما أيضًا ألبوم صور التُقِطَتْ في أوروبا. ومع كل محاولاته لإشغالهما إلا أنهما كانَا يقضيان غالب وقتهما في بكاء أمهما الغائبة.

بعد عدة أيام حاول الأب «شيسلِك» البحث عن أسرة الطفلين، عَلِمَ أولاً عن طريق الشرطة أن أحد أخوالهما جاء للسلطات في «كور» ـ وهي مدينة لا تَبْعُد كثيرًا ـ وسأل عنهما، بعد ذلك سمع أن أخاهما الأكبر كان يبحث عنهما من خلال

مركز «أوجيني»؛ إحدى ضواحي هيروشيما، ولاحقًا سمع أن الأم لا زالت على قيد الحياة، وأنها موجودة على جزيرة «غوكو» قريبًا من «ناغازاكي»، وأخيرًا وبعد رحلة بحث طويلة استطاع من خلال مركز «أوجيني» أن يتصل بالأخ الأكبر وسلَّم الطفلين له، ليلتحقَا بأمهما بعد ذلك.

❊ ❊ ❊

بعد نحو أسبوع تقريبًا من إلقاء القنبلة انتشرت شائعة مبهمة غريبة؛ شائعة تستعصي على الفهم في نواحي هيروشيما، مفاد هذه الشائعة أن المدينة قد تم تدميرها بواسطة إطلاق طاقة ما عند شَطْر الذرة بطريقة ما إلى جزأين، كان الناس يشيرون إلى السلاح في حديثهم الشفاهي بقولهم «غنشي باكودان»، والتي يمكن ترجمتها إلى «قنبلة الطفل الأصلية»، لم يفهم أحد الموضوع، أو يُعْطِ الخبر مصداقية زائدة، إلا بالقدر الذي أَعْطَوْهُ لخبر مسحوق المغنيزيوم، أو غيرها من الشائعات.

كانت الصحف تُسْتَجْلَب للمدينة من المدن الأخرى، لكنها كانت تقتصر في تصريحاتها على مجرَّد ذِكْر العمومات؛ كتأكيد صحيفة «دومي» مثلاً، والذي نشر في الثاني عشر من أغسطس: «ليس هناك شيء يمكن فعله إلا الاعتراف بهذه القوة الهائلة غير الإنسانية»، وأثناء ذلك كان علماء الفيزياء اليابانيون يجوسون خلال المدينة حاملين معهم أجهزة كشف الإشعاع، والشحنات الكهربائية، لقد عرفوا تمامًا ما جرى.

❊ ❊ ❊

في الثاني عشر من أغسطس ذهبت السيدة «ناكامورا» بأطفالها إلى بلدة قريبة تدعى «كابي»؛ ليمكثوا هناك عند أخت زوجها، وكانوا جميعًا لا يزالون يعانون من المرض، وفي اليوم التالي، ومع ما كانت تعانيه السيدة «ناكامورا» من مرض شديد يكاد يمنعها من المشي، إلا أنها استقلَّت مقطورة كهربائية أوصلتها إلى ضواحي هيروشيما، ومن هناك دخلت المدينة مشيًا على القدمين، كانت قَلِقَة طيلة الأسبوع على والدتها وأخيها وأختها الأكبر سنًّا، والتي كانت تعيش في حي «فوكورو»، وكانت منجذبة بطريقة غريبة للعودة إلى المدينة، تمامًا كالحالة التي عرضت للأب «كلينزوغر».

لقد اكتشفت هناك أن أسرتها جميعًا قد رحلوا من الدنيا، وانضموا لقافلة الأموات، عادت مرةً أخرى إلى «كابي» تصطرع في نفسها مشاعر الدهشة والاكتئاب مما رأته وعرفته في المدينة، وظلَّت عاجزة عن الكلام طيلة المساء.

* * *

بدأ النظام يعود نسبيًّا إلى مستشفى الصليب الأحمر، ومعه عاد الدكتور «ساساكي» من راحته القصيرة لمعاودة عمله، ابتدأ ذلك بإعادة فَرْز مرضاه، والذين كانوا لا يزالون مُوَزَّعِينَ في أنحاء المستشفى، حتى أن بعضهم لا زال يرقد على السلالم، كان الطاقم العامل بالمستشفى يزيل الركام المتناثر في كل مكان تدريجيًّا، وأفضل من ذلك بَدْء الممرِّضات والمرافقين عمليات إزالة الجثث من أروقة المستشفى.

وتُعَدُّ عملية التخلُّص من جثث القتلى بحرقها بطريقة لائقة وتقديسها عند اليابانيين مسؤولية أخلاقية تفوق في أهميتها تقديم رعاية مناسبة للأحياء، استطاع قرابات الموتى تحديد هوية أمواتهم المنتشرين في المستشفى وحولها في معظم اليوم الأول، ومع بَدْء اليوم الثاني كانت تُثبت ورقة تحتوي على اسم الشخص على ملابسه إن ظهرت منه أمارات الاحتضار.

قام المسؤول عن جُثَث الموتى بنقل الجثث إلى أرض خالية في الخارج، وهناك تم وضعها على أكوام من الحطب، والذي أُخِذَت من المنازل المتهدِّمة بالجوار، ثم أشعلت فيها النيران، ووُضِعَ بعض الرماد في مظاريف كانت مخصَّصة لأفلام الأشعة السينية، ثم قيِّد على كل ظرف اسم القتيل، وتم تكديسها فوق بعضها بطريقة مرتبة وباحترام في رُزَم بالمكتب الرئيسي، وفي غضون أيام قليلة امتلأ جانب ذلك المكتب كاملاً بالمظاريف مشكِّلاً ما يشبه ضريحًا عفويًّا مرتجلاً.

* * *

في يوم الخامس عشر من أغسطس، في مدينة «كابي»، سمع «توشيو ناكامورا»، صاحب العشر سنوات، صوت هدير طائرة تمر من فوقه، فركض إلى الخارج، وبعين خبير استطاع أن يتعرَّف عليها، كانت بي ـ ٢٩، صاح: «ها هو السيد بي يذهب راحلًا»، ناداه أحد قراباته قائلًا: «ألم تشبع من السيد بي؟»، لقد كان سؤالًا يحمل في طياته بُعْدًا رمزيًّا.

في تلك اللحظة تقريبًا كان هناك صوت باهت يائس يتسلَّل

للآذان عبر أثير الإذاعة، لقد كان صوت الإمبراطور «تينّو» متحدثًا لأول مرة في التاريخ عبر الإذاعة، قائلًا: «بعد تفكير عميق في النزاعات العالمية، والظروف الفعلية الْمُحْدِقَة بإمبراطوريتنا اليوم، قرَّرنا إجراء تسوية بخصوص الوضع الحالي، وذلك باللجوء إلى إجراء استثنائي».

كانت السيدة «ناكامورا» قد ذهبت للمدينة مرةً أخرى من أجل أن تستخرج بعض الأرز الذي كانت قد دفنته في ملجأ جمعية الحي الخاصة بها، استخرجته وعادت أدراجها إلى «كابي»، وفي أثناء عودتها في مقطورة كهربائية قابلت صدفةً أختها الصغرى، والتي لم تكن بهيروشيما يوم الانفجار.

سألتها شقيقتها: «هل سمعت الخبر؟».

«أي خبر؟».

«لقد انتهت الحرب».

«أختي، لا تتفوَّهي بشيء أحمق كهذا».

«لكني سمعته من الإذاعة»، ثم أضافت وهي تهمس: «لقد كان بصوت الإمبراطور».

«أوه، في هذه الحالة...».

كان هذا الخبر كافيًا للسيدة «ناكامورا» للتخلِّي عن أي فكرة بأنه في إمكان اليابان أن تنتصر بالحرب، بالرغم مما عاينته من تأثير القنبلة الذرية.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم كتب السيد «تانيموتو» رسالة إلى أحد الأمريكان يصف فيها أحداث ذلك الصباح.

«في زمن ما بعد الحرب وقع حدث تاريخي رائع، لقد تحدَّث الإمبراطور بنفسه عبر الإذاعة لنا، نحن عامة الشعب الياباني، لقد قيل لنا أنه في الخامس عشر من أغسطس سيُذَاع خبر في غاية الأهمية، وأن علينا الاستماع إليه، ولذا فقد ذهبتُ إلى محطة سكة الحديد الخاصة بهيروشيما، حيث وُضِعَتْ سماعة كبيرة بين أنقاض المحطة، كان هناك العديد من المدنيين بأربطتهم وضماداتهم، بعضهم كان معتمدًا على أكتاف بناتهم، وبعضهم متكئًا على عُكَّازات، وقفوا جميعًا يستمعون إلى الإذاعة، وحين أدركوا أنهم يستمعون لصوت الإمبراطور، بدأت عيونهم تتحدَّر بالدموع، وأخذوا يبكون: «أي شرف هذا، وأي نعمة أن يتفضَّل «تينّو» بنفسه في محادثتنا، وأن نستمع إلى صوته شخصيًّا، نحن مُمْتَنُّونَ للغاية من هذه التضحية العظيمة»، وعندما علموا أن الحرب قد انتهت، وأن اليابان قد هُزِمَتْ، أُصِيبُوا بطبيعة الحال بخيبة أمل شديدة، لكنهم التزموا وصية الإمبراطور بروح هادئة، وتضحية كاملة نابعة من القلوب لأجل تحقيق سلام دائم يَعُمُّ العالم، وبدأت اليابان تمضي في طريقها الجديد».

الفصل الرابع

حشائش الثُّمَام وزهر الأُقْحُوَان

في الثامن عشر من أغسطس، وبعد اثني عشر يومًا من انفجار القنبلة ذهب الأب «كلينزوغر» من الدير إلى هيروشيما سيرًا على الأقدام حاملًا معه حقيبته. لقد بدأ يتسرَّب إليه شعورٌ بأن تلك الحقيبة التي تحفظ أشياءه الثمينة لها قوة طلسمية ما، وذلك بسبب الهيئة التي وجدها عليها بعد الانفجار، منتصبةً عند مدخل الحجرة، ومقبضها للأعلى، في الوقت الذي تحوَّل المكتب الذي كانت تختبئ تحته إلى شظايا مبعثرة على الأرض.

كان يحمل فيها الآن بعض المال التابع لفرع الجمعية اليسوعية في هيروشيما من أجل إيداعه في بنك «يوكوهاما»، والذي فتح أبوابه مجدَّدًا في مبناه المدمَّر جزئيًّا.

وبشكل عام، فقد كان يشعر بصحة جيدة جدًّا في صباح ذلك اليوم، صحيحٌ أن جروحه الطفيفة لم تلتئم تمامًا في ثلاثة أو أربعة أيام، كما وعد رئيس الدير بعد أن فحصها في وقت سابق، لكنه أخذ حِصَّة جيدة من الراحة لأسبوع كامل، وبَدَا أنه صار قادرًا على العمل الشاق مرة أخرى.

لقد أضحى الآن معتادًا على هذا المشهد الْمُرَوِّع الذي كان يَرَاهُ أثناء سيره نحو المدينة، مشهد حقل الأرز الكبير، القريب من الدير، والذي احترق بالكامل، ومنظر المنازل الممتدَّة على طول ضواحي المدينة، واقفةً بالية ومتهالكة، بنوافذها وأبوابها المهشَّمة، وبلاطها المتناثِر، ليعقب المشهد وعلى نحو مفاجئ أرضٌ قاحلةٌ على امتداد ستة كيلومترات، وكأنما هي جرحٌ أُصِيبَتْ به الأرض، أو نُدبة بُنِّيَّةٌ محمرةٌ بارزة على السطح، لقد احترق فيها كل شيء، وتم دَكُّه بالأرض، شاهدَ أحياءً على إِثْر أحياء، وقد استحالت إلى أنقاض، ورأى لوحات منصوبة هنا وهناك على تلال من الرماد والقِرْمِيد مكتوبًا فيها: «أين أنتِ يا أختي؟»، أو: «جميعنا بخير، ونحن نعيش في تويوساكا»، أشجار عارية وأعمدة هاتف مائلة، وبقية باقية من المباني القليلة، والتي ظلَّت منتصبة لتعزِّز مشهد الدمار من حولها، والذي سُوِّيَ فيه كل شيء بالأرض، فصارت قاعًا صَفْصَفًا.

كان من بين تلك المباني القليلة الصامدة متحف العلوم والصناعة بقُبَّتِه الكبيرة، والذي جُرِّدَ تمامًا من كل شيء إلا من بقايا هيكله المعدني، فبَدَا كجُثَّةٍ على طاولة تشريح، وكذلك صمد مبنى الغرفة التجارية الجديد ببُرْجِه الذي ظلَّ كما كان قبل الضربة باردًا وجامدًا ومنيعًا، وها هو مبنى البلدية الضخم المتطامِن إلى الأرض باقٍ في مكانه، بالإضافة إلى صَفٍّ من البنوك الرَّثَّة القديمة، وكأنها ترسم لوحة كاريكاتيرية لنظام اقتصادي مهزوز، أما الشوارع فكانت مُكْتَظَّة بمئات من الدرَّاجات المهترئة، وبقايا عربات الترام

والسيارات، والتي بَدَتْ وكأنها قد توقَّفت فجأة في منتصف سيرها، كان مشهدًا مُرَوِّعًا لزحامٍ مروري تقشعر منه الأبدان.

كانت مشاعر القهر تعتمل في نفس الأب «كلينزوغر» طيلة الطريق، وذلك من فكرة أن جميع هذا الدمار الذي يراه قد وقع جميعًا في لحظة واحدة، وبفعل قنبلة واحدة.

وحين وصل إلى وسط المدينة أضحى النهار حارًّا جدًّا، مشى إلى بنك «يوكوهاما»، والذي كان يعمل من كشك خشبي مؤقَّت موضوع في الطابق الأرضي من بقايا مبنى البنك المهدَّم. أَوْدَع ما معه من مال، ثم ذهب إلى مجمع البعثة لإلقاء نظرة على الحطام فقط، ليعود بعدها إلى دير الرهبان، وفي منتصف الطريق تقريبًا شعر بإحساس غريب؛ فحقيبته السحريَّة، والتي أصبحت فارغة الآن، بَدَت فجأة وعلى نحوٍ غريب ثقيلة بشكل رهيب، وبدأ الضعف يدبُّ إلى ركبتيه، وبالكاد كانت قادرة الآن على حمله، وشعر بتعب لا يطاق، وبِشِقِّ الأنفس استطاع الوصول إلى الدير.

لم يظن حينها أن ما اعتراه من ضعف يستحق الذِّكْر لبقية اليسوعيين هناك، ولكن بعد بضعة أيام، وبينما كان يحاول أن يتلو القُدَّاس، شعر ببدايات إغماء، وبالرغم من محاولته المضي في القدَّاس ثلاث مرات بَدَا عاجزًا عن ذلك، وفي صباح اليوم التالي زاره رئيس الدير، وفحص جِرَاحه كما كان يفعل يوميًّا، ليسأله باستغراب وتعجُّب: «ماذا فعلت بجراحك؟»، لقد اتسعت فجأة، وصارت متورِّمة وملتهبة.

* * *

في صباح يوم العشرين من أغسطس، وبينما كانت السيدة «ناكامورا» ترتدي ملابسها في منزل أحمائها في «كابي»، والتي لا تبعد كثيرًا عن «ناغاتسوكا»، ومع أنها لم تكن تعاني من أي جروح أو حروق مطلقًا، وإنما غثيان استمر معها أسبوعًا كاملًا، فترةَ ضيافة الأب «كلينزوغر» وبقية القساوسة لها ولأطفالها في الدير، إلا أنها الآن وأثناء تمشيطها لشعرها لاحظت أمرًا غريبًا، فمع مشطتها الأولى وجدت قبضة كاملة من شعرها قد تعلَّقت بالمشط، أزاحته وعادت لتمشيطها مرة ثانية، ليحدث نفس الشيء، فتوقَّفت عن ذلك بالكلية.

ولكن في الأيام التالية استمرَّ شعرها في التساقط من تلقاء نفسه حتى أَضْحَتْ صلعاء تمامًا في غضون ثلاثة أو أربعة أيام، بدأت تُمْضِي وقتها كله في البيت، وتتجنَّب الخروج منه نهائيًّا، كانت في الحقيقة مختبئةً في هذه المدة ومتواريةً عن الأنظار.

وفي السادس والعشرين من أغسطس استيقظت هي وابنتها الصغرى «مِيَكُو» وهما تشعران بضعف وتعب شديدين، وبَقِيَتَا لأجل ذلك في فرشهما، أما ابنها وابنتها الأخرى فقد كانَا يشعران بالصحة والعافية، بالرغم من أنهما مرَّا بذات التجربة التي مرَّت بها الأم أثناء وبعد الانفجار.

* * *

في نفس الوقت تقريبًا فقدَ السيد «تانيموتو» إحساسه بمرور الأيام، كان يعمل بجدٍّ لترتيب مكان عبادة مؤقَّت في منزل خاص استأجره مؤخرًا في الضواحي الخارجية للمدينة، وفجأة سقط

مريضًا، كان يشعر باعتلال عام، وتعب شديد، وارتفاع في درجة الحرارة، فلازَم فراشه في بقايا منزل صديقه في ضاحية «أوشيدا».

لم يكن هؤلاء الأربعة يعلمون أنهم مصابون بذلك المرض الغريب المتقلِّب، والذي بات يُعْرَف لاحقًا بالتسمم الإشعاعي.

* * *

كانت الآنسة «ساساكي» مستلقيةً على ظهرها تعاني ألَمًا متواصلًا في مدرسة إلهة الرحمة الابتدائية في «هاتسوكايتشي»، والتي تمثِّل المحطة الرابعة لمسار القطار الكهربائي، والواقع إلى الجنوب الغربي من هيروشيما، كانت مصابةً بالتهاب داخلي، الأمر الذي منع من معالجة الكسر المضاعف بساقها من تحت الركبة.

كان معها في نفس المستشفى شابٌّ بَدَا وكأنه مُغْرَمٌ بها، بالرغم من انشغالها الدائم بمعاناتها، ولعله كان مشفقًا عليها فقط من تلك الأوجاع، أعارها ترجمةً يابانية لمجموعة قصصية لـ«دي ماوباسانت»، حاولت قراءة تلك القصص، لكنها كانت عاجزة عن التركيز لأكثر من خمس أو أربع دقائق.

كانت المستشفيات ومراكز الإسعاف في جميع أنحاء هيروشيما مزدحمة جدًّا في الأسابيع الأولى بعد الانفجار، وكان الطاقم العامل بها يتغيَّر باستمرار؛ إذ كانت أحوالهم الصحية تتقلَّب كثيرًا، والمساعدة التي تأتيهم من خارج المدينة لم تكن مُجَدْوَلَة بشكل واضح، بل كان أمر قدوم تلك المساعدات خارج

دائرة التوقعات تمامًا، الأمر الذي استدعى تحويل المرضى، ونقلهم من مكان لمكان آخر باستمرار.

الآنسة «ساساكي»، والتي تم نقلها حتى الآن لثلاث مرات؛ مرتين منهما عبر سفينة، كانت الآن في طريقها إلى كليةٍ هندسيةٍ في «هاتسوكايتشي»، وذلك في نهاية أغسطس، لم يتعافَى ساقها طيلة الفترة السابقة، بل استمرت في التورُّم أكثر وأكثر، وقد قام الأطباء هناك بتثبيت ساقها بجبيرة بدائية، وأخذوها بالسيارة في التاسع من سبتمبر إلى مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما، كانت هذه أول فرصة سنحت لها لإلقاء نظرة على أنقاض هيروشيما، ففي آخر مرة حُمِلَت فيها في شوارع هذه المدينة كانت تتأرجَح بين ضفتي غياب الوعي وبقائه، وبالرغم مما وُصِفَ لها سابقًا من حجم الدمار، ومع ما كانت تعانيه الآن من ألم، فإن ما رأته الآن قد رَوَّعَهَا وأدهشها، ولاحظت أمرًا معينًا أصابها بالقشعريرة.

ففوق جميع ذلك الحطام المتراكم والمنتشر في كل مكان؛ في الساحات، والقنوات، وعلى ضفاف الأنهار، وعلى السقوف المنهارة، وحول جذوع الأشجار المتفحِّمة، كان هناك بساط جديد من الخضرة، خضرةٌ حيةٌ وخصبة، تبعث على التفاؤل وتنشر الأمل، كانت تبرز وتنمو من أُسُس المنازل المدمَّرة، كانت الأعشاب ترتفع الآن مُخَبِّئَةً الرماد من تحتها، والأزهار البريَّة تُزْهِر وتتفتَّح من بين عظام المدينة البالية، لقد بَدَا الأمر وكأن القنبلة لم تترك الأجزاء الحية من النباتات الموجودة تحت الأرض سليمة فحسب، لكن حفزتها على النمو أكثر وأكثر.

لقد انتشرت في كل مكان زهرة تُرُنشاه الزرقاء، واليوكا، والسرمق، وزهرة مجد الصباح، والزنبق، وميقونة الفول المخملي، والرجلة، والشبيط، والسمسم، كما انتشرت على نحو خاص في محيط مركز المدينة نبتة السنا بطريقة غير عادية؛ إذ لم تقف عند حدود الأجزاء المتفحِّمة من نفس النبتة، بل تجاوزت تلك الحدود لتظهر في أماكن جديدة؛ بين الطوب، وفي تشقُّقات الإسفلت، وغيرها، كان مشهدًا غريبًا، وكأن كمية كبيرة من بذور السنا قد أُسْقِطَت على المدينة جنبًا إلى جنب مع إسقاط القنبلة.

وصلت الآنسة «ساساكي» إلى مستشفى الصليب الأحمر، لتكون في رعاية الدكتور «ساساكي». لقد استعاد المستشفى الآن وبعد شهر من الانفجار قدرًا من الترتيب والتنظيم، وحَظِيَ أولئك الذين كانوا يرقدون في الممرَّات في الأيام الماضية ببعض الحصر على الأقلليناموا عليها، وتم إمداد مخزون الأدوية بالمستشفى ـ والذي استُنْفِد بالكامل في الأيام الأولى من الانفجار ـ وإن بصورة غير كافية من تبرُّعات المدن الأخرى.

الدكتور «ساساكي»، والذي نام نومةً طويلةً لسبع عشرة ساعة متواصلة في منزله في اليوم الثالث من الانفجار، كان الآن ينام بمعدل ست ساعات على حصير بالمستشفى، وقد فَقَدَ تسعة كيلوجرامات من جسده الضئيل، وكان لا يزال يرتدي تلك النظارة التي استعارها من ممرِّضة مصابة.

ولأن الآنسة «ساساكي» كانت مريضةً جدًّا (وربما وعلى نحو بسيط بسبب اسمها، كما اعترف الدكتور بذلك لاحقًا)، فقد

وضعها الدكتور «ساساكي» على حصيرٍ في غرفةٍ شبه خاصة، والتي كان ينام فيها ثمانية أشخاصٍ فقط، سألها بضعة أسئلة، ثم قيَّد على سجلها بألمانيته المكسَّرة، والتي كان يكتب بها تقاريره:

''Mittelgrosse Patientin in gutem Ernährungszustand. Fraktur am linken Unterschenkelknochen mit Wunde; Anschwellung in der linken Unterschenkelgegend. Haut und sichtbare Schleimhäute mässig durchblutet und kein Oedema''.

«مريضة متوسطة الحجم في حالة صحية جيدة، كسرٌ في عظم الساق اليسرى مع جرح، تورُّم في منطقة أسفل الساق اليسرى، الجلد والأغشية المخاطية مُرَقَّطَة مع بعض النَّمَش، وبعضها ينزف، فيبدو كحبَّات صغيرة بقدر حبَّات الأرز، أو كبيرة كفول الصويا، وبالإضافة إلى ما سبق فإن رأسها، وعينيها، وحَلْقها، ورئتيها، وقلبها، تبدو بحالة طبيعية، وإن كانت تعاني من ارتفاع حرارتها».

كان يرغب في إصلاح ساقها ووضعها في جبيرة، لكن لم يكن هناك شيء من الجبس تحت يده منذ مدة، ولذا فقد تركها تتمدَّد على الحصير، ووصف لها بعض الإسبرين من أجل خَفْض حرارتها، بالإضافة إلى بعض الجلوكوز عن طريق الوريد، وشيئًا من الخميرة عن طريق الفم، من أجل معالجة سوء التغذية لديها (لم يقيِّد ذلك في سجلها؛ إذ كان الجميع يعاني من ذلك). ظهر عليها عَرَضٌ غريب واحد، وهو عَرَضٌ بدأ يظهر للتَّوِّ على عدد من مرضاه أيضًا، وهي تلك البُقَع النازفة.

* * *

استمر الحظ العاثر يلاحق الدكتور «فوجي»، وهو فيما يبدو مرتبط بالأنهار، فقد كان الدكتور «فوجي» يعيش الآن في منزل السيد «أوكوما» في «فوكاوا»، وكان هذا البيت واقفًا على حافة منحدرات نهر «أوتا»، بَدَا أن جراحه بدأت تتماثَل للشفاء، ووجد بعض النشاط، حتى أنه أخذ يعالج بعض اللاجئين الذين جاؤوه من حيِّه، مستخدِمًا المواد الطبية التي استردَّها من أحد المخابئ في ضواحي المدينة، لاحَظ على بعض مرضاه متلازمة غريبة من الأعراض، والتي ظهرت فجأة في الأسبوع الثالث والرابع، لكن لم يكن في مقدوره فعل شيءٍ سوى تضميد الجراح والحروق.

وفي بدايات شهر سبتمبر بدأت السماء تمطر باستمرار وبكثافة، ارتفع منسوب النهر، وفي السابع عشر من سبتمبر هبَّت عاصفة مُمْطِرَة، وظهر إعصار، لترتفع مياه النهر أكثر وأكثر، انتاب السيد «أوكوما» والدكتور «فوجي» الذعر، وسارعَا للخروج إلى منزل خشبي بأعالي الجبل.

(هناك في هيروشيما، تلقَّف الفيضان مهمة استكمال تدمير المدينة من حيث توقَّفت القنبلة، فقد جرف الفيضان في طريقه الجسور التي صمَدت في وجه الانفجار، وجرى في الشوارع ليقوِّض أساسات المباني التي ظلَّت واقفة، واستمر في الجريان مسافة ستة عشر كيلومترًا إلى غرب المدينة، حيث كان عدد من الخبراء من جامعة «كيوتو» الإمبراطورية يبحثون في مستشفى «أونو» الحربي أسباب الأعراض المتأخِّرة التي ظهرت على المرضى، ليجرف الماء في طريقه أولئك الخبراء بمرضاهم،

ويقذف بهم من منحدر غابة صنوبر جميل إلى البحر حيث غرق معظمهم).

بعد العاصفة رجع الدكتور «فوجي» والسيد «أوكوما» إلى النهر مرةً أخرى ليجدوا منزل «أوكوما» قد ذهب مع الماء، ولم يَبْقَ منه شيء.

❊ ❊ ❊

انتشرت شائعة مزعجة هنا وهناك، نتيجة شعور كثير من الناس بالمرض فجأة بعد شهر من سقوط القنبلة، ووصلت أصداء هذه الشائعة في نهاية المطاف إلى مسامع السيدة «ناكامورا» في المنزل الذي تقطنه في «كابي»، حيث كانت ترقد مريضةً، وقد فقدت شعرها، كان مضمون هذه الشائعة أن القنبلة الذرية قد أَطْلَقَت نوعًا من السُّمِّ على هيروشيما، وأنه سيستمر في الانبعاث ناشرًا الموت مدة سبع سنوات، الأمر الذي سيمنع من الاقتراب من المدينة طيلة تلك المدة.

أثار هذا الخبر استياء السيدة «ناكامورا»، والتي تذكَّرت أنها في لحظة ارتباك قامت حرفيًّا بإغراق مصدر رزقها الوحيد في صباح يوم الانفجار؛ آلة الخياطة الخاصة بها، والتي أَلْقَتْهَا في خزان المياه الإسمنتي أمام ما تبقى من منزلها المتهدِّم، والآن وبسبب هذا السُّمِّ المنبعث لن يتمكن أحد من انتشالها من ذلك الخزَّان.

حتى تلك اللحظة لم تُبْدِ السيدة «ناكامورا» ولا أقاربها رأيًا

حيال المسائل الأخلاقية المرتبطة بالقنبلة الذرية، بل كانوا إلى حدٍّ ما سَلْبِيِّينَ في التعاطي مع هذا الموضوع، ولكن هذه الشائعة أثارت بصورة مفاجئة مزيدًا من مشاعر الكراهية والسخط نحو الأمريكان بطريقة لم تكن موجودة طيلة فترة الحرب.

كان علماء الفيزياء اليابانيون ممن هم على دراية ومعرفة عالية بالانشطار الذري، (أحدهم كان يمتلك مُسرِّعًا ذريًّا)، قَلِقِينَ بشأن الإشعاع العالق بهيروشيما، وفي منتصف أغسطس، بعد أيام قلائل من إعلان الرئيس ترومان عن نوع القنبلة التي تم إلقاؤها، دخلوا المدينة وبدؤوا يُجْرُونَ تحقيقاتهم، كان أول شيء فعلوه هو تحديد مركز الانفجار بشكل تقريبي، وذلك بملاحظة الجانب المحروق من أعمدة الهواتف المنتشرة في قلب المدينة، استقرَّ رأيهم على أن نقطة الانفجار كانت عند بوابة «توري» الخاص بضريح «جوكوكو»، والمجاور تمامًا لمقر قيادة الجيش الإقليمي «بشوغوكو»، ومن هناك بدؤوا مهمَّتهم متَّجِهين شمالًا وجنوبًا حاملين معهم أجهزة كشف الشحنات الكهربائية، والحسَّاسة لأشعة بيتا وغاما، أعطاهم هذا مؤشِّرًا على أن شدة كثافة النشاط الإشعاعي بالقرب من «توري» كان ٤,٢، وهو رقم يُمثِّل ضِعف المتوسط الطبيعي لتسرُّب الموجات القصيرة جدًّا بالنسبة لأرض تلك المنطقة.

لاحَظ العلماء أن وَمِيض القنبلة عند الانفجار قد غيَّر لون الخرسانة إلى حُمَرةٍ خفيفة، كما أنه أزال القشرة الخارجية لأسطح الجرانيت، وأحرق عددًا من مواد البناء الأخرى، وأنه في حالات

معينة ترك أثرًا كالظل للأجسام التي صادفها الضوء، فعلى سبيل المثال، وجد الخبراء ظلًّا ثابتًا على سقف مبنى الغرفة التجارية بجانب البرج (والذي يبعد عن المركز المقدَّر بـ٢٠٠ متر)، كما وجدوا عددًا آخر من هذه الظلال في مراكز الاستطلاع فوق بنك الرهن (١٨٧٤ مترًا)، بالإضافة إلى ظلٍّ في برج مبنى توليد الكهرباء (٧٣٠ مترًا)، وواحدًا بجوار مقبض مِضَخَّة بنزين (٢٤٠٠ متر)، وعدة ظلال على شواهد القبور المصنوعة من الجرانيت في ضريح «جوكوكو» (٣٢ مترًا).

وبالاستعانة بهذه الظلال وغيرها، وبالأجسام التي شكَّلتها، استطاع العلماء بحساب مثلث المساحة تحديد موقع مركز الانفجار بدقة عالية، كان المركز نقطةً تبعد ١٣٧ مترًا جنوب «توري»، وبضعة أمتار على الجنوب الشرقي من حطام مستشفى «شيما».

(تم العثور على عدد قليل من الظلال البشرية الغامضة، والتي تولَّدَ عنها قصص تضمَّنَتْ تفاصيل متخيَّلة ودقيقة، إحدى هذه القصص تناولت رسَّامًا على سُلَّم تم تخليد ذِكْرَاه بنحت غائر على الواجهة الحجرية لمبنى البنك، حيث كان مستغرقًا في عمله، غامِسًا فرشاته في علبة طلاء، وكيف أن صورة ظِلِّ رجلٍ آخر قد انتقشت على الأرض مع ظل عربته فوق جسرٍ قريبٍ من متحف العلوم والصناعة، في أسفل مركز الانفجار تقريبًا، وكيف أنه بَدَا بوضوح أن الرجل كان بصدد ضرب حصانه بسوط معه).

في بدايات سبتمبر أجرى العلماء قياسات جديدة لانتشار

الإشعاعات ابتداءً من شرق وغرب المركز الفعلي للانفجار، ووجدوا ان أعلى تركُّز للإشعاع هذه المرة كان ٣,٩ ضِعف التسرُّب الطبيعي، ولأن نسبة الإشعاع والتي يمكن أن تشكِّل خطرًا حقيقيًّا على جسم الإنسان تتجاوَز ألف مرة ضِعْف التسرُّب الطبيعي، فقد أعلن العلماء للناس أن لا خطر مطلقًا من دخول هيروشيما.

كانت السيدة «ناكامورا» في ذلك الوقت مستترة عن الأعين، وكان شعرها قد بدأ في غضون مدة يسيرة بالعودة للنمو مرة أخرى، وبمجرَّد وصول خبر سلامة الدخول لمدينة هيروشيما تخفَّفت هي وأسرتها من تلك الكراهية الشديدة للأمريكان، وأرسلت شقيق زوجها للمدينة للبحث عن آلة الخياطة الخاصة بها، كانت لا تزال غارقة في خزَّان الماء، وعندما استخرجها وأحضرها إلى المنزل نظرت إليها السيدة «ناكامورا» بأسى وانزعاج؛ فقد كانت صَدِئَةً وعديمة الفائدة.

* * *

بحلول نهاية الأسبوع الأول من شهر سبتمبر كان الأب «كلينزوغر» راقدًا في سريره في الدير مصابًا بالحمى، حيث بلغت درجة حرارته ٣٩ درجة مئوية، ولأن حالته كانت تزداد سوءًا فقد قرَّر رفاقه أَخْذَه إلى المستشفى الكاثوليكي الدولي في طوكيو، أخذه الأب «شيسلِك» ورئيس الدير إلى «كوبي»؛ ليتلقَّاه أحد اليسوعيين من تلك المدينة، ويأخذه إلى طوكيو، وحين سلَّموه الأب «كلينزوغر» سلَّموه أيضًا رسالةً من طبيب بـ«كوبي»؛ ليقوم

هذا اليسوعي بإيصالها إلى كبيرة الراهبات بالمستشفى الدولي، كانت الرسالة مختصرةً: «عليكم بالتفكير أكثر من مرة قبل نَقْل الدم إلى هذا الرجل؛ لأننا غير جازمين بأن مرضى القنبلة الذرية سيتوقَّفون عن النزيف في حال تم وخزهم بالإبر».

وحين وصل الأب «كلينزوغر» إلى المستشفى كان شاحبًا جدًّا، وواهنًا للغاية، اشتكى من أن القنبلة قد تسبَّبت في اضطراب جهازه الهضمي، وأنه يعاني من آلام مَغَصٍ حادة، كان معدل خلايا الدم البيضاء في دمه ٣٠٠٠ (المعدل الطبيعي من ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠)، ومصابًا بفقر دم شديد، ودرجة حرارته ٤٠ درجة مئوية، كان في الحقيقة واحدًا من عددٍ قليلٍ من مرضى القنبلة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحد ممن وصلوا إلى طوكيو، وحين رآه أحد الأطباء ممن لم يسبق له معاينة مثل هذه الأعراض الغريبة بَدَا متفائلًا، وقال له بشكل مباشر مشجِّعًا: «لا عليك، فستخرج في غضون أسبوعين من هنا»، ولكن ما إن خرج هذا الطبيب من عنده مارًّا على كبيرة الراهبات في الممر إلا وفاجأها بقوله: «سوف يموت، جميع مرضى القنبلة يموتون، سوف تَرَيْنَ. إنهم يتعلَّقون بالحياة لمدة أسابيع ثم يموتون».

وصف الطبيب له نظامًا غذائيًّا مُفْرِطًا، حيث كان يتعين إعطاؤه على نحو قَسْرِيّ كل ثلاث ساعات بعض البيض أو عصارة اللحم، بالإضافة إلى كل ما يستطيع تناوله من السكر، كما وصف له بعض الفيتامينات أيضًا، وأقراص الحديد والزرنيخ (في محلول فولر)، وذلك من أجل علاج فقر الدم.

لقد حيَّر الأب «كلينزوغر» الأطباء، وخالَف توقُّعاتهم، فلا هو بالذي مات، ولا بالذي استعاد عافيته في أسبوعين، وإذا ما تجاهلنا أثر رسالة الطبيب من «كوبي»، والتي حُرِمَ بسببها من إجراء نقل الدم، وهو أفضل إجراء علاجي كان سيستفيد منه، إلا أنه ومع ذلك تعافى سريعًا من الحمى التي كان يعاني منها، ومن مشاكل الهضم أيضًا، فقد ارتفع معدل خلايا دمه البيضاء لبعض الوقت، لكنه عاد ليتهاوى مرةً أخرى مع بدايات أكتوبر ليصل إلى ٣٦٠٠، ثم عاود بعد عشرة أيام صعوده مرةً أخرى ليصل إلى معدلٍ فوق طبيعي إلى ٨٨٠٠، ليستقر في نهاية الأمر عند ٥٨٠٠.

أثارت خدوشه الغريبة حيرة الجميع؛ فقد كانت تلتئم في بضعة أيام، ثم وبمجرَّد أن يتحرَّك قليلًا تعود كما كانت مرةً أخرى.

وحالما شعر بالصحة والعافية اجتاحته مشاعر البهجة والمتعة، كان في هيروشيما مجرَّد مصابٍ واحدٍ من آلاف المصابين، أما هنا في طوكيو فقد كان شيئًا مثيرًا للفضول، جاءه أطباء كُثُر من الجيش الأمريكي لفَحْصِه ومراقبته، وساءله المختصون اليابانيون عن حالته، فيما أَجْرَتْ إحدى الصحف مقابلة معه، جاءه طبيبه مرةً وهو في حيرة من أمره يهز رأسه ويقول: «إن مصابي القنبلة الذرية أناسٌ يثيرون الحيرة فعلًا».

* * *

كانت السيدة «ناكامورا» وابنتها «مِيَكُو» مستلقيتين بداخل المنزل، فقد كان المرض ملازمًا لهما، وشعرت السيدة «ناكامورا»

على نحو غامض بأن معاناتها كانت بسبب القنبلة، لكنها كانت أفقر من أن تذهب لرؤية طبيب، وبالتالي لم تتمكَّن من معرفة ما تعاني منه بالضبط، ومن غير علاج، بل بحصةٍ جيدةٍ من الراحة فقط استعادت الأم وابنتها عافيتهما تدريجيًّا.

كان بعض الشَّعر قد تساقط من رأس «مِيَكُو»، كما استمرت معاناتها من حرق صغير في ذراعها لأشهُر حتى تماثَل للشفاء، أما الصبي «توشيو» والفتاة الكبرى «يايكو» فكانَا يبدوان في صحة جيدة نسبيًّا، بالرغم من أنهما فَقَدَا بعض الشعر أيضًا، وعانيَا من صداع شديد يتوارَد عليهما بين الفينة والأخرى.

استمرَّت الكوابيس تلاحق «توشيو»، وكانت تدور دائمًا حول الميكانيكي ذي التسع عشرة سنة «هيديو أوساكي»، بطله الذي قُتِلَ في الانفجار.

* * *

كان السيد «تانيموتو» مضطجعًا على ظهره، ويعاني من حمى وصلت درجة حرارته فيها إلى ٤٠ درجة مئوية، وكان طيلة الوقت يفكِّر بقلق بجنائز قتلى كنيسته، والتي كان يتوجَّب عليه إقامة مراسم دفنها، ظنَّ أن الأمر مجرَّد إجهاد زائد نتيجة تلك المهام التي تحمَّلها منذ انفجار القنبلة، ولكن مع استمرار الحمى لأيام أرسل في طلب الطبيب.

كان الطبيب مشغولًا جدًّا، وعاجزًا عن زيارته في «أوشيدا»، فأرسل ممرضةً عوضًا عنه، والتي تعرَّفت بمجرد النظر

إلى الأعراض التي كان يعاني منها بأنه مصاب بتسمُّم إشعاعي خفيف. فكانت تعاوِد زيارته بين وقت وآخر لتعطيه حقنة فيتامين ب١.

تواصل مع السيد «تانيموتو» أحد معارفه ـ وهو كاهن بوذي ـ واقترح عليه أن يتعالج بالكي رجاءَ أن يخفِّف ذلك شيئًا من أوجاعه، وأرشده إلى الطريقة اليابانية التقليدية لفعل ذلك، حيث يتم لَفُّ عُشْبَةٍ مُنَشِّطَةٍ معينة بعصا الكي، ثم تُشْعَل بالنار، ويُكْوَى موضع النبض من الرسغ، وجد السيد «تانيموتو» أنه مع كل كيَّة فإن حرارته تنخفض مؤقتًا بدرجة واحدة.

أوصته الممرِّضة بأن يأكل قدر ما يمكنه من طعام، فكانت تزوره حماتُه كلَّ بضعة أيام وتحضر معها بعض الخضروات والسمك من بلدتها التي تعيش فيها «تسوزو»، والتي تبعد اثنين وثلاثين كيلومترًا من «أوشيدا».

لبث «تانيموتو» طريح الفراش لمدة شهر، ثم ذهبَ لبيت والده في «شيكوكو» مستقلًا القطار في رحلة استغرقت عشر ساعات، وهناك استراح لشهر آخر.

* * *

كان الدكتور «ساساكي» وزملاؤه في مستشفى الصليب الأحمر يتابعون شأن هذا المرض الغريب الذي لم يسبق أن رأوا له مثيلًا، وبدأت تتكشَّف لهم أخيرًا بوادر نظرية تفسِّر طبيعة هذا المرض، قرَّرُوا بأن هذا المرض يمر بثلاث مراحل.

أما المرحلة الأولى فقد ولَّتْ وانقضت قبل أن يتفطَّنَ الأطباء أصلًا إلى أنهم يواجهون نوعًا جديدًا من الأمراض، كانت هذه المرحلة تمثِّل التأثير المباشر للقصف الإشعاعي على الجسم، ففي اللحظة التي انفجرت فيها القنبلة انطلقت منها النيترونات وجسيمات بيتا وأشعة غاما، ويبدو أن أولئك الذين ماتوا على نحو غامض في الساعات الأولى من انفجار القنبلة، أو في أيامه الأولى، ممن لم تكن لديهم إصابات ظاهرة لم يستطيعوا تجاوُز أعراض المرحلة الأولى من المرض. لقد قتلَ خمسة وتسعون في المائة ممن كان يبعد عن مركز الانفجار مسافة كيلومتر تقريبًا، وعدة آلاف ممن كان أبعد عن ذلك، أدرك الأطباء لاحقًا أنه وبالرغم مما عاناه أولئك القتلى من حروق وجروح جرَّاء الانفجار، إلا أن أجسادهم امْتَصَّتْ كمية من الإشعاعات كانت كافية لقتلهم، لقد دمَّرت الأشعة ببساطة خلايا أجسامهم، فتحلَّلت نواتها وتهدَّمت جدرانها، وكثير ممن لم يَمُتْ على الفور أُصِيبَ بغثيان، وصداع، وإسهال، ووعكة صحية، وحمى، استمرَّ لمدة أيام، ولم يكن الأطباء متأكِّدين من كَوْن بعض هذه الأعراض نتيجة الإشعاعات، أم أنها نتيجة صدمة عصبية.

أما المرحلة الثانية للمرض فتظهر بوادرها بعد عشرة أو خمسة عشر يومًا من الانفجار. ويمثِّل تساقُط الشعر أبرز أعراضه، ليعقبه إسهال، وحمى تصل فيها درجة حرارة المريض في بعض الحالات إلى ٤١ درجة مئوية، وبعد مُضِيِّ خمسة وعشرين إلى ثلاثين يومًا من الانفجار تظهر اختلالات متعلِّقة

بالدم؛ كنزيف باللثة، وانخفاض في عدد خلايا الدم البيضاء بشكل حادّ، وظهور نَمَشٍ وحبوب على الجلد والأغشية المخاطية، ويؤدِّي انخفاض عدد كُرَيَّات الدم البيضاء إلى إضعاف مقاومة المريض للأمراض والالتهابات، فيلاحظ أن التئام الجروح المفتوحة يكون بطيئًا على نحو غير عادي، كما تظهر أعراض تقرُّحات في الفم والحلق على عدد من المرضى.

العَرَضَان الرئيسيَّان اللذان رَتَّبَ عليهما الأطباء تشخيصهم للمرض كان ارتفاع درجة حرارة المريض، مع انخفاض معدَّل كُرَيَّات الدم البيضاء، وإذا استمرَّت الحمى لمدةٍ محافِظةً على درجة حرارة مرتفعة، فإن فرص المريض في التعافي والنجاة من الموت تبدو ضعيفة، كان معدَّل خلايا الدم البيضاء ينخفض بشكل دائم تقريبًا ليصل إلى أقل من أربعة آلاف، وكانت تبدو حظوظ أولئك المرضى ـ ممن ينخفض المعدل عندهم لأقل من ألف ـ في النجاة ضئيلة جدًّا، وإذا نجا المريض من الأعراض السابقة فستظهر عليه في نهايات هذه المرحلة أعراض فَقْر الدم، حيث ينخفض عنده معدل خلايا الدم الحمراء.

ثم يدخل المريض بعدها في المرحلة الثالثة للمرض، حيث يسعى الجسم جاهِدًا لمكافحة أعراض المرض، وتبدأ خلايا الدم البيضاء في التزايد، لا للعودة إلى المعدلات الطبيعية فحسب، بل لمعدلات تتجاوَز المعدلات الطبيعية على نحو كبير، وفي هذه المرحلة تظهر حالات كثيرة للوفاة نتيجة بعض المضاعفات المفاجئة؛ كالتهابات تجويف الصدر، ومعظم الحروق كانت تلتئم

مخلِّفةً طبقة وردية عميقة من الندوب المطاطية، والتي تُعْرَف بأورام الجَدَرَة.

وكانت مدة المرض تتفاوَت اعتمادًا على بنية المريض، وكمية الإشعاع التي تلقَّاها، فبينما تعافَى بعض المرضى في غضون أسبوع، احتاج آخرون لأشهر حتى يتعافَوْا، ومع انكشاف أعراض المرض أصبح من الواضح أن كثيرًا منها تتشابه إلى حدٍّ ما مع الأعراض التي تنشأ من التعرُّض لجرعة زائدة من الأشعة السينية، وبناءً على هذا التشابُه شخَّص الأطباء نوع هذا المرض، واقترحوا العلاج، فوصفوا للمرضى مستخرَجات الكبد، والفيتامينات، خصوصًا فيتامين ب١، بالإضافة إلى عمليات نقل الدم، لكن حَالَ دون توفير العلاج نقص المؤن والمعدَّات التي يحتاجون إليها، ووجد أطباء الحلفاء ممن جاء لاحقًا بعد إعلان الاستسلام أنَّ وصف البلازما والبنسلين فعَّال جدًّا.

ولأن الاختلالات المتعلقة بالدم كانت تبدو العَرَض المهيمِن على جميع الأعراض على المدى البعيد، فقد طوَّر بعض الأطباء اليابانيين نظرية تفسِّر تأخُّر ظهور بعض الأعراض، حيث اعتقدوا أن الأمر قد يكون عائدًا إلى اختراق أشعة غاما للبدن في لحظة الانفجار، وأنها قد تكون متسبِّبَة في جَعْل الفوسفات الموجود في العظام مُشِعًّا، والذي بدوره يطلق جسيمات بيتا، وهي وإن كانت عاجزة عن الانتشار على نحو كبير في ألياف الجسم، لكنها قد تخترق نخاع العظم، وهو المسؤول عن إنتاج الدم، فتقوم تلك الجسيمات بتدميره تدريجيًّا.

وأيًّا كان سبب المرض، فقد كانت أعراضه غريبة ومراوِغة ومحيِّرة، فلم تظهر جميع الأعراض الرئيسية على جميع المرضى، فأولئك الذين كانوا يعانون من الحروق كانوا مَحْمِيِّينَ إلى حدٍّ كبير من مرض التسمُّم الإشعاعي، وأولئك الذين استراحوا لأيام أو حتى لساعاتٍ عقب الحدث كانوا أقل عُرْضَةً للمرض من أولئك الذين أبدوا نشاطًا وحركة، كان الشَّيْبُ نادرًا ما يتساقط، وتأثَّرت العمليات المتعلقة بالإنجاب والتناسُل، وكأنما الطبيعة تحمي الإنسان من عبقريته وإبداعه، فتسبب الانفجار في عُقم الرجال، كما تعرَّضت النساء الحوامل للإجهاض، وتوقَّفت دورتهن الشهرية أيضًا.

* * *

مكث الدكتور «فوجي» لمدة عشرة أيام بعد الفيضان في منزل جبلي فوق «أوتا»، ثم سمع عن عيادة خاصة شاغرة في «كايتايشي» ـ إحدى الضواحي الشرقية لهيروشيما ـ فاشتراها مباشرةً وانتقل إليها، وعلَّق عليها لوحة باللغة الإنجليزية على شرف المنتصِرين:

M. FUJII, M.D.
MEDICAL & VENEREAL

لقد تعافى تمامًا من جراحه، وسرعان ما ازدهر عمله ونشاطه، كان سعيدًا بتلك المساءات التي يلتقِي فيها بأفراد القوات المحتلَّة ليحادثهم بالإنجليزية، ويُغْدِق عليهم بشرب الويسكي.

* * *

في الثالث والعشرين من أكتوبر، وبعد أن أعطى الدكتور «ساساكي» مريضته الآنسة «ساساكي» تخديرًا موضعيًّا من البروكين، قام بعمل شَقٍّ في ساقها لاستخراج الصديد وأعراض الالتهاب منها، والتي ظلَّت تعاني منها لأحد عشر أسبوعًا بعد إصابتها، واستمر جرحها يتفجَّر بالصديد والقيح على مدى أيام، لدرجة اضطراره لتنظيف الجرح وتضميده يوميًّا في الصباح والمساء، وبعد أسبوع اشتكت الآنسة «ساساكي» من ألمٍ شديد، فقام بعمل شقٍّ آخر، ثم ثالث في التاسع من نوفمبر، ثم قام بتوسيعه بعد ذلك في السادس والعشرين من نوفمبر.

وطوال تلك المدة كانت الآنسة «ساساكي» تزداد ضَعْفًا إلى ضَعْفِها، كما تراجعت روحها المعنوية كثيرًا، وفي أحد الأيام زارها ذلك الشاب الذي أعارها ترجمة «دي ماوبسانت» في «هاتسوكايتشي»، وأخبرها بأنه ذاهب إلى «كيوشو»، لكنه راغب في رؤيتها مرة أخرى حين يعود، لكنها لم تعبأ بالأمر، كانت ساقها متورِّمة وتؤلمها جدًّا، حتى أن الطبيب لم يَسْعَ طيلة تلك المدة لمحاولة إصلاح ما بها من كسور، وعلى الرغم من أن العظام بدأت تنجبر كما ظهر من خلال الأشعة السينية، إلا أنها كانت تلاحظ من تحت الشراشف أن ساقها اليسرى كانت أقصر من اليمنى بنحو ثمانِ سنتيمترات، وأن قدمها اليسرى بَدَتْ مائلة للداخل.

فكَّرت كثيرًا في خطيبها، فقد أخبرها أحدُهم بأنه قد عاد

من سفره خارج اليابان، كانت تتساءل عما سمعه عن إصابتها، والذي حَمَلَهُ على تَرْك زيارتها.

* * *

خرج الأب «كلينزوغر» من مستشفى طوكيو في التاسع عشر من ديسمبر، وفي طريقه بعد يومين التقى مصادفةً بالدكتور «فوجي»، وذلك في محطة «يوكوغاوا»، وهي محطة تسبق هيروشيما مباشرة، حيث استقلَّ الدكتور «فوجي» القطار، كانت هذه المرة الأولى التي يلتقي فيها الرجلان منذ ما قبل الانفجار، جلسَا معًا، فقال له الدكتور «فوجي» بأنه ذاهب لاجتماع أسرتهم السنوي في ذكرى وفاة والده، وعندما بدآ يتحدَّثان عن تجربتهما مع القنبلة كان حديث الطبيب مُسَلِّيًا جدًّا وهو يتكلم عن تهاوِي منزله في النهر، ثم سألَ الأب «كلينزوغر» عن أحواله، فأخبره عن تجربته في المستشفى، قال له: «لقد طلب مني الأطباء أن أكون حريصًا وحَذِرًا»، وأضاف: «أمروني بأن آخذ قيلولة لمدة ساعتين بعد الظهر يوميًّا»، فقال له الدكتور «فوجي»: «يبدو أنه من الصعب أن تكون متحوطًّا لصحتك في هيروشيما هذه الأيام؛ فالكل مشغول للغاية».

* * *

لقد أُسِّست حكومة محلية جديدة برعاية الحلفاء، وبدأت عملها أخيرًا في مجلس المدينة، وبدأ آلاف المواطنين والذين تعافَوْا من درجات متفاوتة من التسمُّم الإشعاعي يعودون للمدينة

وحدانًا وزرافات، وبحلول الأول من نوفمبر بلغ تعداد السكان، والذين تركزوا في ضواحي المدينة، ١٣٧ ألف إنسان، وهو رقم يمثِّل أكثر من ثلث تعداد المدينة في ذروة زمن الحرب.

ووضعت الحكومة مشاريع منوعة ليعمل الناس على إعادة إعمار المدينة، فعيَّنت رجالًا لتنظيف الشوارع، وآخرين لجمع خردة الحديد، والتي تم فَرْزُها بعد جمعها، وتكديسها بعد ذلك حتى بدت كالتلال في مقابل مجلس المدينة.

وقام بعض العائدين للمدينة ببناء أكواخهم الخاصة، وزرعوا بجوارها مساحة ضيقة من القمح الشتوي، كما قامت المدينة أيضًا ببناء أربعمائة مجمع سكني، وأصلحت بعض المرافق العامة، فأضاءت المدينة بالإنارة الكهربائية، وعاد الترام للعمل مجددًا، وأصلح عمال محطات المياه أكثر من سبعين ألف تسريب في شبكة المياه.

عُقِد مؤتمر للتخطيط، بحضور ضابط عسكري صغير السن ومتحمِّس، وهو الملازم «جون دي مونتغمري»، من «كالامازو»، والذي حضر باعتباره موجِّهًا لهذا المؤتمر، والذي دارت حواراته حول سؤال: كيف ينبغي أن تكون مدينة هيروشيما الجديدة؟

كانت المدينة المدمَّرة مزدهرةً، ومركزًا جاذبًا؛ بسبب كونها إحدى أهم مقارِّ القيادة العسكرية، ومراكز الاتصالات في اليابان، بالإضافة إلى أنها كانت المدينة المرشَّحة لاحتضان مقر قيادة الإمبراطور في حال سقطت الجزر وتمت السيطرة على طوكيو من

قِبَل الأعداء، أما الآن فلن يكون هناك تواجُد عسكري ضخم للمساعدة في إحياء المدينة.

لقد احتار المجتمِعون في مؤتمر التخطيط عن مستقبل المدينة، ومدى الأهمية التي ستشكِّلها في مستقبل الأيام، فكانت أفكارهم تدور في فلك مشاريع غامضة حول المعطَى الثقافي والحضاري للناس، بالإضافة إلى تعبيد الطرق وتبليطها، فقاموا برسم خرائط تتضمَّن طرقًا بعرض مائة متر تقريبًا، وفكَّروا بجدية في المحافظة على بقايا متحف العلوم والصناعة، وجَعْلِه نصبًا تذكاريًّا للكارثة، وتسميته بمعهد الصداقة الدولية.

وقدَّم المختصون في شؤون الإحصاء ما استطاعوا من أرقام وإحصائيات تتعلق بتأثيرات القنبلة، ذكروا أن ٧٨١٥٠ قد قُتِلُوا، وأن ١٣٩٨٣ كانوا في عداد المفقودين، وأن الجرحى بلغوا ٣٧٤٢٥ مصابًا، لم يكن هناك في الحكومة مَن يتعامل مع هذه الأرقام باعتبارها أرقامًا دقيقة ـ على الرغم من أن الأمريكيين قد قبلوها كإحصائيات رسمية ـ ومع مرور الوقت، وظهور المئات على إثر المئات من الجثث المدفونة من تحت الأنقاض، ومع تصاعُد أعداد جرار رماد القتلى في معبد «زيمبوجي» في «كوي» لتصل إلى الآلاف بدأت تتغيَّر قناعة مَن عَمِل على تلك الإحصائيات، ليصرِّحوا بأن عدد ضحايا القنبلة لا يقل عن مائة ألف إنسان، ولأن الكثيرين ماتوا بسبب مزيجٍ من الأسباب فقد كان من المستحيل معرفة بالضبط كم عدد ضحايا كل سبب على حِدَة، ولكن الخبراء قدَّروا أن حوالي خمسة وعشرين في المائة

لَقُوا حتفهم بسبب الحروق المباشرة من القنبلة، وأن حوالي خمسين في المائة ماتوا من إصابات أخرى، وأن حوالي عشرين في المائة ماتوا نتيجة تأثُّرهم بالإشعاعات.

كانت الإحصائيات المتعلِّقة بأضرار الممتلكات أكثر دقة وموثوقية؛ اثنان وستون ألف مبنى من واقع تسعين ألفًا قد دُمِّرَت بالكامل، وستة آلاف تضرَّرت على نحو غير قابل للإصلاح، وفي قلب المدينة وجدوا خمسة مبانٍ حديثةٍ فقط يمكن استعمالها مجدَّدًا دون الحاجة إلى إجراء إصلاحات كبيرة، ولم تكن ضآلة عدد المباني السليمة عائدًا إلى سوء العمارة اليابانية، فمنذ وقوع زلزال ١٩٢٣م نَصَّتْ لوائح وأنظمة البناء اليابانية أن سقف أي مبنى كبير يجب أن يكون قادرًا على تحمُّل ثلاثين كيلوغرامًا لكل قدم مربع كحد أدنى، في حين كانت الأنظمة الأمريكية لا تحدِّد الأمر عادة بأكثر من ١٨ كيلوغرام للقدم المربع الواحد.

غَصَّت المدينة بالعلماء؛ بعضهم كان مهمومًا بقياس القوة التي يمكنها إزاحة شواهد القبور الرخامية في المقابر عن أماكنها، وقذف أكثر من اثنين وعشرين عربة عن سكة الحديد في محطة هيروشيما، ورَفْع وتحريك الطريق الخرسانية على أحد الجسور، بالإضافة إلى مشاهد أخرى يمكن رصدها تستدعي قوة هائلة لإحداثها، وتوصَّلوا إلى أن الضغط الناشئ عن الانفجار تراوَح بين ٥٫٣ و٨ طن للمتر المربع الواحد.

وجد آخرون أن معدن الميكا ـ والذي يبلغ نقطة انصهاره ٩٠٠ درجة مئوية ـ قد التحم بجرانيت شواهد القبور، والتي تبعد

٣٥٠ مترًا تقريبًا عن مركز الانفجار، وأن أعمدة الهاتف من السرو الياباني ـ والذي يتفحَّم عند ٢٤٠ درجة مئوية ـ قد تفحَّمت وهي على بُعد ٤٠٠٠ متر تقريبًا من المركز، وأن سطح القِرْمِيد الرمادي المستعمَل في هيروشيما ـ والذي ينصهر عند ١٣٠٠ درجة مئوية ـ قد ذاب من على بُعد ٩٠ مترًا، وبعد فحص عدد من القطع الذائبة الأخرى وبعض الرماد اللافت للنظر توصَّلوا إلى أن درجة الحرارة على الأرض في مركز الانفجار قد وصلت قطعًا إلى ستة آلاف درجة مئوية.

ومن خلال المزيد من قياسات الإشعاع، والتي شملت عددًا من الأمور؛ ككَشْط شظايا الانشطار من سقوف الأحواض، وأنابيب الصرف، والتي وصلت إلى الضواحي البعيدة؛ كضاحية «تاكاسو»، والتي تبعد ٣٠٠٠ متر من مركز الانفجار، استطاعوا التوصُّل إلى عدد من الحقائق المهمة المتعلقة بطبيعة القنبلة.

كان مقر قيادة الجنرال «ماكارثر» يمنع بطريقة مُمَنْهَجَة ذِكْر القنبلة في المنشورات العلمية اليابانية، ولكن سرعان ما ظهرت ثمرة حسابات العلماء إلى السطح، وأصبحت مثل تلك المعلومات معلومات شائعة بين علماء الفيزياء اليابانيين، والأطباء، والصيادلة، والصحفيين، وأساتذة الجامعات، وبالتأكيد أيضًا رجال الدولة والجيش ممن لا يزالون في الخدمة، وقبل إخبار الشارع الأميركي عن بعض تفاصيل القنبلة بمدةٍ طويلة فإن معظم العلماء، بل وكثير من غير العلماء، كانوا يدركون من خلال حسابات علماء الفيزياء النووية اليابانيين أن قنبلةً من اليورانيوم قد

انفجرت فوق هيروشيما، وأن قنبلة أكثر قوة من البلوتونيوم قد تم تفجيرها في «ناغازاكي»، كما أنهم كانوا مدركين أيضًا أنه بالإمكان نظريًّا تطوير قنبلة أقوى بعشرة أو عشرين ضعفًا.

كان العلماء اليابانيون يعتقدون أنهم يعرفون الارتفاع الدقيق، والذي انفجرت القنبلة عنده، بالإضافة إلى الوزن التقريبي لليورانيوم المستعمل، قدَّرُوا أنه حتى مع قنبلة بدائية كتلك التي استُعْمِلَت في هيروشيما، فسيحتاج الأمر إلى بناء ملجأ بجدار يبلغ سمكه ١٣٠ سنتيمترًا تقريبًا لحماية الإنسان من أي تسمُّم إشعاعي، لقد كان العلماء هنا على دراية بهذه التفاصيل وغيرها، في الوقت الذي كان يُتَحَفَّظ عليها في الولايات المتحدة، وقد تم طباعتها ونَسْخُها في كُتَيِّبَات صغيرة، وكان الأمريكان على دراية بأمر هذه الكتيبات، ولكن ملاحقتها وضمان عدم وصولها لمن لا يرغبون في وصولها إليه يستلزم أن تنشئ سلطة الاحتلال لهذا الغرض فقط جيشًا هائلًا من الشرطة في اليابان، وبشكل عام، كان أمر تكتُّم قوات الاحتلال على ما يتعلق بالانشطار الذري، والجهود الذي يبذلونها في هذا الصدد أمرًا طريفًا ومثيرًا بالنسبة للعلماء اليابانيين.

* * *

في أواخر شهر فبراير سنة ١٩٤٦م تواصلت إحدى صديقات الآنسة «ساساكي» مع الأب «كلينزوغر»، وطلبت منه زيارتها في المستشفى، كانت مشاعر الاكتئاب والإحباط تتنامى في نفسها أكثر وأكثر، وبَدَتْ غير مهتمَّة بالحياة، وفعلًا ذهب الأب «كلينزوغر» لرؤيتها عدة مرات.

في زيارته الأولى اقتصر في حديثه على الكلام في العموميات، وبلغة رسمية، وبشيء من التعاطُف على نحو مُبْهَم، ولم يذكر شيئًا عن الدين بتاتًا، وفي الزيارة الثانية كانت الآنسة «ساساكي» هي مَن أثارت قضية الدين في أثناء الحوار، كان من الواضح أنها تحدَّثت مع أحد الكاثوليك، فسألته بصراحة: «إن كان إلٰهك خيِّرًا ورحيمًا، فكيف يسمح أن يتعذَّب الناس على هذا النحو؟»، وأشارت إلى ساقها المنكمشة، وإلى المرضى معها في الغرفة، وإلى هيروشيما بشكل عام، قال لها الأب «كلينزوغر»: «طفلتي، إن الإنسان ليس في الحالة التي أرادها الله له، لقد سقط من سُمُوِّه بسبب الخطيئة»، واسترسل متحدثًا عن الأسباب التي تقف خلف كل شيء.

* * *

وصل إلى مسامع السيدة «ناكامورا» أن نجَّارًا من «كابي» يبني عددًا من الأكواخ الخشبية في هيروشيما، وأنه يؤجِّرها بخمسين يِنًّا في الشهر، وهو ما يعادل ٣٫٣٣ دولارًا، بمعدل الصرف الثابت، وكانت السيدة «ناكامورا» قد فقدت شهادات السندات الخاصة بها، بالإضافة إلى بعض مدخراتها من زمن الحرب، ولكن لحسن الحظ أنها نسخت جميع أرقام تلك الشهادات قبل بضعة أيام فقط من إسقاط القنبلة، واصطحبت معها قائمة الأرقام هذه لـ«كابي»، وحين نَمَا شعرها بالقدر الذي جعل شكلها مقبولًا ذهبت إلى بنكها في هيروشيما، وهناك أخبرها الموظف بعد أن طابق الأرقام في قائمتها بالسجلات لديه بأن

البنك سيصرف لها أموالها، وبمجرد أن حصلت على المال استأجرت أحد أكواخ النجَّار تلك.

كان الكوخ في «نابوري ـ تشو» قريبًا من منزلها السابق، وبالرغم من أرضيَّتها الترابية وافتقادها للإنارة، فقد كان على الأقل منزلًا في هيروشيما، وسيرفع عنها حرج الاعتماد على تفضُّل وإحسان أَحْمَائِها، ومع مجيء فصل الربيع أزالت بعض الحطام القريب منها، لتزرع في مكانه بعض الخضروات، كانت تستعمل أدوات الطبخ، وتأكُل من الأطباق التي استخرجتها من تحت الأنقاض.

أرسلت «مِيَكُو» إلى الروضة التي أعاد اليسوعيون فتحها، فيما ذهب الطفلان الآخران إلى مدرسة «نوبوري ـ تشو» الابتدائية، والتي كانت تعقد فصولها في الهواء الطلق؛ لعدم وجود مبنى دراسي، كان «توشيو» يدرس ليكون ميكانيكيًّا، مثل بطله «هيديو أوساكي».

كانت الأسعار مرتفعة، وبحلول منتصف الصيف كانت مدَّخرات السيدة «ناكامورا» قد نفدت تمامًا، باعت بعضًا من ملابسها للحصول على الغذاء، لقد كانت تملك في زمن ماضٍ عددًا من أثواب الكيمونو الغالية، ولكن أحدها سُرِقَ في زمن الحرب، وأعطت واحدًا منها لشقيقتها التي تعرَّض منزلها للقصف في «توكوياما»، أما البقية فقد فقدتها في انفجار هيروشيما، ولم يتبقَّ لها منها إلا واحد اضطرت إلى بَيْعِه الآن، ولم تَجْنِ من بيعه إلا مائة ينٍّ فقط، وهو مبلغ لم يَبْقَ معها لمدة طويلة.

وفي يونيو ذَهَبَتْ إلى الأب «كلينزوغر» لاستشارته في كيفية تدبير شؤونها المالية، وفي أوائل أغسطس كانت تقلِّب النظر في فكرتين كان قد اقترحهما؛ العمل كخادمة منزلية عند قوَّات التحالف المحتلَّة، أو اقتراض مبلغ من المال من أقاربها، حوالي ٥٠٠ ينٍّ، أو أكثر من ٣٠ دولارًا بقليل لإصلاح آلة الخياطة الصَّدِئَة، ولتستأنف عملها في الخياطة.

❊ ❊ ❊

حين عاد السيد «تانيموتو» من «شيكوكو» قام بستر سقف المنزل الذي استأجره «بأوشيد» بخيمة كان يملكها، فقد كان هذا المنزل المستأجَر يعاني بعض الأضرار التي لحقته في وقت سابق، كانت المياه تتسرَّب من السقف، ولكنه نجح في معالجة الأمر في غرفة المعيشة الرطبة.

وبدأ يفكر في جَمْع بعض الأموال لإعادة بناء كنيسته في المدينة، توثَّقت صداقته بالأب «كلينزوغر» أكثر، وازدادت لقاءاته باليسوعيين، كان يغبطهم على وفرة أموال كنيستهم، والتي بَدَوْا بسببها قادرين على فعل أي شيء، ولم يكن لديه شيء لفعله الآن سوى استعادة صحته وقوته، والتي لم تكن كسابق عهدها.

❊ ❊ ❊

كانت جمعية يسوع أول مؤسسة قامت ببناء كوخ دائم بين أنقاض هيروشيما، وقد تم إنجازه في الفترة التي كان فيها الأب «كلينزوغر» مريضًا بالمستشفى، وبمجرد خروجه انتقل للعيش في

هذا الكوخ، كما انتقل قسٌّ آخر يُدْعَى الأب «لادرمان» للعيش فيه أيضًا، والذي التحق بالبعثة مؤخرًا، ورتَّب لشراء ثلاثة مبانٍ سكنية كانت تُبَاع في ذلك الحين بسبعة آلاف ينّ للمبنى الواحد، فقاموا بضم اثنين منها معًا، ليجعلوا منهما كنيسة جميلة، فيما كانوا يأكلون في الثالث.

وعندما توفَّرت مواد البناء قاموا بالتعاقد مع مقاول من أجل بناء مبنى بثلاثة طوابق مشابه تمامًا للمبنى الذي دُمِّرَ في الحريق، كان النجَّارون في المجمع يقطعون الأخشاب، ويُعِدُّون الألسنة والنقر والأوتاد الخشبية، ويُجَهِّزُون الثقوب اللازمة في الألواح، إلى أن انتهوا من جميع التجهيزات التي يحتاجونها في بناء المنزل، ووضعوها في كومة مرتبة أنيقة، ثم وفي غضون ثلاثة أيام رَكَّبُوا المنزل من تلك القِطَع، وكأنها قطع بازل، دون أن يستخدموا مسمارًا واحدًا.

وجد الأب «كلينزوغر» صعوبة في تطبيق توصية الأطباء له بتوخِّي الحذر، والتحوُّط لوضعه الصحي، وأَخْذِ حِصَص مناسبة من النوم أثناء النهار، وهو ما توقعه الدكتور «فوجي» وأخبره به، فها هو الآن يخرج يوميًّا سيرًا على الأقدام للتواصل مع الكاثوليك اليابانيين، ولدعوة مَن يؤمِّل في تَحَوُّلِهم للنصرانية، ومع مرور الأشهر ازداد تعبه وإرهاقه.

وفي يونيو قرأ مقالًا في صحيفة «هيروشيما تشوغوكو» يحذِّر الناجين من إرهاق أنفسهم بالأعمال الشاقة، ولكن ما الذي كان في مقدوره أن يفعله؟

ومع حلول شهر يوليو أصبح واهنًا جدًّا، وفي بواكير شهر أغسطس، وفي ذات وقت ذكرى الانفجار تقريبًا، عاد إلى مستشفى اليابان الكاثوليكي الدولي في طوكيو، ومكث فيه شهرًا كاملًا للراحة.

* * *

سواء كانت الإجابات التي قدَّمها الأب «كلينزوغر» عن أسئلة الآنسة «ساساكي» حول الحياة تمثِّل إجابات نهائية وحقائق مطلقة أم لا، فقد بَدَا أنها قد استمدَّت منها شيئًا من القوة البدنية على نحو سريع، لاحَظ ذلك الدكتور «ساساكي»، وهنَّأ الأب «كلينزوغر» على صنيعه.

وبحلول الخامس عشر من أبريل كانت درجة حرارتها وعدد كُرَيَّات دمها البيضاء طبيعية، وبَدَا أن التهاب جرحها آخِذٌ في التشافي.

وفي العشرين من نفس الشهر لم يكن هناك شيء من القيح في جروحها، ولأول مرة استطاعت أن تمشي متمايِلة على طول الممر معتمدة على عكازين، وبدأت جراحها تلتئم بعد خمسة أيام، وفي آخر يوم من الشهر أُذِنَ لها بالانصراف من المستشفى.

وفي أوائل فصل الصيف هيَّأت نفسها للتحوُّل إلى الكاثوليكية. في تلك الفترة كانت معنوياتها متذبذبة، فمرةً ترتفع وأخرى تنخفض، وكانت تنتابها فترات اكتئاب شديد، فقد أدركت بأنها ستكون معاقة، ولم يأت خطيبها لرؤيتها بتاتًا. لم يكن هناك

شيء يمكنها فعله سوى القراءة والترقُّب في منزلها الواقع بجانب التل في «كوي» بامتداد أطلال المدينة، حيث مات أبواها وأخوها، كانت متوتِّرة دائمًا، وإذا سمعت أي ضجَّة مفاجئة ينتابها الذُّعْر، وتضع كفيها على رقبتها، وظلَّت تعاني كثيرًا من ساقها التي استمر ألمها، كانت تدلكها باستمرار، وتربت عليها وكأنها تُخَفِّفُ بذلك شيئًا مما تجد.

* * *

استغرق الأمر ستة أشهر ليعود مستشفى الصليب الأحمر لوضعه الطبيعي، واحتاج الدكتور «ساساكي» لمدة أطول من ذلك، كان المستشفى مضطرًّا أن يُسَيِّر شؤونه مترنِّحًا بسبب نقص الطاقة الكهربائية التي يحتاج إليها، حيث كان يعتمد على مولِّد للجيش الياباني قابع في فنائه الخلفي، ثم تحسَّنت الأحوال مع استعادة المدينة لطاقتها الكهربائية.

كانت احتياجات المستشفى من تجهيزات معقَّدة وبسيطة؛ كتجهيزات غرفة العمليات، وأجهزة الأشعة السينية، وكراسي طبيب الأسنان، وغيرها، تتدفَّق إليه كهِبَات من المدن الأخرى.

وفي اليابان تُعَدُّ المظاهر والسمعة أمرًا مهمًّا حتى للمؤسسات، ولذا فقد أمر مدير مستشفى الصليب الأحمر بِصَبْغ واجهة المستشفى باللون الأصفر؛ ليكون في عين الناظر من الشارع أجمل مباني هيروشيما، في الوقت الذي لم تتوفَّر للمستشفى احتياجاته الأساسية من معدات طبية.

ظل الدكتور «ساساكي»، ولمدة أربعة أشهر كاملة، الجرَّاح الوحيد في الطاقم الطبي، ولم يغادر المستشفى تقريبًا طيلة تلك المدة، وبعد مدة بدأ تدريجيًّا يعاوِد الاهتمام بحياته الخاصة مرة أخرى، تزوَّج في مارس، واستعاد شيئًا من وزنه المفقود، وإن ظلَّت شهيته ضعيفة إلى حد ما، فقد كان قبل الانفجار معتادًا على أكل أربع كُرَات من الأرز في كل وجبة، لكنه بعد عامٍ لم يكن قادرًا على أكل أكثر من كرتين، كان يشعر بالتعب طيلةً الوقت، ويقول: «لكن عليَّ أن أدرك أن المجتمع بأسره مُتْعَب».

* * *

وهكذا فبعد عام من إسقاط القنبلة كانت الآنسة «ساساكي» معاقةً، والسيدة «ناكامورا» في عداد المعدومين، والأب «كلينزوغر» مريض يرقد في المستشفى مرة أخرى، والدكتور «ساساكي» عاجز عن تأدية الوظائف التي كان قادرًا عليها فيما سبق، وخسر الدكتور «فوجي» مستشفاه الذي استغرق منه سنوات عديدة لتأسيسه، ولم يكن هناك أي احتمال في إعادة بنائه، وكنيسة السيد «تانيموتو» قد دُمِّرَتْ، ولم يكن لديه تلك الحيوية الاستثنائية التي كانت تميِّزه فيما سبق.

حياة أولئك الستة، والذين كانوا يُعَدُّونَ من ضمن أكثر الناس حظًّا من أهل هيروشيما، لن تكون كما كانت، ومع تفاوُت مشاعرهم حيال ما مَرُّوا به من أحداث وتجارب، واختلاف آرائهم تجاه استعمال القنبلة الذرية، إلا أن إحدى المشاعر التي بَدَتْ مشتركة بينهم هي تلك الروح الجماعية العالية، روح تشبه شعور

أهل لندن بعد مباغتة هجوم خاطف، نوعٌ من الفخر والاعتزاز؛ لوقوفهم ووقوف بقية الناجين في وجه محنة مُرَوِّعَة.

قُبَيْل ذكرى الانفجار كتب السيد «تانيموتو» رسالة لأحد الأمريكان عبَّر فيها عن مشاعره قائلًا: «يا له من مشهد مُفْجِع، مشهد الليلة الأولى! في منتصف الليل نزلتُ على ضفة النهر حيث كان يتمدَّد عدد كبير جدًّا من المصابين على الأرض، مما اضطرَّني إلى شَقِّ طريقي بين أجسادهم المنهَكة بخطوات واسعة خشية أن أخطو على أحدهم.

كنت أُكَرِّر: «العفو»، وأنا أتقدَّم في طريقي، حاملًا معي طشتًا من الماء، وأُعطِي لمن أصادفه رَشْفَةً منه بكأس معي.

كانوا يتحامَلون على أنفسهم، ويرفعون رؤوسهم وصدورهم ليشربوا بعض الماء سريعًا، ويُريقون بغير قصدٍ بقية الماء، ثم يُعِيدون إليَّ الكأس شاكرين ومُمْتَنِّينَ، أحدهم قال لي: «لم أستطع إنقاذ أختي التي كانت تحترق تحت البيت؛ فقد كنت مشغولًا برعاية أمي التي أُصِيبَتْ بجرح غائر في عينها، وسرعان ما شبَّ الحريق في منزلنا، وبالكاد استطعنا الهرب، انظر، لقد فقدتُ بيتي، وعائلتي، وأخيرًا أُصِبْتُ في نفسي، ولكني الآن قد حزمت أمري، قرَّرت أن أُكَرِّس ما تبقَّى لديّ لاستكمال الحرب نصرةً لبلدي»، هكذا عاهَدني، وهكذا فعل النساء والأطفال أيضًا.

كنت مُتْعَبًا جدًّا فاستلقيتُ على الأرض بينهم، لكني لم أهنأ بشيء من النوم مطلقًا.

وفي صباح اليوم التالي وجدت العديد من أولئك الرجال

والنساء ممن سقيتُهم الماء البارحة قد فارقوا الحياة، ومضوا، لكن ما أثار دهشتي أنِّي لم أسمع واحدًا منهم يبكي بنواحٍ وعويل، على الرغم من أنهم كانوا يعانون آلامًا لا تُطاق.

لقد ماتوا في صمت، ومن دون ضغينة، وقد أطبقوا على أسنانهم، وأحكموا الضغط عليها بشدة لتحمُّل الألم.

كل ذلك لأجل الوطن!

أحد أعضاء كنيستي، الدكتور «هيراوا»، البروفيسور في جامعة هيروشيما للآداب والعلوم، كان قد دُفِنَ بسبب القنبلة تحت منزله المكوَّن من طابقين مع ابنه طالب جامعة طوكيو، لم يكن في مقدور واحد منهما التحرُّك ولو لسنتيمتر واحد بسبب الضغط الهائل عليهما، وبدأت النيران تشتعل في المنزل، نادى الابن على أبيه قائلًا: «أبي، ليس في مقدورنا فعل أي شيء سوى أن نَهَبَ حياتنا لأجل بلدنا، دعنا ندعو بالنجاة لإمبراطورنا»، وأخذ الأب يُرَدِّد خلف ابنه: «تينّو ـ هيكا بانزاي، بانزاي، بانزاي!»، قال الدكتور «هيراوا» معلقًا على الأمر بعد ذلك: «من الغريب أن أقول أني شعرت بسكينة وروح مُشْرِقَة مسالمة في قلبي، وأنا أهتف «بانزاي لأجل تينو»، ثم إن الابن استطاع التحرُّر، وقام بالحفر من أسفله وانتشل أباه، وهكذا استطاعَا النجاة.

أثناء استعادة الدكتور «هيراوا» لتلك الذكريات قال معلِّقًا: «يا له من حظ سعيد أن تكون يابانيًّا! كانت تلك أول مرة أتذوَّق فيها حلاوة تلك الروح الجميلة حين قرَّرت أن أموت في سبيل الإمبراطور».

الآنسة «كايوكو نوبوتوكي»، طالبة بالمرحلة الثانوية بمدرسة «هيروشيما جازابوين»، وإحدى أعضاء كنيستي، كانت تستريح بجوار سور معبد بوذي مع مجموعة من صديقاتها، وفي اللحظة التي انفجرت فيها القنبلة الذرية سقط السور عليهن، لم يكنَّ قادرات على التحرُّك بتاتًا تحت ثِقَل السور، ثم بدأ الدخان يتسرَّب إليهنّ، وأخذ يخنق أنفاسهن، إحدى الفتيات بدأت تغني «كيمي غا يو» ـ النشيد الوطني ـ وتبعتها الأخريات، ينشدن معها إلى أن مِتْنَ، إحداهن وجدت شقًّا في السور، وجاهدت كثيرًا لأجل الخروج، وحين أُخِذَتْ إلى مستشفى الصليب الأحمر قيل لها بأن صديقاتها قد قَضَيْنَ جميعًا، فاسترجعت مشهدهنَّ وهنَّ ينشدن جميعًا النشيد الوطني، كنّ في الثالثة عشرة من أعمارهن فقط.

نعم، لقد مات الناس في هيروشيما في ذلك الانفجار، متحلين بالشجاعة، معتقدين أن ذلك كله كان في سبيل الإمبراطور!».

* * *

عدد كبير من الناس في هيروشيما كانوا محايدين، وغير مبالِين بالتداعيات الأخلاقية لاستعمال القنبلة الذرية، لربما كانوا خائفين من مجرَّد التفكير في الموضوع، لم يهتم الكثير منهم حتى بمعرفة تفاصيل ما جرى.

كان تصوُّر السيدة «ناكامورا» مزيجًا من الرهبة والهيبة، وهو انطباع شائع بين الكثيرين، كانت تقول حين تُسأل عن القنبلة:

«كانت القنبلة الذرية بحجم علبة ثقاب، وحرارتها توازي ستة آلاف ضِعف حرارة الشمس، انفجرت في الهواء، وهناك بعض الراديوم فيها، لا أعرف تمامًا كيف تعمل، ولكن حين يتم وضع الراديوم بطريقة معينة فإنه ينفجر»، أما عن استعمال القنبلة فقد كانت تقول: «إنها حربٌ، وكان علينا توقع ذلك». ثم تضيف: «شيكاتا غا ـ ناي»، وهو تعبير ياباني شائع، شبيه بالتعبير الروسي «نيتشيفو» «nichevo»: «لا شيء يمكن القيام به، أوه، حسنًا إنه لحظ سيئ!».

كان تعليق الدكتور «فوجي» على استعمال القنبلة مشابهًا لهذا التعليق، حيث قال في أثناء حديث له مع الأب «كلينزوغر» في إحدى الليالي بالألمانية: «دا إزت نيشتز زو ماخن» « Da ist nichts zu machen» «ليس هناك ما يمكن فعله حِيَالَ ما جرى».

لكن استمرَّت مشاعر البُغض والكراهية تَجِيشُ في صدور كثير من أهل هيروشيما تجاه الأمريكان، ولم يكن هناك ما يمكنه محو ذلك.

قال الدكتور «ساساكي»: «بلغني أنهم يعقدون محاكمةً لمجرمي الحرب في طوكيو الآن، أعتقد أنه يتعيَّن محاكمة أولئك الذين قرَّروا استعمال القنبلة، يجب شنقهم جميعًا».

أما الأب «كلينزوغر» وبقية القساوسة الألمان فقد بَدَوْا أكثر قدرةً على تقديم رؤية أكثر حيادية لِمَا جرى، باعتبارهم مجموعة من الأجانب، وقد كانوا يتناقشون كثيرًا عن أخلاقيات استعمال القنبلة، كتب أحدهم، وهو الأب «سيميز»، والذي كان في

«ناغاتسوكا» وقت الهجوم، في تقرير له إلى الكرسي البابوي بروما: «بعضنا يَعُدُّ استعمال القنبلة واستعمال الغاز السامّ في تصنيف واحد، وأنه يجب إدانة استعمالها ضد المدنيين.

فيما ذهب آخرون إلى أنه في أحوال الحرب الشاملة، كما هو الحال في اليابان، فليس هناك فارق موضوعي بين المدنيين والجنود، وأن القنبلة نفسها كانت قوة فاعلة في إيقاف سيل الدماء، حيث أوصلت رسالة تحذير لليابان بأن عليهم الاستسلام تجنُّبًا لدمار شامل، بَدَا من المنطقي أن مَن تَقَبَّل نموذج الحرب الشاملة فليس في وسعه إدانة استهداف المدنيين.

جوهر المسألة إذن هو فيما إذا كانت الحرب الشاملة في شكلها الحالي مبرَّرةً وعادلةً، حتى لو كانت تخدم هدفًا عادلًا، أم أن ما تتضمَّنه في طياتها من شرور مادية وغير مادية مما يُعَدُّ نتيجة حتمية لها تفوق مقدار الخير الذي يمكن أن يترتَّب عليها، متى سيقدِّم لنا فلاسفة الأخلاق جوابًا واضحًا حيال هذا السؤال؟».

سيكون من المستحيل التكهُّن بحجم صور الرعب التي غُرِسَتْ في وعي الأطفال وعقولهم، أولئك ممن عاشوا يوم تدمير هيروشيما بالقنبلة، فعلى السطح كانت بالنسبة لهم مجرد مغامرة مُبْهِجَة، وهكذا ظلَّت في وعيهم بعد أشهر من وقوع الكارثة.

«توشيو ناكامورا»، الذي كان في العاشرة من عمره وقت الانفجار، أضحى بعد مدة قادرًا على التحدث بحرية، بل وبشيء من المرح والبهجة عن تجربته الخاصة مع الحدث، وقبل أسابيع قليلة من ذكرى الانفجار كتب لأستاذه في مدرسته «نوبوري ـ تشو»

الابتدائية ما نصُّه: «قبل يوم من الانفجار ذهبت للسباحة، وفي صباح ذلك اليوم أكلتُ بعض الفول السوداني، ثم رأيت نورًا، ووجدتني بعدها قد طِرْتُ إلى المكان الذي كانت أختي نائمة فيه، وحينما تم إنقاذنا كنت غير قادر على رؤية ما وراء الترام.

بدأت مع والدتي في تجهيز أغراضنا، وكان الجيران من حولنا يمشون وهم محترقون وينزفون، طلبت مني «هاتايا ـ سان» أن أهرب معها، لكني قلت لها بأني أريد أن أنتظر أمي.

وحين ذهبنا إلى المتنزَّه جاءت زوبعة، وفي الليل احترق خزَّان غاز، ورأيت انعكاس صورة اللهب في النهر.

بقينا في المتنزَّه لليلة واحدة.

وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى جسر «تايكو»، والتقيت بصديقتي «كيكوكي» و«وموراكامي».

كانتا تبحثان عن أُمَّيْهِمَا.

لكن والدة «كيكوكي» كانت مصابة، أما والدة «موراكامي» فقد ماتت للأسف».

الفصل الخامس

من حصاد الكارثة[1]

١ ـ «هاتسويو ناكامورا»

مع ما كانت تعانيه «هاتسويو ناكامورا» من ضعفٍ وفقرٍ، إلا أنها كانت على عتبات مشوار طويل من النضال، وهو نضالٌ سيمتدُّ لعدة سنوات قادمة، تسلَّحت فيه السيدة «ناكامورا» بالجرأة والشجاعة، كل ذلك في سبيل المحافظة على حياتها وحياة صغارها.

لقد تمكَّنت من إصلاح آلة الخياطة الصَّدِئَة من نوع «سانكوكو»، وبدأت تتلقى طلبات الخياطة، وأصبحت تعمل أيضًا في بيوت جيرانها، والذين كان وضعهم المالي أفضل نسبيًّا من وضعها، تكنس، وتنظِّف، وتغسل الملابس والصحون.

---

(١) كتب «هرسي» هذا الفصل بعد أربعين سنة من نشر الفصول السابقة في «النيويوركر»، حيث قام بزيارة هيروشيما لمعرفة أحوال أولئك الناجين الستة، وما آلت إليه أمورهم في أثناء الأربعين سنة التالية للكارثة، وقد ظهر هذا الفصل أول ما ظهر في الخامس عشر من يوليو سنة ١٩٨٥م على صفحات «النيويوركر» أيضًا، ثم أُلحق ببعض طبعات الكتاب؛ كالطبعة الصادرة عن «Penguin Books». (المترجم).

لكن سرعان ما كان يَهُدُّهَا التعب، فتضطر لأَخْذ يَوْمَيْ راحة في مقابل كل ثلاثة أيام عمل، وإن اضطرَّت لسبب ما للعمل لأسبوع كامل فستضطرُّ إلى الراحة لثلاثة أو أربعة أيام بعدها، لقد كان المال الذي تجنيه قليلًا جدًّا، وبالكاد يكفي لتوفير الطعام.

وفي هذه الظروف غير المستقرة سقطت مريضة، بدأ بطنها في الانتفاخ، وأصابها إسهال، وانتابتها آلام فظيعة لم تستطع معها أن تعمل بتاتًا، جاءها طبيب ممن كان يعيش قريبًا منها، وقام بفحصها، وأخبرها أنها تعاني من دودة أسطوانية، وقال لها على نحو خاطئ تمامًا: «إذا لدغت هذه الدودة أمعاءك فسوف تموتين».

في تلك الأيام كان هناك نقص حادٌّ في الأسمدة الكيماوية في اليابان كلها، مما اضطرَّ المزارعين معه لاستخدام البراز كسماد في مزارعهم، وقد تسبَّب ذلك في إصابة الكثيرين بالطفيليات، والتي لم تكن قاتلة في حدِّ ذاتها، لكنها مُنْهِكَة جدًّا لأولئك المصابين بالتسمُّم الإشعاعي.

عالَج الطبيب «ناكامورا ـ سان» ـ كما كان يخاطبها[1] ـ بالسانتونين، وهو دواء خطير إلى حد ما يُستخرج من أصناف معينة من الشيح، ولم يكن لديها ما تعطيه للطبيب، فاضطرَّت إلى بيع أغلى ممتلكاتها، آلة الخياطة التي ورثتها عن زوجها، كانت تلك اللحظة بالنسبة إليها أكثر لحظات حياتها حزنًا وتعاسة.

---

(١) (سان) تعني في اليابانية سيد أو سيدة، فناكامورا ـ سان تعني ببساطة: السيدة ناكامورا. (المترجم).

كان اليابانيون معتادين على تجنُّب استعمال مفردة «الناجون» لوصف أولئك الذي عاشوا تجربة تفجير هيروشيما وناغازاكي وخرجوا منها أحياءً، كانوا يشعرون أن التركيز على معامل «البقاء على قيد الحياة» يتضمَّن شيئًا من التحقير لقداسة الموتى، فكان الاسم الذي انْتُخِبَ لتسمية هذه الفئة التي كانت «ناكامورا ـ سان» تنتسب إليهم «الهيباكوشا»، وهي تسمية ذات دلالة حيادية نوعًا ما، وتعني حرفيًّا «الأشخاص المتضرِّرون من الانفجار».

وقد عاش «الهيباكوشا» لأكثر من عقد من الزمان بعد الانفجار أسرى حالة اقتصادية سيئة وغير مستقرة، وذلك فيما يبدو راجعٌ إلى أن الحكومة اليابانية لم تكن تريد أن تُثْقِل كاهلها بأعباء مسؤولية أخلاقية نتجت عن أفعال شنيعة للعدو الأمريكي المنتصر.

وعلى الرغم من أنه بات واضحًا أن العديد من «الهيباكوشا» كانوا يعانون عواقب تعرُّضهم للقنبلة الذرية، والتي كانت مختلفة تمامًا في طبيعتها ودرجة تأثيرها من تلك التفجيرات الْمُرَوِّعَة في طوكيو وغيرها، فإن الحكومة لم تتخذ أية تدابير استثنائية لإسعافهم أو إعانتهم، ولم تبدأ الحكومة في التحرُّك في هذا المضمار حتى اجتاحت اليابان عاصفة من السخط العارم على إثر تعرُّض ثلاثة وعشرين بحارًا على سفينة الصيد المسماة «التنين المحظوظ رقم ٥»، وحمولتها من أسماك التونا، لإشعاعات قنبلة هيدروجينية تجريبية كان الأمريكان قد فجَّروها في منطقة «بيكيني» سنة ١٩٥٤م، لكن الأمر استغرق ثلاث سنوات ليتم تمرير قانون

إعانة «الهيباكوشا» في البرلمان، ومع أنه لم يكن بإمكان «ناكامورا ـ سان» أن تعلم بذلك، فقد كانت أمام مرحلةٍ قاتمةٍ في حياتها.

فإلى جانب كَوْن السنوات الأولى لزمن ما بعد الحرب في هيروشيما مرحلةً قاسيةً وشاقةً، خصوصًا على الفقراء والمعوزين من أمثالها، فقد كانت أيضًا مرحلة اضطرابات، وجوع، وطمع، وجشع، وسرقات، وأسواق سوداء.

لقد كان أرباب العمل من غير «الهيباكوشا» متحيِّزين ضدهم، خصوصًا بعد انتشار شائعة أنهم أكثر عرضةً لأنواع متعدِّدة من العلل والأمراض، حتى أولئك من أمثال «ناكامورا ـ سان» ممن لم تلحقهم تشوُّهات شديدة، ولم تظهر عليهم أعراض مرضية خطيرة، كانوا في نظرهم عمالةً غير جيدة، ولا يُمكن الاعتماد عليهم، وفي الواقع فقد كان أكثرهم ـ وهي معهم ـ يعانون كما يبدو من وعكة واعتلال بات يُعْرَف مع مرور الوقت بمرض القنبلة الذرية المزمن، حيث تظهر على أصحابه أعراض التعب والإجهاد الدائم، مع شيء من الدوار بين الحين والآخر، بالإضافة إلى مشاكل في الجهاز الهضمي، وبمرور الوقت تفاقَم شعور «الهيباكوشا» بالقهر، وتنامى إحساسُهم بأنه قد حُكِمَ عليهم بالهلاك؛ إذ بلغ مسامعَهم أن هذا المرض الشنيع قد يغرز زهوره الفاسدة في أي وقت في أجسادهم، بل وفي أجساد ذريتهم.

كانت «ناكامورا ـ سان» تكافِح من أجل العيش يومًا بيوم، ولم يكن لديها وقت لتتخذ موقفًا محدَّدًا من القنبلة أو أي شيء

آخر، واستطاعت أن تحافظ على اتزانها النفسي بطريقة غريبة، وذلك من خلال نوع من التعامل السلبي مع الواقع، وهي سلبيةٌ يمكن اختصارها في عبارة كانت تُكْثِر من تردادها: «شيكاتا غا ـ ناي»، وتعني على نحو فضفاض: «ليس هنالك ما يمكن فعله».

لم تكن متديِّنة، لكنها عاشت في ثقافة قد اصطبغت لفترة طويلة بالعقائد البوذية التي تقول بأن الاستسلام والخضوع قد يوصل المرء إلى البصيرة، وقد كانت تشارك غيرها شعورًا عميقًا بالعجز أمام سلطة دولةٍ تكتسب قوةً إلهيةً منذ استعادة الميجي في عام ١٨٦٨م، وكان الجحيم الذي شهدته بعواقبه الوخيمة التي بدأت تتكشَّف من حولها يفوق قدرتها على الاستيعاب، فكيف يمكن لبشرٍ أن يفعل شيئًا كهذا؟! كيف أمكن لقائد طائرة «إينولا غاي»، أو الرئيس ترومان، أو العلماء الذين صنعوا القنبلة، أو حتى أولئك الأقربين من أفراد الجيش الياباني والذين أسهموا في تفجير الحرب أن يخلِّفوا كلَّ هذا الدمار؟! لقد بَدَا الانفجار كما لو كان كارثةً طبيعية، كارثة تكشف ببساطة حظها العاثر، وقدرها المحتوم، والذي يتعين عليها قبوله، بكل ما يحمله من معاناة.

وحين تعافت قليلًا وشعرت بالتحسُّن قامت ببعض الترتيبات للعمل في توصيل الخبز لخبَّازٍ يدعى «تاكاهاشي»، والذي كان يملك مخبزًا في «نوبوري ـ تشو»، ففي الأيام التي كانت تتمتع فيها بالقوة الكافية لأداء هذه المهمة فإنها تجمع أوامر شراء الخبز من محلات بيع التجزئة بحيِّها، ثم تذهب في صباح اليوم التالي لجلْب العدد المطلوب من أرغفة الخبز، وتحملها في سلال

وصناديق معها، شاقةً طريقها بين الشوارع لتصل إلى تلك المحلات، كان عملًا مرهقًا، ولم تكن تجني من خلاله إلا ما يعادل خمسين سنتًا في اليوم، وكانت تضطر لأخذ أيام راحةٍ على نحو متكرِّر.

وبعد مرور بعض الوقت، وحين شعرت بأنها قد استردَّت شيئًا يسيرًا من قوتها، انتقلت للون آخر من العمل، صارت تستيقظ في ظلمة الليل، وتدحرج أمامها عربة ذات عجلتين كانت قد استعارتها، لتقطع بها المدينة في رحلة تمتد لساعتين حتى تصل لمقاطعة «إيبا» عند مَصَبِّ أحد الأنهار السبعة المتفرِّعة من نهر «أوتا» الذي يخترق هيروشيما.

وهناك، ومع طلوع الشمس، كان الصيَّادون ينشرون شباكهم لصيد أسماك السردين، فكانت تساعدهم في جَمْع ما يصيدونه بعد سحب الشباك، وبعد الانتهاء تعود أدراجها إلى «نوبوري ـ تشو» وهي تدفع عربتها محمَّلة بالأسماك لتبيعه بالنيابة عنهم، متنقِّلةً من منزلٍ لآخر، وكان ذلك يكفيها لتوفير الطعام.

وبعد عدة سنوات استطاعت الحصول على عملٍ أكثر ملاءمة لظروفها وما تحتاجه من أوقات راحة عارضة؛ إذ كانت ـ وفي ضمن حدود معينة ـ قادرة على القيام به في الوقت الذي يناسبها، كان عملها هذا يتطلَّب منها جَمْع ثمن الاشتراك بصحيفة هيروشيما «شوغوكو شيمبون»، والتي كان يقرؤها معظم الناس في المدينة، وكان يتعيَّن عليها تغطية مساحة كبيرة لتحصيل المال من المشتركين، والذين غالبًا لم يكونوا في منازلهم، أو عاجزين عن

دَفْع المستحقات المالية التي عليهم، ولذا كانت تضطر للعودة إليهم مرة بعد الأخرى، وكانت تحصل من هذا العمل على ما يوازي عشرين دولارًا تقريبًا في الشهر، وبَدَا أن قوة إرادتها وما تمر به من تعب ووهن يصطرعان يوميًّا، لتصل في النهاية إلى تعادُلٍ مضني.

وفي عام ١٩٥١م، وبعد سنوات من هذا العمل الشاق، كانت مع موعد مع الحظ السعيد، أو لِنَقُل قدرها (الذي يجب أن يكون مقبولًا)، إذ أصبحت مؤهَّلةً للانتقال إلى منزل أفضل.

فقبل عامين قام بروفيسور في علم الأشجار من جامعة واشنطن، وعضو جمعية كنسية تُعْرَف بكويكر، أو جمعية الأصدقاء الدينية، بالذهاب إلى هيروشيما، كان يدعى «فلويد شموي»، وقد جاء إلى هنا كما يبدو محرَّكًا بدوافع عميقة، رغبةً في التكفير عن جريرة، وطمعًا في تحقيق مصالحة، وبمجرد وصوله قام بتنظيم مجموعة من النجَّارين، وبدأ العمل معهم، واستطاع بيديه وبأيديهم أن يبني سلسلة من البيوت وفق الطراز الياباني لضحايا القنبلة، وأتموا فعلًا بناء واحد وعشرين منزلًا، وكان أحد هذه المنازل من نصيب «ناكامورا ـ سان».

كان اليابانيون يقيسون مساحة منازلهم بمضاعفات المساحة التي يمكن لحصيرة «تسوبو» تغطيتها، وهي أقل قليلًا من ثلاثة أمتار مربعة، وكانت هذه المنازل ـ منازل «الدكتور شوم ـ أو»، كما يسميها أهل هيروشيما ـ مكونةً من غرفتين، ومساحة كل منهما توازي ستة حصر.

لقد كان الحصول على هذا المنزل خطوة كبيرة لعائلة «ناكامورا»، وكان منزلًا يفوح منه رائحة الخشب الجديد، والحصر النظيفة، وكان إيجاره والذي يُدفع إلى حكومة المدينة يعادل نحو دولار واحد في الشهر.

وبالرغم من فقر العائلة، فقد بَدَا أن الأطفال يكبرون بشكل طبيعي، ومع أن «يايكو» و«مِيَكُو» ابنتي السيدة «ناكامورا» كانتا تعانيان من فقر الدم، إلا أن الأطفال الثلاثة نجوا من أي مضاعفات أكثر خطورة كان يعاني منها كثير من صغار «الهيباكوشا».

كانت «يايكو» في الرابعة عشرة من عمرها، و«مِيَكُو» في الحادية عشرة، وكلاهما تدرسان في المرحلة المتوسطة، أما الصبي «توشيو» فكان جاهزًا لدخول المدرسة الثانوية، لكن كان يتعيَّن عليه توفير المال لذلك، ولذا فقد تولى مهمة توصيل الصحف لتلك المنازل التي كانت أمه تجمع منها المال، وقد كانت هذه المنازل بعيدة نوعًا ما من منزل «الدكتور شوم ـ أو» الخاص بهم، فكان عليهم الذهاب إليها في ساعات غريبة بواسطة الترام.

كان كوخهم القديم في «نوبوري ـ تشو» فارغًا لبعض الوقت، وبينما كانت «ناكامورا ـ سان» تواصل عملها في جمع المال الخاص بالصحيفة قامت بتحويل ذلك الكوخ إلى محل صغير للأطفال، تَبِيع من خلاله البطاطا الحلوة المشوية، و«الدغاشي»، أو الحلوى الصغيرة، بالإضافة إلى كعك الأرز،

ولعب الأطفال الرخيصة، والتي كانت تشتريها من محلات بيع الجملة.

وطوال وقت عملها في الصحيفة كانت تتواصل مع شركة صغيرة تسمى «سوياما» للمواد الكيميائية؛ لاستلام ما عليها من مستحقَّات مالية، وكانت هذه الشركة تصنع كرات النفتالين، والتي تباع تحت الاسم التجاري «باراغن».

كانت إحدى صديقاتها تعمل هناك، واقترحت عليها في يوم ما أن تنضم معها للعمل في الشركة، في تغليف المنتج في عبواتها الخاصة، كان مالك الشركة ـ وبخلاف كثير من أرباب العمل المتحيِّزين ضد «الهيباكوشا» ـ رجلًا رحيمًا ومتعاطفًا، وكان من ضمن الطاقم العامل عنده عدد من «الهيباكوشا».

أبدت «ناكامورا ـ سان» معارضتها لهذا المقترح، معلِّلة الأمر بأنها لا تستطيع العمل إلا لأيام محدودة على حِدَة، لكن صاحبتها أقنعتها بأن السيد «سوياما» سيتفهَّم وضعها، وفعلًا انضمت للشركة، وابتدأت العمل.

كانت النساء يرتدين زي الشركة، ويَقِفْنَ مُنْحَنِيَات إلى الأمام قليلًا على أحد جانبي السير المتحرك، ويعملن بأسرع ما يمكنهن في تغليف نوعين من «الباراغن» في السيلوفان، وكان «للباراغن» رائحة نفَّاذة تصيب بالدوار، وعند التعرُّض لها للوهلة الأولى فإنها تسبِّب حرقان العين، كانت مُصنَّعةً من بودرةِ مادةِ «paradichlorobenzene»، والتي تكون مضغوطةً على شكل أقراص، ويتم تحويلها إلى كرات أكبر بحجم برتقالة صغيرة، ليتم

تعليقها في المراحيض اليابانية، حيث يصدر عنها رائحة نفَّاذة تقابل الرائحة الكريهة من الحمَّامات التي لا تصرف فيها المياه، وكانت «ناكامورا ـ سان» تتقاضى على عملها هذا كونها مبتدئة مائة وسبعين ينًّا ـ وهو أقل من خمسين سنتًا ـ في اليوم.

في البداية كان العمل مُرْبِكًا لها، ومُتْعِبًا بشكل رهيب، ومُقَزِّزًا إلى حد ما، انتاب رئيسها بعض القلق نتيجة شحوبها، وكانت مضطرَّة للاعتذار عن عدم الحضور لعدد من الأيام، ولكنها بدأت تعتاد على المصنع شيئًا فشيئًا، واستطاعت تكوين عدد من الصداقات، كان الجو هنا أسريًا، وبدأت شيئًا فشيئًا تحصل على بعض العلاوات.

في فترتي الراحة التي تمتد لعشر دقائق، مرةً في الصباح، ومرةً في المساء، حين يتوقَّف السير عن التحرُّك، كانت ترتفع أصوات العاملات في القِيل والقال والضحك، وكانت «ناكامورا ـ سان» تشاركهن الحديث والضحك، ظهر أن هناك جانبًا مخفيًّا بعمق في طبيعتها طيلة الوقت، جوهرٌ من البهجة مركوز فيها، والذي كان يُزَوِّدُها حتمًا بالقوة اللازمة لمجابهة إنهاك القنبلة الذرية، كان شيئًا باعثًا على الحياة وأكثر دفئًا من مجرَّد موقف الاستسلام السلبي، وترداد: «شيكاتا غا ـ ناي».

تعلَّقت بها الأخريات، فقد كانت تقدِّم لهن باستمرار خدماتٍ صغيرةً، وكن ينادينها بمودةٍ وحبٍّ «أوبا ـ سان»، والتي تعني تقريبًا «خالة».

عملت في «سوياما» لثلاث عشرة سنة، وعلى الرغم من أنها

كانت تدفع من حين لآخر ضريبة متلازمة القنبلة الذرية من رصيد طاقتها، إلا أن تجربتها الأليمة في ذلك اليوم من سنة ١٩٤٥م أخذ في التراجع تدريجيًّا من دائرة وعيها.

كانت حادثة «التنين المحظوظ رقم ٥» قد وقعت في سنة ١٩٥٤م، وهي السنة التالية من بَدْء «ناكامورا ـ سان» العمل في «سوياما» للكيماويات، وفي فورة الغضب التي اجتاحت البلاد على إثر هذا الحدث أضحى ملف توفير رعاية صحية لائقة بضحايا قنبلتي هيروشيما وناغازاكي قضية سياسية أخيرًا.

وفي كل عام تقريبًا منذ عام ١٩٤٦م، وأثناء الذكرى السنوية لقصف هيروشيما ينعقد اجتماع سلام تذكاري في حديقة كان مُخَطِّطُو المدينة قد خصَّصوها أثناء أعمال إعادة بناء المدينة كمركز للذكرى، وفي السادس من أغسطس سنة ١٩٥٥م اجتمع نواب ومُفَوَّضُون من جميع أنحاء العالم هناك في المؤتمر العالمي الأول لمكافحة القنابل الذرية والهيدروجينية.

وفي اليوم الثاني لهذه المؤتمر تقدم عددٌ من «الهيباكوشا» ليُدْلُوا بشهادتهم بعيونٍ دامعةٍ من إهمال الحكومة لمحنتهم.

تحمَّلت الأحزاب السياسية اليابانية قضيتهم، وفي عام ١٩٥٧م مرَّر البرلمان أخيرًا قانون الرعاية الصحية لضحايا القنبلة الذرية، تضمَّن هذا القانون بتعديلاته اللاحقة تحديد أربع فئات ممن سيكون مؤهَّلًا للحصول على الدعم الصحي: أولئك الذين كانوا في ضمن حدود المدينة في يوم الانفجار، وأولئك الذين دخلوا إحدى المناطق الواقعة في نطاق كيلومترين من مركز

الانفجار في الأربعة عشر يومًا الأولى من الانفجار، وأولئك الذين كان لهم تواصل جسدي مع ضحايا القنبلة، بتقديم الإسعافات الأولية، أو في التخلُّص من جثث الموتى، وأولئك الذين كانوا أَجِنَّةً في أرحام أي من النساء من الفئات الثلاث الأولى.

كان القانون يقضي بتسليم هؤلاء «الهيباكوشا» ما يسمَّى بالدفتر الصحي، والذي سيؤهلهم لرعاية صحية مجانية، وبموجب تنقيحات تالية لهذا القانون حَظِيَ ضحايا القنبلة ممن يعانون من مختلف آثاره البَعْدِيَّة على مخصَّصات مالية شهرية أيضًا.

حرصت «ناكامورا ـ سان»، شأنها في هذا شأن كثير من «الهيباكوشا»، على أن تنأى بنفسها بعيدًا عن كل ما يمكن أن يثير الاضطراب، أو يهيِّج الرأي العام، بل إنها لم تكلِّف نفسها ـ كشأن الكثير من الناجين ـ حتى عناء الحصول على الدفتر الصحي، وذلك بعد صدوره، ولم تسعى لاستلامه إلا بعد عدة سنوات.

كانت عاجزة عن الذهاب إلى الأطباء باستمرار بسبب فقرها الشديد، ولذا فقد كانت تتصبَّر وحدها، بقدر ما تستطيع في وجه ما يَعْرِض لها من أمراض وأوجاع، وإلى جانب ما سبق، فقد كانت تنظر بعين الرِّيبَة ـ ككثير من الناجين ـ إلى الدوافع الخفية لأولئك السياسيين الذين يشاركون في تلك الاحتفالات والمؤتمرات السنوية.

التحق ابنها «توشيو» بعد تخرُّجه مباشرة من المدرسة الثانوية

بالخطوط الحديدية الوطنية اليابانية ليعمل في قسم الحافلات، في البداية كان يعمل في المكاتب الإدارية على الجداول الزمنية للحافلات، ثم انتقل للعمل في مجال المحاسبة.

وحين بلغ منتصف العشرينات من عمره تم ترتيب أمر زواجه من خلال إحدى القريبات ممن كانت على معرفة بعائلة العروس. بنى ملحقًا بمنزلهم، وانتقل إليه، وبدأ يساعد في إعالة أمه، وقدَّم لها ماكينة خياطة جديدة كهدية.

أما «يايكو»، البنت الكبرى، فمع بلوغها الخامسة عشرة من عمرها وتخرُّجها في المدرسة المتوسطة غادرت هيروشيما مباشرة، وذلك لمساعدة عمَّتها المريضة التي كانت تدير «رايكان»، وهو نُزُلٌ على الطراز الياباني، وهناك، ومع بعض الوقت، وقعت في حب رجلٍ كان يأكل في مطعم النُّزُل وتزوَّجته، فكان زواجًا ناشئًا عن الحب.

أما البنت الصغرى «مِيَكُو»، والتي كانت أكثر إخوتها عُرضةً لمتلازمة القنبلة الذرية، فقد تخرَّجت من المرحلة الثانوية، وأصبحت في نهاية المطاف مختصة في الطباعة على الآلة الكاتبة، وصارت تقدِّم دروسًا في ذلك في مدرسة الطباعة، وبمرور الوقت تم ترتيب أمر زواجها أيضًا.

وجميعهم كانوا ـ كوالدتهم ـ بعيدين عن إبداء المناصرة لقضايا «الهيباكوشا»، أو ركوب موجة التحريض ضد الأسلحة الذرية.

وبحلول سنة ١٩٦٦م تقاعدت «ناكامورا ـ سان» من العمل

في شركة «سوياما» للكيماويات، بعد أن بلغت الخامسة والخمسين، وبلغ مرتبها ثلاثين ألف ينٍّ شهريًّا، وهو ما يعادل خمسة وثمانين دولارًا تقريبًا، لم يَعُدْ أولادها يعتمدون عليها، وكان «توشيو» على استعداد لتحمُّل مسؤولية ابنٍ اتجاه أمه التي بدأت تتقدَّم في السن.

لقد شعرت بالراحة أخيرًا، فقد كان بإمكانها أن تستريح في الوقت الذي تريد، ولم تكن لديها أية مخاوف بخصوص تكاليف الرعاية الطبية؛ إذ إنها قد استلمت دفترها الصحي برقم ١٠٢٣٩٩٣، لقد حان الوقت لتستمتع بحياتها، ولأنها كانت تستمتع كثيرًا بتقديم الهدايا لمن حولها، فقد التقطت عادة التطريز وخياطة فساتين دُمى «كيمِيَكُومي»، والتي من المفترض أن تجلب الحظ السعيد.

كانت تذهب أسبوعيًّا إلى مجموعة لتعليم الموسيقى الشعبية اليابانية، مرتديةً «كيمونو» متألقًا للرقص، وعلى وقع حركات مضبوطة، وبإشارات معبرة، وبيدين تثنيان طيات أكمام «الكيمونو» الطويلة بين الحين والآخر، وبرأس مرفوعة نحو الأعلى، كانت ترقص وتتحرك وكأنها تطفو، برفقة ثلاثين امرأة مطاوِعة إلى كلمات أغنية احتفال دخول المنزل:

لتزدهر عائلتك،

لألف جيل،

لثمانية آلاف جيل.

وبعد نحو عام من تقاعد «ناكامورا ـ سان» دُعِيَت مِن قِبَل منظمة تدعى جمعيةً عائلات الثكالى، للذهاب في رحلة قطارٍ برفقة حوالي مائة ممن تَرَمَّلْنَ في الحرب لزيارة ضريح «ياسكوني» في طوكيو، أُسِّسَ هذا المكان المقدس في عام ١٨٦٩م، وخُصِّصَ لأرواح كل اليابانيين الذين لقوا حتفهم في حروب ضد قوى أجنبية، ويبدو مماثلًا إلى حد ما من حيث رمزيته للأمة اليابانية، لمقبرة «أرلينغتون» الوطنية[١]، مع فارق واحد، وهو أن الأرواح وليس الأبدان هي المقدسة هنا.

كان كثير من اليابانيين يعتبر هذا الضريح مركزًا للروح العسكرية اليابانية المشتعلة، ولكن الأمر بالنسبة «لناكامورا ـ سان» كان مختلفًا، فهي التي لم تَحْظَ برؤية رفات زوجها، وظلَّت متعلقة بأمل عودته في يوم ما، وعاشت حياتها غافلة عن كل ما يدور حولها هنا، وقد وجدتْ أمر هذه الزيارة مُحَيِّرًا لها، كانت هناك حشود ضخمة من نساء المدن الأخرى عند الضريح، بالإضافة إلى نساء هيروشيما المائة اللاتي رافقتهن «ناكامورا ـ سان»، لكنها لم تستطع أبدًا أن تستدعي أي إحساس بشبح زوجها المتوفى، وعادت من رحلتها وهي منزعجة.

كانت اليابان تزدهر، لكن معاناة عائلة «ناكامورا» من قلة ذات اليد لم تنقطع، مما اضطر «توشيو» للعمل لساعات طويلة

(١) وهي مقبرة من المقابر الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية، تَقع في مقاطعة «أرلنغتون» بولاية «فيرجينيا» بالقرب من نهر بوتوماك، وفيها دُفِن قتلى الصراعات في البلاد بدءًا من الحرب الأهلية الأمريكية وحروب سابقة أُخرى. (المترجم).

جدًّا، مع ملاحظة أن حجم المعاناة اليوم لا يقارَن بما كانت تواجِهه العائلة سابقًا، فقد بَدَا أن تلك الأيام الخوالي، أيام الصراع المرير، باتت نائية بعيدة.

وفي عام ١٩٧٥م تم مراجعة أحد قوانين دعم «الهيباكوشا»، وحصلت «ناكامورا ـ سان»، نتيجة لهذه المراجعة، على بدل حماية صحية بمقدار ستة آلاف ينّ، وهو ما يعادل في ذلك الوقت حوالي عشرين دولارًا في الشهر، وهذا الرقم سيزداد تدريجيًّا ليصل إلى الضعفين.

كما حصلت أيضًا على راتب تقاعُدي من عملها في شركة «سوياما» يمثِّل عشرين ألف ينّ، أو ما يعادل خمسة وستين دولارًا شهريًّا، ولعدة سنوات كانت تحصل على إعانة أرملة حرب، وهو الآخر يعادل عشرين ألف ينّ أيضًا.

ومع ازدهار الوضع الاقتصادي للبلاد فقد ازدادت الأسعار بطبيعة الحال بشكل حادّ، (في غضون سنوات قلائل ستصبح طوكيو أغلى مدينة في العالم)، ورغم غلاء المعيشة إلا أن «توشيو» تمكَّن من شراء سيارة ميتسوبيشي صغيرة، وكان أحيانًا يصحو باكرًا قبل الفجر ويستقل قطارًا لمدة ساعتين ليلعب الغولف مع بعض رجال الأعمال.

وكان زوج «يايكو» يُدير محلًّا لبيع أجهزة التكييف والسخَّانات، فيما كان زوج «مِيَكُو» يعمل في كشك لبيع الصحف والحلوى بالقرب من محطة السكة الحديدية.

في شهر مايو من كل عام، ومع اقتراب عيد ميلاد

الإمبراطور، حين تكون الأشجار على طول شارع السلام في أجمل أحوالها، وحين تُزهِر «الأزاليات» في كل مكان، تحتفل هيروشيما بمهرجان الزهور، في هذا الشارع تصطف أكشاك الترفيه، وعلى طوله تمتد مواكب استعراضية طويلة بعرباتها المزيَّنة وفرقها الموسيقية، وآلاف المشاة.

وبعد أربعين سنة من انفجار القنبلة الذرية كانت «ناكامورا ـ سان» هنا، ترقص مع صويحباتها من جمعية الرقص الشعبي، ست راقصات في كل من الستين صفًّا، كن يرقصن على إيقاع أغنية تبعث على السعادة ـ «أواي ـ أوندو» ـ يرفعن أيديهن بإشارة تدل على البهجة، ويصفِّقن على إيقاع ثلاثي:

أشجار الصنوبر الخضراء، وطيور الكركي، والسلاحف...

يجب عليك أن تحكي قصةً عن أزمانك القاسية.

وتضحكي مرتين.

لقد مضى على انفجار القنبلة أربعة عقود، كم يبدو هذا الحدث بعيدًا الآن!

كانت الشمس تُلهِب الجو بحرارتها، وكانت الخطوات المحسوبة، ورفع الأيدي باستمرار لساعات في كل مرة مرهقًا، وحين انتصف النهار شعرت «ناكامورا ـ سان» فجأةً بشيء من الدوار، ثم لم تَدْرِ إلا وهي محمولة إلى سيارة إسعاف، كان الأمر مُخْجِلًا جدًّا بالنسبة لها، وبالرغم من توسُّلاتها بأن يتركوها وشأنها، إلا أنهم وضعوها في سيارة الإسعاف ونقلوها للمستشفى.

وحين وصلت للمستشفى أخبرتهم بأنها على ما يرام، وأنها ترغب فقط في الذهاب لمنزلها، فسُمِح لها بالمغادرة.

٢ ـ الدكتور «تيروفومي ساساكي»

كانت ذاكرة الدكتور «تيروفومي ساساكي» لا تزال مُثْقَلةً بمشاهد تلك الأيام والليالي الْمُرَوِّعَة التي أَعْقَبَت الانفجار مباشرة، وهي ذكريات سيسعى جاهدًا بكل ما يستطيع أن يتناساها، أو يتغافل عنها طيلة حياته.

استمر في عمله كجرَّاح مبتدئ في مستشفى الصليب الأحمر، وإلى جانب عمله هذا كان عليه أن يعمل على أطروحته للدكتوراه حول مرض السُّلّ، وذلك في يوم الخميس أسبوعيًّا في جامعة هيروشيما.

وكما جرت العادة في اليابان، فقد سُمِحَ له بمزاولة العمل كطبيب بعد تخرُّجه من كلية الطب مباشرة، كان معظم أطباء الامتياز يأخذون خمس سنوات دراسية إضافية للحصول على درجة الدكتوراه، أما هو فقد استغرق الأمر منه، ولأسباب مختلفة، عشر سنوات، وكان يتنقَّل في تلك السنة بين هيروشيما وبين مدينته الصغيرة «موكايهارا»، حيث تعيش والدته، في رحلة تستغرق ساعة كاملة بالقطار.

كانت عائلته ثرية، وسيتَّضح مع مرور السنوات (كما أدركه عدد كبير من أطباء اليابان) بأن أفضل دواءٍ وأكثره فعالية لمعالجة أي مرض سيكون المال، إما نقدًا، أو على الحساب، وكلَّما

كانت الجرعة أكبر كلَّما كان أفضل، كان جدُّه يملك عددًا من الأراضي، وقد استطاع أن يتملَّك مساحات واسعة من غابات جبلية نفيسة، وكان والده المتوفَّى ـ وهو طبيب ـ قد حصَّلَ ثروة جيدة من عيادته الخاصة.

وخلال فترة الاضطرابات وأوقات الجوع والجريمة التي أعقبت الانفجار اقتحم اللصوص اثنين من مستودعات التخزين المحصَّنة بجوار منزل والدته، وسرقوا العديد من مقتنيات العائلة الثمينة، بما في ذلك علبة مصبوغة بالورنيش كانت قد أُعْطِيَت لجدِّه من قِبَل الإمبراطور، بالإضافة إلى حقيبة عتيقة لفرش الكتابة وعلب الحبر، ولوحة كلاسيكية لنمر قيمتها وحدها عشرة ملايين ينّ، أو أكثر من خمسة وعشرين ألف دولار.

كان زواجه مستقرًّا وهانئًا، فقد كان قادرًا على الاختيار بحسب ذوقه ومزاجه، لم يكن هناك العديد من الشبان المؤهَّلين للزواج في «موكايهارا»، ولذا فقد تواصَل معه عدد من الخُطَّاب، راغبين في معرفة ميوله ورغباته، وتابع الأمر فعلًا مع بعض أولئك ممن يفتِّشون ويجسُّون النبض، ثم تقدَّم بواسطة واحد منهم لخطبة ابنة أحدهم، لكن طلبه قد رُفِض.

لربما كان الأمر عائدًا إلى سمعة الدكتور «ساساكي» كولد شقيٍّ جدًّا، أو كما كان يصفه البعض بالفتى اللَّعُوب، ولربما عَلِمَ الأب بشأن ما كان يقدِّمه لبعض مرضى مدينته من علاج غير نظامي، وذلك في مَساءاته بعد أن ينتهي من دوامه بمستشفى الصليب الأحمر، فكان رَفْض الأب بسبب حَذَرِه الْمُفْرِط، يمكن

القول بأن هذا الأب لم يطبِّق المثل الياباني القائل: «لا تَعْبُر جسرًا حديديًّا قبل فحصه جيدًا»، بل تجاوَزَ هذه الوصية، فلم يعبُر الجسر حتى بعد فحصه.

لم يَعْتَد الدكتور «ساساكي» على أن يُرْفَض له طلب، ولذا فقد قرَّر أن هذه الفتاة هي الفتاة التي يرغب في الاقتران بها، وبمساعدة وإصرار اثنين من الوسطاء استطاع الفوز بموافقة هذا الوالد المتخوِّف، والآن، وبعد زواجه بأشهر يسيرة فقط، أدرك سريعًا بأن زوجته كانت تفوقه حكمةً وعقلًا.

كثير من الحالات التي سيعمل عليها الدكتور كجرَّاح في مستشفى الصليب الأحمر في السنوات الخمس المقبلة كانت تتمثَّل في إزالة ندوب الجَدَرَة، وهي ندوب مُخِيفَة وبشعة، وسميكة، ومطَّاطية، ومثيرة للحَكَّة، وذات لون نحاسي أحمر، تنشأ عادة فوق الحروق السيئة التي عانى منها «الهيباكوشا»، خاصة أولئك الذين تعرَّضوا لحرارة القنبلة الهائلة في حدود كيلومترين من مركز الانفجار النووي.

كان الدكتور «ساساكي» وزملاؤه يضربون في عماية، ويتلمَّسون طريقهم في الظلام؛ إذ لم تكن لديهم أيَّة دراساتٍ مُحْكَمَةٍ يمكن الاعتماد عليها لإرشادهم لكيفية معالجة تلك الندوب، ووجدوا أنهم بعد إزالتها فإنها غالبًا ما تعاوِد الظهور من جديد، وإذا ما تركوها من غير علاج فإن بعضها يُصاب بالالتهاب، مما يتسبَّب في شدِّ العضلات الكامنة تحتها، وصل هو وزملاؤه في نهاية المطاف إلى قناعة بأنه كان يتعيَّن عليهم عدم

معالجة الكثير من تلك الندوب، فقد كانت تلك الندوب تميل مع الزمن للانكماش تلقائيًّا، ويمكن بعد ذلك استئصالها بسهولة، أو تركها وشأنها.

في سنة ١٩٥١م قرَّر الدكتور «ساساكي» تَرْكَ العمل في المستشفى، تاركًا فيها ذكرياته الفظيعة، وليؤسِّس لنفسه ـ كما فعل والده من قبل ـ عيادةً خاصةً في «موكايهارا»، لقد كان طموحًا، وكان لديه أخ أكبر، والذي كان يتوقَّع منه ـ وفقًا لأعراف العوائل الطبية ـ أن يَحْذُوَ حَذْوَ أبيه، ويصبح هو الآخر طبيبًا مثله، أما الابن الثاني فكان يُتَوَقَّع منه أن يشق لنفسه طريقه الخاص، وفي سنة ١٩٣٩م، واستجابة للدعاية المنتشرة في ذلك الوقت بالسعي للحصول على الثروة من تلك المناطق غير المستغَلَّة في الصين، رحل «تيروفومي ساساكي» إلى هناك للدراسة في جامعة الشرق اليابانية في «تسينغتاو»، وتخرَّج فيها، ليعود إلى هيروشيما قبل وقت قصير من إلقاء القنبلة، كان شقيقه قد قُتِل في الحرب، فكان الطريق واضحًا أمامه، ليس فقط ليؤسِّس لنفسه عملًا في بلدة والده، ولكن لينسحب من هيروشيما، وبالتالي من أن يكون «هيباكوشا»، وعلى مدى العقود الأربعة التالية فإنه لم يتحدَّث مطلقًا مع أي شخص عن الساعات والأيام التي أعقبت الانفجار.

كان الدكتور «ساساكي» على ثقة بأن البنك سيقدِّم له قرضًا كبيرًا يساعده على البدء في مشروعه، وذلك أن جَدَّهُ كان قد أودع مبالغ مالية كبيرة في بنك هيروشيما، لكن البنك أخبره بأن مشروع عيادةٍ في بلدة صغيرة يمكن أن يفشل بسهولة، فكان السقف

الأعلى للقرض الذي كانوا سيقدِّمونه له لا يتجاوز ثلاثمائة ألف ينّ ـ أقل من ألف دولار في ذلك الحين ـ.

ولذا فقد بدأ الدكتور «ساساكي» يعالج مرضاه من منزل والدي زوجته، فكان يقوم بعمليات جراحية بسيطة؛ كعمليات الزائدة الدودية، وقُرحَة المعدة، والكسور المضاعفة، بالإضافة إلى تقديم المشورة الطبية، وبشيء من الجسارة في بقية التخصُّصات الطبية، عَدَا أمراض النساء والولادة، وكان مميَّزًا جدًّا في عمله على نحو مدهش، ولم تَمْضِ فترة طويلة حتى كان يأتيه في اليوم الواحد قريب من مائة مريض، وبعضهم كان يأتيه من مسافات بعيدة.

بعد مدةٍ لاحَظ البنك ذلك، فرفع مبلغ القرض إلى مليون ينّ، واستطاع في سنة ١٩٥٤م بناء عيادة مناسبة في داخل سور منزل أهل زوجته، كانت العيادة مكوَّنةً من طابقين، ومزوَّدةً بتسعة عشر سريرًا للمرضى، ومساحتها تشكِّل مائتين وثمانين حصيرًا، مَوَّلَ بناءه من خلال الثلاثمائة ألف ينّ التي اقترضها من البنك، بالإضافة إلى ما حصَّلَه من بيع جذوع بعض الأشجار من الأراضي التي ورثها عن جده.

كان يعمل في العيادة الجديدة بطاقم مكوَّن من خمس ممرضات، وثلاثة متدرِّبين على رأس العمل، وكان يعمل بنفسه ستة أيام في الأسبوع دون انقطاع، من الثامنة والنصف صباحًا إلى السادسة مساء، وكان عمله آخِذٌ في النجاح والازدهار.

قبل مدة طويلة من هذا كان الأطباء في هيروشيما قد

اكتشفوا أن هناك عواقب أكثر خطورةً بكثير جرَّاء التعرُّض للقنبلة من تلك الجروح المؤلمة، أو ندبات الجَدَرَة التي كانت ظاهرة على نحو درامي، وبشكل كبير في الأيام الأولى، لقد زالت الأعراض العنيفة للتسمُّم الإشعاعي مع الوقت عن أكثر المرضى، ولكن بَدَا من الواضح بعد مدة أن «الهيباكوشا» سيتحمَّلون تبعةً أكثر عمقًا وأشد خطورة بسبب تعرُّضهم لمعدلات هائلة من الإشعاع.

أولًا وقبل كل شيء بَدَا من الواضح مع حلول سنة ١٩٥٠م أن نسبة الإصابة بسرطان الدم في «الهيباكوشا» كانت أعلى بكثير من المعدلات الطبيعية، فقد كان معدَّل الإصابة بين أولئك الذين تعرَّضوا للإشعاعات في مساحة كيلومتر واحد من مركز الانفجار عشرة إلى خمسين ضعفًا عن المعدلات الطبيعية، وعلى مر السنين بات ظهور البُقَع الأرجوانية الصغيرة النازفة، كأعراضٍ لسرطان الدم، لعنةً تلاحق «الهيباكوشا».

وفي وقت لاحق ظهرت عليهم صور أخرى من السرطانات إلى جانب سرطان الدم، والتي تميَّزت بفترات كُمُون أطول، وبمعدلات ظهور أعلى من المعدلات الطبيعية؛ كسرطان الغدة الدرقية، وسرطان الرئة، والثدي، والغدد اللعابية، والمعدة، والكبد، والجهاز البولي والتناسُلي عند الذكور والإناث.

كما تعرض بعض الناجين ـ حتى من الأطفال ـ لما صار يُعْرَف بسُدِّ القنبلة الذرية، أو إعتام عدسة العين، بعض الأطفال كانوا يعانون من التقزُّم أثناء نُمُوِّهم، ومن بين أكثر النتائج ترويعًا

ما اكتشفوه بعد ذلك؛ حيث وجدوا أن بعض الأطفال الذين كانوا في أرحام أمهاتهم وقت الانفجار قد وُلِدُوا برؤوس أصغر من المعتاد.

ولأن تأثير الإشعاعات على جينات الحيوانات في الأبحاث المخبرية كان معروفًا، فقد انتشر الخوف والهلع بين «الهيباكوشا» على ذريتهم المستقبلية، والذين سيكونون عرضة للتشوُّهات نتيجة الطفرات الجينية، (لقد كان هذا في أواخر الستينات وقبل أن تُظهر التحليلات فعلًا وقوع تغيُّرات في كروموسومات الناجين من كارثة هيروشيما وناغازاكي، وسيحتاج الأمر بطبيعة الحال إلى زمن طويل لمعرفة أثر ذلك على ذريتهم).

وبالإضافة إلى ما سبق من أعراض وأمراض فقد كان «الهيباكوشا» عرضةً أيضًا لأمراض أقل خطورةً من السرطان، والتي كان يعتقد الكثير من الأطباء، ومعظم المصابين بها، بأنها ناجمة عن التعرُّض لإشعاعات القنبلة؛ كعدة أنواع من فقر الدم، وخَلَل في وظائف الكبد، وبعض المشاكل الجنسية، واضطرابات الغدد الصماء، وتسارُع الشيخوخة، والوهن والإعياء اللذين كان يشتكي منهما الكثيرون.

لم يعانِ الدكتور «ساساكي» من أيٍّ من تلك الأعراض سوى العَرَض الأخير، ووجد نفسه غير عابئ أو مهتم بهذه الاكتشافات، ولم يتابع أمرها عن كَثَب في المجلات الطبية، كما لم يعالِج إلا القليل من «الهيباكوشا» في بلدته الواقعة بين التلال، لقد كان يعيش حياته محبوسًا في اللحظة الراهنة.

وفي عام ١٩٦٣م رغب في معرفة آخر التطوُّرات في حقل التخدير، فذهب إلى مستشفى الصليب الأحمر بيوكوهاما للتعرُّف على آخر المستجدات في هذا الحقل من مدير المستشفى الدكتور «تاتسوتارو هاتوري»، والذي كان يرأس قسم الجراحة في مستشفى هيروشيما سابقًا، وكان رئيس الدكتور «ساساكي» هناك، كان الدكتور «هاتوري» قد أصيب بالتسمُّم الإشعاعي بعد الانفجار، وانتقل بعدها إلى «يوكوهاما».

اقترح الدكتور «هاتوري» على الدكتور «ساساكي» إجراء فحصٍ شاملٍ، والاستفادة من أحدث المعدات الموجودة في المستشفى فترةَ وجوده، وأخذ الدكتور «ساساكي» بمشورته فعلًا.

أظهر تصوير الأشعة المقطعية عتمةً في الرئة اليسرى، وقد كان الدكتور «ساساكي» مُدَخِّنًا، لم يَخُض الدكتور «هاتوري» في سرد تفاصيل ما عرفوه من أن «الهيباكوشا» كانوا عرضةً للإصابة بسرطان الرئة، ولعله افترض أن الدكتور «ساساكي» كان على معرفة بمثل هذه التفاصيل، لكنه أوصى بأَخْذ خزعة لإجراء المزيد من الفحوصات، وتم القيام بذلك.

وبعد أن أفاق الدكتور «ساساكي» من أثر المخدِّر وجد أن رئته اليسرى قد استُئْصِلَت بالكامل، وبعد ساعات قليلة من العملية انفتح أحد الأربطة الموضوعة على أحد الأوعية الدموية في تجويف الرئة، وعانَى الدكتور «ساساكي» بسبب ذلك من نزيف حادٍّ استمر معه لأسبوع تقريبًا.

وقبل يوم من نهاية ذلك الأسبوع، وبينما كان الدكتور

«ساساكي» يعاني من سعال وكُحَّة مصحوبة بالدم، انتابه شعور مُفْزِع بالوهن والتعب، كانت زوجته عنده، والدكتور «هاتوري»، ورئيسة الممرِّضات، بالإضافة إلى عدد من الممرِّضات، كانوا جميعًا متحلِّقين حوله مُحْدِقِينَ به، فنظر إليهم، ظانًّا أنها لحظات الوداع، فأعرب عن شكره لهم، والتفت إلى زوجته مودعًا، ثم مات.

أو بالأحرى، ظَنَّ أنه مات؛ إذ استعاد وعيه في وقت لاحق، وبدأت صحته تتحسَّن. لقد كانت هذه التجربة أهمَّ تجربة مرَّت به في حياته، بل كانت بالنسبة إليه أكثر أهميةً من تجربته مع الانفجار، لقد مرَّ به شعور مهيبٌ بالوحدة حين ظنَّ بأنه يموت، فسعى بعدها بكل ما أمكنه من جهد للاقتراب أكثر من زوجته وأطفاله ـ ابنين وابنتين ـ.

فاجأته عمته يومًا وهي تقول له: «إنك محظوظ يا «تيروفومي»، ففي نهاية المطاف «أي وا جينجوتسو»؛ أي: «الطب هو فن الرحمة»، لم يفكِّر من قبل في معنى هذه الكلمة التي كانت تُرفَع كشعار أمام جميع الشبان اليابانيين ممن يطمعون في أن يكونوا أطباء.

قرَّر لحظتها أن يكون هادئًا ورابط الجأش، وأن لا يترك شيئًا يمكنه فعله لمريض إلا فعله، كما أنه سيحاول أن يكون طيبًا تجاه أولئك الذين يكرههم، سيترك هواية الصيد، واللعب بـ«الماه ـ جونغ»[١]، قالت له زوجته: «لقد بلغتَ سن الرشد في الأربعينات

(١) هي لعبة صينية تدور غالبًا بين أربعة لاعبين، مستعمِلين فيها قطع الدومينو. (المترجم).

من عمرك، أما أنا فصرت راشدة في العشرينات»، لكنه مع ذلك كله لم يتخلَّ عن التدخين.

وفي عام ١٩٧٢م نزلت به الفاجعة الثالثة في حياته، فقد تُوُفِّيَتْ زوجته من سرطان الثدي، وأضحى بذلك يعاني نوعًا آخر من الوحدة المتَّصلة بالموت، وكانت هذه المرة أكثرها شدةً ورسوخًا، ونتيجةً لذلك ألقى بثِقَلِهِ كله في عمله، فصار مشغولًا به أكثر من أي وقت مضى.

كانت وفاة زوجته وتجربته الشخصية مع الموت تذكِرةً له بأنه ما عاد شابًّا، وهو ما حمله على التفكير أكثر بشأن كبار السن، فقرَّر أن يبني عيادةً أكبر بكثير من عيادته الحالية، وأن يمارس فيها طب الشيخوخة، كان هذا الفرع من «فنون الرحمة» جاذبًا لعدد من أفضل الأطباء اليابانيين، وصادَف أن يكون فرعًا مُرْبِحًا جدًّا.

وحين عرض الأمر على بعض أصدقائه ضحكوا مما اعتبروه نوع مخادعة؛ فالجميع بعد الستين يعانون من الأوجاع والآلام، وجميعهم محتاج للتدليك، والعلاج الحراري، والوخز بالإبر، والكَيّ، وشيء من المساندة النفسية من طبيب طيب، «سيأتون حتمًا أسرابًا على إثر أسراب».

وبحلول سنة ١٩٧٧م كان الرصيد الائتماني للدكتور «ساساكي» في بنك هيروشيما مرتفعًا، وعرضوا عليه قرضًا بمبلغ تسعة عشر مليون ينّ، أو ما يقارب الثمانين ألف دولار، واستطاع بهذا المال أن يبني مستشفى خرسانيًّا من أربعة طوابق على أرضٍ

بحافة المدينة، كان هذا المستشفى يحتوي على تسعة عشر سريرًا للمرضى الداخليين، مع مرافق واسعة لبرامج إعادة التأهيل، بالإضافة إلى شقة رائعة لنفسه، وقام بتوظيف ثلاثة معالجين بالإبر الصينية، وثلاثة أطباء، وثماني ممرِّضات، وخمسة عشر مُسْعِفًا، وبعضًا من عمال الصيانة.

وكان ولداه «يوشيهيسا» و«ريوجي» قد انتهيَا من دراسة الطب، وصارَا طبيبين أيضًا، فكانَا يعاونانه، خصوصًا في أوقات ذروة العمل، وكان مُحِقًّا في تَنَبُّئِه بشأن الأسراب.

ومرة أخرى كان يعمل من الثامنة والنصف إلى السادسة، ستة أيام في الأسبوع، وكان متوسط مَن يفحصهم من المرضى في اليوم الواحد يبلغ مائتين وخمسين مريضًا، وبعضهم كان يجيء إليه من مدن بعيدة، مثل «كور»، و«أوندو»، و«أكيتسو» الواقعة على الساحل، ومن القرى المختلفة الواقعة في جميع أنحاء المحافظة.

وقد استفاد كثيرًا من الإعفاءات الضريبية الضخمة التي كان يمكن للأطباء اليابانيين المطالبة بها، وكسب بذلك أموالًا طائلة، واستمر في سداد قروضه البنكية، واستمر البنك في المقابل برفع حَدِّ رصيده الائتماني.

جاءته فكرة بناء دار للمسنين، والذي سيكلِّف مائتي مليون ينّ، لكن الأمر سيحتاج إلى موافقة الجمعية الطبية بمقاطعة «تاكاتا»، فأرسل لهم مخطَّط المشروع، ولكن رُفِض طلبه، وبعد مدة قصيرة قام أحد أعضاء الجمعية البارزين ببناء دار مماثِلة

للدار التي اقترحها الدكتور «ساساكي»، ولكن في مدينة «أوشيد».

كان الدكتور «ساساكي» يدرك أن أكثر ما يُدخِل البهجة والمتعة على مرضاه من كبار السن: الزيارات العائلية، والطعام الجيد، وأوقات الاستحمام والاسترخاء، فاتخذ قرارًا جريئًا باستخدام قرض البنك في بناء حمام فاخر في موقع عيادته السابقة، كان هذا الحمام مخصَّصًا في الظاهر لمرضاه، لكنه فتح أبوابه لسكان المدينة أيضًا، وكان يتقاضى رسوم دخول أعلى من رسوم الحمامات الأخرى، فقد كانت أحواض المياه على كل حال مصنوعة من الرخام، وكان يصرف نصف مليون ينّ شهريًّا في صيانته.

وفي كل صباح كان الدكتور «ساساكي» يلتقي بكل موظفي العيادة، وكان لديه درسٌ مفضَّل: لا يكن المال همَّك الأول، قم بواجبك للمرضى أولًا، وَدَعِ المال يأتي بعد ذلك، حياتنا قصيرة، ونحن لا نعيش مرتين، ستلتقط الزوبعة أوراق الشجر وتدور بها، ولكن ستُسقِطها لاحقًا، وستُشَكِّل كَوْمَةً.

وقد نَمَتْ كومة الدكتور «ساساكي» الخاصة ونمت، لقد أمَّنَ على حياته بمائة مليون ينّ، كما أمنَّ أيضًا ضد أي ممارسة طبية خاطئة بثلاثمائة مليون ينّ، وكان يقود سيارة بي أم دبليو بيضاء، واصطفَّت عدد من المزهريات النادرة على عدد من الخزائن في غرفة المعيشة، وعلى الرغم من الإعفاءات الضريبية الهائلة التي كان يحظى بها الأطباء اليابانيون، إلا أنه أضحى أعلى دافع

ضرائب في بلدة «تاكاتا» (عدد سكانها سبعة وثلاثون ألفًا)، وكانت الضريبة التي يدفعها من بين أعلى عشرة ضرائب في ولاية هيروشيما كلها (اثنا عشر مدينة، وثمانية وستون بلدة في خمس عشرة محافظة، بعدد سكان يبلغ مليونين وسبعمائة ألف إنسان).

خطرت له فكرة جديدة، سيقوم بالحفر بجوار العيادة لاستخراج بعض المياه الجوفية الساخنة ليملأ بها أحواض الحمامات. تعاقَد مع شركة طوكيو الجيولوجية الهندسية للقيام بعملية المسح والكشف عن المياه، وأكَّدوا له أنه إذا حفر بعمق ثمانمائة متر فسيحصل على كمية من الماء تتراوَح بين الستين والمائة لتر في الدقيقة، وبحرارة تتراوح ما بين ٢٦ و٣٠ درجة مئوية.

كانت لديه رؤية لبناء منتجَع ينابيع ساخنة، وبعد أن درس الموضوع وأجرى حساباته توصَّل إلى أن بمقدوره توفير مياه لأحواض حمامات ساخنة في ثلاثة فنادق، وبدأ العمل في مشروعه هذا في يونيو ١٩٨٥م.

كان الأطباء الآخرون في هيروشيما يعتبرون الدكتور «ساساكي» غريب الأطوار نوعًا ما، فلم يكن مثلهم منجذبًا إلى حياة المجتمعات الطبية الراقية، وعِوَضًا عن ذلك كان مهتمًّا برعاية فعاليات من جنس منافسة «موكايهارا» «للغيتبول»، وهي نسخة بدائية للعبة «الكريكيت»، وكان كثيرًا ما يرتدي ربطة عنق كلَّفته خمسة آلاف ينّ، أو عشرين دولارًا، وقد تم تطريزها بكلمة «Gate Ball» بالأحرف الإنجليزية.

وكان مصدر سعادته الرئيسية ـ بعيدًا عن عمله ـ في تلك الرحلات التي يقوم بها أحيانًا إلى هيروشيما؛ ليتناول أكلةً صينية في قَبْوِ فندق «غراند»، وبعد انتهائه من وجبته يُشعل سيجارًا من نوع «مايلد سفن»، والتي كُتِبَ على علبتها هذه النصيحة اليابانية المهذَّبة: «لنكن حَذِرِينَ حتى لا ندخِّن أكثر من اللازم، وذلك من أجل صحَّتنا».

كان بمقدوره أن يواجه هيروشيما الآن، فقد أضحت كطائر عنقاء زاهي الألوان، نهض وسما من صحراء سنة ١٩٤٥م الخربة، مدينة جميلة بشكل استثنائي يعيش فيها أكثر من مليون إنسان ـ واحدٌ من كل عشرة منهم كان من «الهيباكوشا» ـ بمبانيها الحديثة الشاهقة، وشوارعها التي يصطفُّ على جَنَبَاتِها الأشجار، وقد ازدحمت فيها السيارات اليابانية الحديثة، بلوحاتها المقيَّدة بالأحرف الإنجليزية، إنها مدينة المناضلين والْمُتْرَفِين، والتي يتوزَّع فيها ٧٥٣ مكتبة، و٢٣٥٦ حانة.

ولئن كانت ذكريات الماضي تعتمل في نفسه، فقد أضحى الآن قادرًا على التعايُش مع أعظم حسراته المريرة؛ ففي وسط معمعة الفوضى التي اجتاحت مستشفى الصليب الأحمر في الأيام الأولى من الانفجار، لم يكن بإمكان أحد أن يتتبَّع هُويَّات أولئك الذين قضوا، وتم جَرُّهُم وحَرْقُ جثثهم في محرقة جماعية، قد تكون أرواحهم الآن وبعد كل هذه السنوات تحوم هناك بلا رعاية ومن غير رضا.

٣ ـ الأب «فيلهلم كلينزوغر»

ها هو الآن في مستشفى طوكيو للمرة الثانية، لقد كان الأب «كلينزوغر» يعاني من الحمى والإسهال، ومن جروح لا تلتئم، وتذبذُب خطير في معدلات خلايا الدم، مع إرهاق تام، وسيظل طيلة حياته أنموذجًا كلاسيكيًّا لذلك البرزخ الغامض لمرض القنبلة الذرية، والذي يحفل فيها جسم الشخص بمخزون كبير من الأعراض، والتي يمكن أن يُعْزَى القليل منها على نحو علمي للإشعاعات، فيما تظهر كثير منها على «الهيباكوشا»، بتشكُّلات مختلفة ودرجات متفاوتة، لتكون القنبلة محل التهمة لهذه الأعراض من قِبَل مجموعة من الأطباء، ومن جميع المرضى تقريبًا.

عاش الأب «كلينزوغر» حياة البؤس هذه، حاملًا بين جَنْبَيْهِ روحًا مِعْطَاءَةً ومُتَنَكِّرَةً للذات على نحو مُذْهِل، فبعد خروجه من المستشفى عاد إلى كنيسة «نوبوريماتشي» الصغيرة، والتي ساعَد في بنائها، ليواصل حياته، ويقدِّم رسالته الأسقفية متنكِّرًا لذاته ورغباته الشخصية.

وفي عام ١٩٤٨م عُيِّنَ كقَسٍّ في كنيسة أكبر بكثير من كنيسته السابقة، وهي كنيسة «ميساسا»، والتي تقع في جزء آخر من المدينة، لم تكن هناك بَعْدُ أية مبانٍ عالية في المدينة، ولذا فقد كان جيران الكنيسة الكبيرة يُسَمُّونَ هذه الكنيسة بقصر «ميساسا».

كان دير الراهبات التابع لنظام «معاونو الأرواح المقدسة»

ملتصِقًا بالكنيسة، وتسكنها مجموعة من الأرواح النقية التي نذرت نفسها للخدمة، وإلى جانب واجباته المعتادة كقسّ؛ كتقديم القُدَّاس، وسماع الاعترافات، وعقد دروس الكتاب المقدَّس، فقد كان أيضًا يُرَتِّب أمر خلوات راهبات الدير واعتكافهن، ويدير شؤونها لمدةٍ تمتد لثمانية أيام، يقوم فيها بإرشادهن يومًا بيوم، فيما تحافظ الراهبات على صمتهن.

لم تنقطع زياراته «لساساكي ـ سان» وغيرها من مرضى وجرحى «الهيباكوشا»، حتى إنه كان يرعى ويعتني بأطفال الأمهات الصغيرات أثناء غيابهن، وكثيرًا ما كان يذهب إلى إحدى الْمَصَحَّات في «سايجو»، وتستغرق رحلته ساعة بالقطار من المدينة، وذلك من أجل مواساة المصابين بداء السُّلِّ.

وقد دخل الأب «كلينزوغر» للمستشفى مرتين أيضًا للعلاج في طوكيو، وكلتاهما لمدة وجيزة.

كان زملاؤه اليسوعيون الألمان يشعرون بأنه مبالِغٌ جدًّا في اهتمامه بالآخرين، في مقابل عدم الاهتمام بنفسه بالقدر الكافي، وإذا تجاوَزنا روح العناد التي يتحرَّك بها لإنجاز مهامه، فقد تطبَّع بروح «إِنْرِيُو» اليابانية، والتي تحمل صاحبها على الانسلاخ من رغباته مقدِّمًا رغبات الآخرين، كانوا يعتقدون بأنه قد يُهْلِك نفسه حقيقةً بطيبته الزائدة، ويصفونه بأنه «ركسيتشسفول» جدًّا «rücksichtsvoll» ـ مهتم بالآخرين جدًّا ـ.

فعلى سبيل المثال، حين وصلته هدايا من الأطعمة الشهية من بعض أقاربه في ألمانيا قام بتوزيعها جميعًا، ولَمَّا حصل على

بعض البنسلين من أحد أطباء الاحتلال قام بإعطائه لبعض أفراد رعيته ممن كان مريضًا كما كان، (ومن بين الأمور الكثيرة التي كان يشتكي منها إصابته بمرض الزهري، والذي أُصِيب به نتيجة نقل دم في إحدى المستشفيات، وقد شُفِي منه في نهاية المطاف)، وكان يُعطِي دروسًا في التعليم المسيحي في الوقت الذي كان مصابًا فيه بالحمى.

كانت مدبِّرة الكنيسة تراه يسقط منهارًا على وجهه عند عتبات منزله بعد أن يعود من مشوار دَعَوِيّ طويل في مشهد يعبِّر عن هزيمة مطلقة، وفي اليوم التالي كان يخرج للشوارع مرةً أخرى.

وتدريجيًّا، وعلى مدى سنوات من هذا العمل المتواصل، اجتمع لديه حصادٌ متواضع؛ حوالي أربعمائة معمَّد، وقريبًا من أربعين عقد زواج.

كان الأب «كلينزوغر» يحب اليابانيين، ويحب عاداتهم، وكان أحد زملائه، وهو الأب «بيرزيكوفار»، يقول مازحًا: إن الأب «كلينزوغر» متزوجٌ من اليابان.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من انتقاله إلى كنيسة «ميساسا» بلغه خبر قانون جديد يتعلَّق بملف التجنيس قد تم إقراره في البرلمان مؤخرًا، كان هذا القانون يحدِّد متطلبات الحصول على الجنسية في الأمور التالية: أن يقيم الشخص في اليابان مدة خمس سنوات على الأقل، وأن يكون متجاوزًا للعشرين سنة، وسليمًا عقليًّا، وحسن السيرة والسلوك، قادرًا على إعالة نفسه، وقادرًا على القبول بجنسية واحدة.

سارَع إلى تقديم الوثائق الدالة على أن جميع هذه المتطلبات متحقِّقة فيه، وبعد بضعة أشهر من النظر في ملفه تم قبول طلبه، سجَّل نفسه كمواطن ياباني تحت اسمٍ سيحمله من الآن فصاعدًا: الأب «ماكوتو تاكاكورا».

ولبضعة أشهر في ربيع وصيف عام ١٩٥٦م ساءت حالته الصحية أكثر وأكثر، فانتقل ليملأ فراغًا مؤقتًا في كنيسة صغيرة في مقاطعة «نوبريماتشي»، وقبل خمس سنوات من انتقاله لهذه الكنيسة كان القس «كيوشي تانيموتو»، والذي كان يعرفه الأب «تاكاكورا» جيدًا، يُعطِي دروسًا في الكتاب المقدَّس لمجموعة من الفتيات اللاتي شُوِّهَت وجوههن بالجَدَرَة، كنَّ يُلَقَّبْنَ بعذراوات هيروشيما، وفي وقت لاحق أُخِذَ بعضهن إلى الولايات المتحدة لإجراء عمليات تجميل، إحداهن كانت تدعى «توموكو ناكاباياشي»، كانت قد تنصَّرت على يد الأب «تاكاكورا»، وتم تعميدها على يديه أيضًا، كانت الآن ممدَّدة على طاولة العمليات في مستشفى جبل سيناء في مدينة نيويورك ميِّتة.

ثم حُمِلَ رماد جثتها لعائلتها حين عادت المجموعة الأولى من العذراوات إلى هيروشيما في ذلك الصيف من عام ١٩٥٦م، وألقي عبء التحضير لجنازتها على أكتاف الأب «تاكاكورا»، وأثناء إقامة مراسمها كاد يُغْمَى عليه.

في «نوبوريماتشي» كان يزور أمًّا مع ابنتيها لإرشادهنّ وتعليمهنّ، وكنَّ من عائلة ثرية ومثقَّفة تدعى «ناغانيشي»، فكان يذهب إليهن سيرًا على الأقدام كلَّ مساء، سواء كان محمومًا أو

غير محموم، وفي بعض الأحيان يصل إلى منزلهن مبكرًا، فكان يذهب ويجيء ماشيًا في الشارع المقابل للبيت، فإذا جاءت السابعة تمامًا أقبل على الباب ودقّ الجرس، وحين يدخل ينظر إلى نفسه في مرآة الممر، فيرتِّب شعره وهندامه ثم يدلف لغرفة المعيشة، ويظل عندهن لمدة ساعة يعلِّمهن، وبعد انتهاء الساعة تقوم بنات «الناغانيشي» بتقديم الشاي وبعض الحلويات، ليتجاذبوا أطراف الحديث حتى الساعة العاشرة تمامًا، كان يشعر وهو في هذا البيت بأنه في منزله، وأصبحت البنت الصغرى ـ «هيساكو» ـ مخلِصة ومتفانية له، وبعد ثمانية عشر شهرًا تفاقمت أعراض مرضه المتنوعة على نحو سيئ جدًّا، مما سيضطره للدخول للمستشفى مرة أخرى، وقبل يوم من ذهابه للمستشفى طلبت منه «هيساكو» أن يقوم بتعميدها، ففعل، ودخل مستشفى الصليب الأحمر في اليوم التالي، ليظل فيه لمدة عام كامل.

أكثر ما كان يشكو منه ويثير قلقه التهاب غريب في أصابعه، والذي يسيل منه القيح والصديد، ولا يبدو أنه يتماثَل للشفاء، كما كان يعاني من الحمَّى، ومن أعراض شبيهة بأعراض الإنفلونزا، كان تعداد خلاياه البيضاء منخفض على نحو خطير، وكان يعاني من ألم في ركبتيه، خصوصًا ركبته اليسرى، بل ويعاني من ألم في جميع مفاصله الأخرى.

تم إجراء عملية لأصابعه، وبدأت تتماثَل للشفاء تدريجيًّا، وكان يُعالَج من نقص كُرَيَّات دمه البيضاء، وقبل خروجه من

المستشفى لاحظ طبيب العيون أن لديه سُدّ القنبلة الذرية[1].

عاد بعد خروجه من المستشفى إلى رعايا كنيسة «ميساسا» الكبيرة، ولكن صعب عليه أكثر وأكثر تحمُّل ذلك الحمل الزائد الذي كان يحبه ويعتز به، وعانى فجأة من ألم في الظهر، وبعد فحصه أخبره الأطباء أنها بسبب حصوات الكلى، والتي استطاع التخلُّص منها.

كان يجر ذاته ماضيًا في أيامه، مُنْهَكًا نفسه بجهدٍ يفوق طاقتها، يكاد يُقْعِدُه ما يعانيه من ألم متواصل، وأمراض ناشئة من نقص خلايا دمه البيضاء.

وأخيرًا، وفي عام ١٩٦١م، اتخذت الأسقفية قرارًا رحيمًا بنقله إلى كنيسة صغيرة جدًّا في بلدة «موكايهارا»، حيث يقطن الدكتور «ساساكي» بعيادته الخاصة المزدهرة، كان مجمع تلك الكنيسة يقف على ذروةٍ مرتفعةٍ تطل على المدينة، وفي حدوده كنيسة صغيرة تحتوي على طاولة من خشب البلوط تؤدي دور المذبح، كانت هذه الكنيسة الصغيرة تكفي عشرين شخصًا جاثِين على رُكَبِهِم على الطريقة اليابانية فوق حصر «التاتامي».

وفي المجمع أيضًا بيت قسٍّ ضيِّق يقف فوق تلةٍ، دخله الأب «تاكاكورا»، وبدأ في توزيع الغرف، فاختار غرفةَ نومٍ لا تزيد مساحتها عن ستة أقدام مربعة، كانت غرفةً فارغة كصومعة راهب، وجعل الغرفة المجاورة لها والشبيهة بها غرفة طعام، أما

(١) إعتام عدسة العين (مترجم).

المطبخ والحمَّام فقد كانت في الجهة المقابلة لها، مظلِمةً، وباردةً، وصغيرةً كبقية الغرف، وعبر ممر ضيق يمتد على طول المبنى كان هناك مكتبٌ، وغرفة نومٍ أخرى أكبر من غرفته بكثير، ولأنه وفيٌّ لطبيعته فقد خصَّص تلك الغرفة للضيوف.

ومن حين وصل لهذه الكنيسة شعر باتِّقاد حماسته، لقد كان مدفوعًا بفكرة أن أفضل وقت لاصطياد الأرواح قبل نضجها، ولذا فقد رتَّب مع بعض البنَّائين لإضافة غرفتين للكنيسة، وأسَّس فيها روضة القدِّيسة مريم.

وهكذا بدأت فصول حياة قاتمة لأربعة كاثوليك: القس، وأختين يابانيتين لتعليم الأطفال، وامرأة يابانية لطهي الطعام، قليلٌ من المؤمنين كانوا يجيئون إلى الكنيسة، وكانت رعيَّته تتألف من أربع عوائل متحوِّلة سابقًا للنصرانية، يشكِّلون جميعًا عشرة مؤمنين فقط، وقد يتغيَّبون جميعًا يوم الأحد، فلا يحضر أحد القدَّاس.

وبعد فترة نشاط استمتع بها عادت قوة الأب «تاكاكورا» لضعفها سريعًا، كان يستقل القطار أسبوعيًّا متوجهًا إلى مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما لإجراء فحص طبي عام، وحين يصل لمحطة هيروشيما فإنه يلتقط كتيبًا يمثِّل بالنسبة له مادة قرائية لذيذة في رحلته ـ جداول زمنية توضِّح جدول سير القطارات في جميع أنحاء جزيرة «هونشو» ـ.

كان الأطباء يحقنونه بالمنشِّطات في مفاصله المؤلمة، ويعالجون تلك الأعراض المزمنة الشبيهة بالإنفلونزا، ومرة أشار

إلى أنه وجد آثار دماء في ملابسه الداخلية، والتي خمَّن الأطباء أنها جاءت نتيجة حصى كلى جديدة.

حاول في بلدة «موكايهارا» أن لا يتميَّز عمن حوله قدر وسعه، وأن يكون يابانيًّا قدر الإمكان، فكان يرتدي أحيانًا ملابس يابانية، كما لم يكن راغبًا في أن تبدو حياته مُتْرَفَةً، فكان لا يشتري اللحم أبدًا من السوق المحلية، لكنه أحيانًا يشتريها ويهرِّبها من خارج المدينة.

كان هناك قس ياباني يُدْعَى الأب «هاسيغاوا»، وكان هذا القس يزوره في بعض الأحيان لرؤيته، كان مُعْجَبًا بجهوده لتقمُّص دور الياباني على نحو مثالي، لكنه وجد أمورًا متعدِّدة تفضحه في كل مرةٍ، وتدل على نحو واضح بأنه ألماني.

كان لديه ميلٌ مثلًا للاندفاع لِمَا يرغب في تنفيذه بنوع من العناد، ساعيًا لتجاوز المعوقات التي تواجهه بقوة، دون أن ينصرف عن خطه المرسوم، في الوقت الذي يسعى فيه الياباني لتحقيق هدفه بطريقة أكثر لباقة؛ بالالتفاف حول المشكلة، وإيجاد طريق أخرى.

لاحظ أيضًا أن الأب «تاكاكورا» كان يحترم على نحو صارِم مواعيد الزيارة في المستشفى، فمتى جاءه أناس لزيارته خارج أوقات الزيارة، ولو من أماكن بعيدة، فإنه يعتذر عن استقبالهم.

وفي إحدى المرَّات كان الأب «هاسيغاوا» يأكل مع أصدقائه، وحين قدم له مضيفه صحنًا من الأرز اعتذر عن أكله لشبعه، ولكن حين وُضِعت على الطاولة بعض المخلّلات اللذيذة

تسبَّب ذلك في تحرُّك الذائقة اليابانية مطالِبَةً بالمزيد من الأرز، فقرَّر أن يأخذ صحن أرز آخر، وهنا ثار الأب «تاكاكورا» مُغْضَبًا؛ فبحكم طبيعته الألمانية كان يتساءل: كيف يمكنه أن يأكل الأرز مع المخلّلات، في الوقت الذي كان عاجزًا عن أكل الأرز وحده؟

خلال هذه الفترة أجرى الدكتور «روبرت ج. ليفتون» عددًا من اللقاءات والمقابلات مع أناس كُثُر، كان الأب «تاكاكورا» واحدًا منهم، وذلك أثناء إعداده لكتابة كتابه «الموت في الحياة.. الناجون من هيروشيما»، وفي أحد تلك اللقاءات ألمح القس إلى أنه كان يشعر بأن وصف «الهيباكوشا» هو الأكثر تعبيرًا عن هويته من كونه يابانيًّا:

إذا أخبرني شخص بأنه مُنْهَك «داروي»، فإن كان من «الهيباكوشا» فإني أجد شعورًا مختلفًا مما لو كان شخصًا عاديًّا، ليس من الضروري أن يشرح... إنه يعرف كل مشاعر القلق وعدم الراحة، وكل الإغراءات التي تدعوه لترك روح النضال والوقوع في فخ الاكتئاب، ليعاوِد النظر في أمره، إن كان قادرًا على القيام بعمله أم لا...

إذا سمع ياباني كلمة «تينّو هيكا» [صاحب الجلالة الإمبراطور]، فإن الأمر يبدو مختلفًا عما يجده الغربي حين يسمعها، فما يجده الأجنبي من شعور في قلبه يختلف جذريًّا عما يقع في قلب الياباني، إن الأمر شبيه بحال مَن كان ضحية ومَن لم يكن كذلك، وما يجده كلٌّ منهما حين يسمع عن ضحية أخرى...

التقيت مرةً برجل. . . و[الذي] قال لي: «بأنه شهد القنبلة الذرية»، ومن تلك اللحظة تغيَّر نمط حوارنا، فكلانا كان يفهم مشاعر صاحبه، ولم يكن هناك ما يحتاج إلى ذِكْرِه.

في عام ١٩٦٦م احتاج الأب «تاكاكورا» لتغيير الطُّهَاة، فجاءت امرأة تدعى «ساتسو يوشيكي» إلى كنيسة «موكايهارا» لإجراء مقابلة، كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها، وقد شُفِيَتْ من مرض السل مؤخَّرًا، كما أنه قد تم تعميدها قريبًا.

وحين رأته وهو يرحِّب بها فوجئت كثيرًا؛ إذ إنها أُعْطِيَتْ اسم قسٍّ ياباني، والذي وجدته أمامها «غايجن» كبير ـ أجنبي ـ مرتديًا ثوبًا يابانيًّا مبطنًا، كان وجهه مدوَّرًا ومنتفخًا بسبب الأدوية التي كان يتناولها، فبَدَا لها كوجه طفل رضيع، وفي اللحظة التي التَقَيَا فيها تكوَّنت بينهما علاقة سرعان ما أزهرت وتشكَّلت منها رابطة مَبْنِيَّة على الثقة الكاملة المتبادلة، والتي أدَّت فيها دورًا ملتبسًا؛ دور ابنته جزئيًّا، ودور الأم كذلك.

ومع تزايد ضَعْفِه وعجزه ظلَّت أَسِيرةَ خدمته، تقوم عليه وترعاه برفق وحنان، كان طبخها بدائيًّا، وكان مزاجه متقلِّبًا، كان يقول بأنه سيأكل أي شيء، حتى لو كانت «النودلز» اليابانية، لكنه في الواقع كان دقيقًا وحازمًا معها فيما يتعلَّق بطعامه، بطريقة لم يمارسها مع شخص آخر.

تحدَّث مرةً عن «البطاطس المشوية»، والتي كانت والدته تُجَهِّزها له، فحاولت أن تُحضِّرَ له بعضًا منها، لكنه قال لها: «إن هذه ليست كتلك التي تعملها أمي».

وكان يحب الروبيان المقلي، ويأكل منها كلَّما سنحت له الفرصة، وذلك عند ذهابه لفحوصاته في هيروشيما، فحاولت أن تطبخها له، فقال لها: «هذه محروقة».

كانت تقف بجواره في غرفة الطعام الصغيرة، ويداها من خلف ظهرها، قابضةً على جانب الباب بشدة، حتى أن طلاءه بدأ يزول مع الوقت.

لكنه مع ذلك كان يُثْنِي عليها، ويشيد بها، ويُفْضِي إليها بأسراره، ويمازحها، ويعتذر إليها في كل مرة يفقد فيها أعصابه، وكانت تعتقد أنه ـ وبِغَضِّ النظر عن بعض قصوره وسلبياته، والتي كانت تعتقد أنها كانت بسبب آلامه وأوجاعه ـ رجل رقيق المشاعر، نقي الأحاسيس، صَبُور، ولطيف، ومَزُوح، وطيب جدًّا.

في إحدى المرات في أواخر فصل الربيع، وبعد مدة قصيرة من مجيء «يوشيكي ـ سان»، حطَّتْ مجموعة من العصافير على شجرة كاكا خارج نافذة مكتبه، صفَّق بيديه لإبعادها، لكن سرعان ما ظهرت على كفَّيْه تلك البقع الأرجوانية التي يخافها «الهيباكوشا»، وحين رآها الأطباء في هيروشيما هَزُّوا رؤوسهم في حيرة، مَن يستطيع تحديد ما هي على الحقيقة؟ إنها تبدو ككدمات دامية، واختبار الدم استبعد أن تكون عَرَضًا لسرطان الدم.

كان لديه نزيف طفيف في مسالكه البولية أيضًا.

سأل مرةً: «ماذا سيحصل إن وصلت الدماء لدماغي؟».

وكانت مفاصله تؤلمه، وأُصِيب بمضاعفات أخرى؛ كاختلال في وظائف الكبد، وارتفاع في ضغط الدم، وآلام في الظهر والصدر.

أظهر تخطيط القلب أن هناك أمرًا غير طبيعي، وتم إعطاؤه دواءً للوقاية من أي جلطة، كما أُعْطِي دواءً لخفض ضغط الدم، بالإضافة إلى بعض المنشِّطات والهرمونات، ومضاد لمرض السكري.

كان يقول «ليوشيكي ـ سان»: «إنني لا آخُذ الأدوية، وإنما آكُلُها».

وفي سنة ١٩٧١م نُقِلَ إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية للاطمئنان على عدم إصابته بسرطان الكبد، وتبيَّن أنه لم يكن مصابًا به.

وطيلة هذه المدة التي تراجعت فيها صحته كانت تأتيه جموع من الزوَّار، شاكرين له كل ما بذله لهم في الماضي، كانت «هيساكو ناغانيشي»، وهي التي عمَّدَها في اليوم السابق لدخوله للمستشفى، وفيَّةً له على نحو خاص، كانت تُحضِر له شطائر مفتوحة من خبز الجاودار الألماني التي يُحِبُّها، وحين اضطرت «يوشيكي ـ سان» لأخذ إجازة انتقلت إلى الكنيسة لرعاية شؤونه في غيابها.

كان الأب «بيرزيكوفير» يزوره، ويظل عنده لأيام متصلة، كانَا يتحدَّثان ويشربان قدرًا كبيرًا من «الجن»، والتي بات الأب «تاكاكورا» يحبُّها أيضًا.

وفي أحد أيام الشتاء، في بداية سنة ١٩٧٦م، تعثَّر الأب «تاكاكورا»، وسقط على طريق منحدر جليدي يؤدي نحو المدينة، وفي صباح اليوم التالي سمعت «يوشيكي ـ سان» صوته وهو ينادي عليها، وجدته في الحمَّام، متكئًا على المغسلة، وعاجزًا عن التحرُّك، وبكل ما تملكه من حبٍّ حملته ـ وكان وزنه ثمانين كيلوغرام تقريبًا ـ إلى سريره، ووضعته هناك ليرقد، وظل عاجزًا عن الحركة لمدة شهر، صنعت نونية[١] سرير بدائية، وظلَّت ترعاه ليلًا ونهارًا.

وفي نهاية المطاف استعارت كرسيًّا متحركًا من مكتب المدينة، وأخذته إلى عيادة الدكتور «ساساكي»، كان الرجلان يعرفان بعضهما قبل سنوات، أما الآن فأحدُهما كان يعيش في حجرة راهب، فيما الآخر يعيش في شقة فخمة في عيادة من أربعة طوابق، لقد بَدَا وكأن فرقَ ما بينهما سنوات ضوئية.

أخذ الدكتور بعض الأشعة السينية له، ولم يَلْحَظ شيئًا، وشخَّصَ حالته بأنها ألم عصبي، وأرشده إلى أَخْذ بعض جلسات التدليك، لم يكن في مقدور الأب «تاكاكورا» قبول فكرة أن تقوم امرأة بتدليكه، فتمَّ التعاقد مع رجل للقيام بهذه المهمة، وأثناء العلاج كان الأب «تاكاكورا» يمسك بيد «يوشيكي ـ سان»، ووجهه يزداد حمرةً، كان الألم لا يُطاق.

(١) وعاء يوضع تحت المرضى الذين لا يستطيعون الذهاب لقضاء الحاجة. (المترجم).

استأجرت «يوشيكي ـ سان» سيارةً لنقل الأب «تاكاكورا» إلى مستشفى الصليب الأحمر بالمدينة، لقد كان المستشفى مجهَّزًا بجهاز أشعة سينية أكبر، وأظهرت صور الأشعة كسورًا في الفقرات ١١ و١٢ الصدرية، فخضع لعملية جراحية لتخفيف الضغط عن العصب الوركي الأيمن، وتم إلباسه مشدًّا، ومنذ ذلك الحين ظل طريح الفراش، وكانت «يوشيكي ـ سان» تُطعِمه، وتغيِّر حفاظاته، وتغسل جسده.

كان يقرأ الكتاب المقدَّس، والجداول الزمنية للقطارات، وهما الكتابان الوحيدان اللذان لا يكذِبان أبدًا، كما كان يقول دومًا لـ«يوشيكي ـ سان»، كان بإمكانه أن يحدِّد لك القطار الذي يجب عليك أن تستقلَّه للذهاب لأي مكان، ويخبرك عن سعر الطعام في مقطورة الأكل، وكيف يمكنك أن تتنقَّل بين القطارات من محطة لأخرى لتوفِّر ثلاثمائة ينّ.

وفي يوم ما كان ينادي على «يوشيكي ـ سان» بحماسة كبيرة، فقد عثر على خطأ في تلك الجداول، فقط الكتاب المقدس يقول الصدق!

أقنعه زملاؤه من القساوسة أخيرًا بالذهاب إلى مستشفى القديس لوقا في «كوبي»، وهناك زارته «يوشيكي ـ سان»، فاستلَّ لها نسخةً من سجله الطبي من بين ثنايا كتاب يقرؤه، كان مكتوبًا فيه «جُثَّة حَيَّة».

أخبرها برغبته أن يعود إلى المنزل معها، وأخذته فعلًا، قال

لها حين وُضِعَ في سريره: «بفضلك استطاعت روحي أن تتجاوِز المَطْهر[1]».

تدهورت صحَّته أكثر وأكثر، فنقله زملاؤه إلى منزلٍ بغرفتين بأسفل ديرهم في «ناغاتسوكا»، طلبت منه «يوشيكي ـ سان» أن تنام معه في الغرفة، لكنه رفض طلبها؛ فالنذور التي أخذها على نفسه تمنع ذلك، كَذَبَتْ عليه، وادَّعت أن رئيس الدير أمرها بذلك، وبارتياح عميق أَذِنَ لها، وبعد ذلك أغلق عينيه، ونادرًا ما فتحهما بعد ذلك.

كانت تُطعِمه الآيس كريم فقط، وحين كان يأتيه الزوَّار كان كل ما يمكنه قوله: «شكرًا لكم»، ثم دخل في غيبوبة.

وفي يوم التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٧م، وبحضور طبيب، وقس، و«يوشيكي ـ سان»، أخذ هذا الرجل نفسًا عميقًا، ومات.

دُفن بعد ذلك في بستان الصنوبر الهادئ في أعلى تلٍّ مُطِلٍّ على الدير.

Father Wilhelm M.Takakura, S.J.
R.I.P

لاحظ الآباء والإخوة من دير «ناغاتسوكا» على مر السنين بأن قبره لم يخلُ تقريبًا من زهور جديدة موضوعة عليه.

---

(١) المَطْهر وفق العقيدة الكاثوليكية مكان تُطَهَّر فيه الأرواحُ من الآثام يوم القيامة قبل دخول الجَنّة. (المترجم).

٤ ـ «توشيكو ساساكي»

في أغسطس من عام ١٩٤٦م كانت «توشيكو ساساكي» تتخلَّص ببطء من آثار تجربتها القاسية مع الألم وجراحات روحها المعنوية، والتي عانت منها خلال السنة التي تلت الانفجار.

لقد نجا شقيقها الأصغر «ياسو»، وشقيقتها «يايكو»، من أي إصابة في يوم الانفجار، إذ كانَا في منزل الأسرة في ضاحية «كوي»، كانت تعيش معهم الآن هناك، وبينما كانت تشعر بحلاوة العافية مرةً أخرى، وتستعيد روح الحياة، جاءتها صفعة جديدة.

فقبل ثلاث سنوات دخل والداها في مفاوضات زواج مع عائلة أخرى، والتقت بالشاب المتقدِّم لزواجها، أُعجب كلٌّ منهما بالآخر، وقرَّرَا قبول ترتيبات الزواج، واستأجرَا منزلًا للعيش فيه، ولكن خطيبها اسْتُدْعِيَ للخدمة العسكرية، واضطر للذهاب إلى الصين.

لقد بلغها خبر عودته، ولكن مضى وقت طويل ولم يأتِ لرؤيتها، وعندما جاء أخيرًا، بَدَا واضحًا للطرفين أن الخطبة انتهت، وفي كل مرة يجيء فيها هذا الخطيب كان شقيقها الأصغر «ياسو»، والتي كانت «توشيكو» تشعر تجاهه بالمسؤولية، يندفع من البيت مُغْضَبًا. كانت هناك مؤشرات متعدِّدة تدل على أن أسرة الخطيب كانت تُعِيد النظر في موضوع زواج ابنهم من معاقة ومن «الهيباكوشا»، ليتوقَّف بعدها عن المجيء كُلِّيَّةً.

كتب لها رسائل عِدَّة مملوءة بالرموز والرسوم التجريدية ـ

خصوصًا صور الفراشات ـ. لقد كان من الواضح أنه يحاوِل أن يعبِّر عن تردُّده، وربما عن شعوره بالذنب أيضًا.

الشخص الوحيد الذي منح «توشيكو» نوعًا من الراحة الحقيقية كان الأب «كلينزوغر»، والذي استمرَّ يزورها في «كوي»، كان من الواضح أنه عازم على تحويلها إلى النصرانية، روح الوثوقية والمنطق الذي كان يتكلَّم به لم يُسْهِم في تخليق القناعة الكافية في نفسها لقبول دعوته، كانت غير قادرة على القبول بفكرة إلٰه انتزع منها وَالِدَيْهَا، ووضعها تحت رحمة تلك الابتلاءات القاسية، وهو مع ذلك مُحِبٌّ ورحيم، لكنها مع ذلك كانت تشعر بالدفء والتعافِي من إخلاص هذا القس لها، وصدقه معها، فقد كان من الواضح أنه هو الآخر كان ضعيفًا ويعاني من الألم، ومع ذلك ها هو يقطع مسافات شاسعة ليراها.

كان بيتُها يقع على حافة منحدر جبلي بالقرب من مزرعة خيزران، وفي أحد الصباحات خرجت من المنزل، وحين رأت أشعة الشمس وهي تتلألأ على أوراق أشجار الخيزران خطف هذا المشهد أنفاسها، شعرت بموجة عارمة من البهجة تجتاحُها، وهو أمرٌ لم تشعر بمثله منذ مدة طويلة، بل لا تتذكَّر الآن آخر مرة ابتهجت فيها، سمعت نفسها وهي تُرَتِّل دعاء الصلاة الربانية، وفي سبتمبر من تلك السنة تم تعميدها، كان الأب «كلينزوغر» في المستشفى وقتها، ولذا فقد تولَّى المهمة الأب «شيسلِك».

كانت «ساساكي ـ سان» تمتلك بعض المدَّخرات المتواضعة التي تركها والداها، وبدأت تعمل في الخياطة لتساعد في إعالة

«ياسو» و«يايكو»، ولكنها كانت تشعر بالقلق من المستقبل، علَّمَت نفسها كيف تحجل دون الحاجة للاستعانة بعكازَيْها.

وفي أحد أيام صيف ١٩٤٧م أخذت الاثنين معها للسباحة على شاطئ قريب من «سوغينورا»، وهناك تحدَّثت مع شاب كوري كاثوليكي يرعى مجموعة من أطفال الكنيسة يوم الأحد، وبعد مدة قال لها إنه لا يستطيع أن يتخيَّل كيف يمكنها الاستمرار في حياتها على هذا النحو، مسؤولة عن أخيها وأختها، في الوقت الذي تبدو فيه هَشَّةً وضعيفة، وأخبرها عن دار أيتام مُمَيَّزَة في هيروشيما تدعى حديقة النور.

فأدخلت الأطفال في دار الأيتام، وبعد مدة قصيرة تقدَّمت بطلب للحصول على وظيفة مشرفةٍ هناك، وهو ما حصلت عليه فعلًا، وكان في ذلك سلوان وعزاء لها؛ إذ كان بإمكانها أن تبقى بالقرب من «ياسو» و«يايكو».

كانت مميَّزةً في عملها، ويبدو أنها قد وجدت رسالةً لحياتها، ففي العام التالي وافقت على طلب نَقْلٍ لدار أيتام أخرى، بعد اطمئنانها على أن شقيقها وشقيقتها كانَا يتلقيان رعايةً جيدة هنا، كانت تلك الدار تسمى دار الأُقْحُوان الأبيض، وتقع في إحدى ضواحي مدينة «بيبو» في جزيرة «كيوشو»، كان بإمكانها هناك أن تتلقَّى تدريبًا احترافيًّا على كيفية رعاية الأطفال.

وفي ربيع عام ١٩٤٩م بدأت في استعمال القطار للذهاب إلى مدينة «أويتا» في رحلة تستغرق نصف ساعة ذهابًا وإيابًا، حيث كانت تحضر بعض الدورات في جامعة «أويتا»، وفي سبتمبر

اجتازت اختبارًا يؤهِّلها للعمل كمدرِّسة رياض أطفال، واستمرت في عملها في دار الأقحوان الأبيض لمدة ست سنوات.

كانت ساقها اليسرى منحنية بشدة من أسفلها، وركبتها جامدة، وفخذها ضامرة بسبب الشقوق العميقة التي أحدثها الدكتور «ساساكي»، فرتَّبت الراهبات المسؤولات عن الدار لإدخالها إلى مستشفى «بيبو» لجراحة العظام.

ظلَّت في المستشفى لأربعة عشر شهرًا، خضعت فيها لثلاث عمليات جراحية رئيسية؛ أولاها كانت لاستعادة شكل فخذها، لكنها لم تكن ناجحة على النحو المطلوب، أما الثانية فكانت لتحرير ركبتها، والثالثة لكسر وتجبير قصبة الساق وعظمة الشظية، وإعادة ضبطها على هيئتها الأصلية.

وبعد انتهائها من فترة العلاج بالمستشفى ذهبت إلى مركزٍ علاجي قريب يحتوي على الينابيع الساخنة، وذلك من أجل إعادة تأهيلها للمشي، وبعد فترة العلاج والتأهيل علمت أن ساقها ستشكِّل مصدر ألم دائم لبقية حياتها، ولن تتمكَّن نهائيًّا من ثَنْيِ رُكْبَتِها إلى النهاية، ولكن بَدَا أن ساقيها أصبحتَا متساويتين في طولهما، وأصبحت قادرة على المشي بصورة طبيعية تقريبًا، وعادت إلى العمل.

كانت دار الأقحوان الأبيض تقف بجوار قاعدة للجيش الأمريكي، حيث يمارِس الجنود تدريباتهم في جانب منها، وفي الجانب الآخر تصطفُّ منازل الضباط، وبعد أن بدأت الحرب الكورية كانت القاعدة ودار الأيتام مكتظَّة، فمن وقت لآخر كانت

تأتيهم امرأة برضيع لأحد جنود الأمريكان، ولم تكن تقول بتاتًا بأنها الأم، بل تزعم غالبًا بأن صديقة لها طلبت منها أن تعهد به لدار الأيتام.

وفي كثير من الأحيان، وأثناء الليل، كان بعض أولئك الجنود المتوتِّرين، من بيض وسود، يتسلَّلون من القاعدة دون إذن، ويأتون إلى الدير متوسِّلين أن يروا أطفالهم، كانوا يريدون التحديق والنظر في وجوه الأطفال، وبعضهم استطاع الوصول إلى الأمَّهات وتزوَّجوا منهن، بالرغم من أنهم قد لا يرون أولئك الأطفال مرةً أخرى.

شعرت «ساساكي ـ سان» بالتعاطف تجاه الأمهات، واللاتي كنَّ عاهرات أحيانًا، وتجاه الآباء أيضًا، كان مبعث تعاطفها معهم شعورها بأنهم شباب مُشَوَّشُون في التاسعة عشرة والعشرين من أعمارهم، وقد جُنِّدُوا في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وقد انتابتهم الآن مشاعر بدائية بالمسؤولية كآباء، أو على أقل تقدير شعور بالذنب.

أدَّتْها أفكارها هذه إلى قناعة غير تقليدية بالنسبة «لهيباكوشا»، فقد أضحت مقتنعة بأن هناك اهتمامًا زائدًا بقوة القنبلة الذرية، في مقابل ضعف الاهتمام بشرور الحرب، كان رأيها عنيفًا ضد أولئك المتضرِّرين على نحو خفيف من «الهيباكوشا»، واللاهثين وراء طموحاتهم السياسية، والذين يركِّزون على موضوع القنبلة الذرية، دون التفكير في تأثيرات الحروب، والتي خلَّفت ضحايا بشكل عشوائي وبلا تمييز، بين

يابانيين عانوا من القنابل الحارقة والذرية، وصينيين تعرَّضوا لهجمات الجنود اليابانيين، وأولئك الجنود المتردِّدين من يابانيين وأمريكيين ممن جُنِّدُوا للقتل أو التشويه، وحتى أولئك البغايا اليابانيات بأطفالهن المختلطة دماؤهم وأنسابهم.

كانت تُدْرِك ـ بحكم تجربتها المباشرة ـ قسوة القنبلة الذرية، ولكنها شعرت بأن التركيز ينبغي أن ينصرف إلى الأسباب الحقيقية التي تقف خلف الحروب الشاملة عِوَضًا عن الأدوات المستعمَلة فيها.

كانت في تلك المدة تسافر مرةً في كل سنة من «كيوشو» «لهيروشيما»، وذلك من أجل زيارة أخويها، بالإضافة لزيارة الأب «كلينزوغر»، والذي كان يُنادَى الآن «بتاكاكورا»، في كنيسة «ميساسا»، وفي إحدى تلك الرحلات، رأت خطيبها السابق في الشارع، كانت مُتَيَقِّنَةً تمامًا أنه رآها، لكنهما لم يتكلَّمَا أبدًا.

سألها الأب «تاكاكورا»: «هل ستعيشين حياتك كلها بهذه الطريقة؛ تعملين بأقصى ما لديك من جهد؟ ألن تتزوَّجي؟ وإن قرَّرتِ عدم الزواج، ألا ينبغي أن تكوني راهبة؟» فكَّرت طويلًا في أسئلته هذه.

وفي أحد الأيام وأثناء عملها في دار الأقحوان الأبيض بلغتها رسالة عاجلة بأن شقيقها قد وقعت له حادثة سيرٍ، وأنه قد يموت، فأسرعت إلى هيروشيما.

لقد ارتطمت سيارة دورية الشرطة بسيارة «ياسو»، وكان الخطأ خطأ الشرطي، نجا «ياسو» من الحادث، ولكن أربعة من

أضلاعه وكلا ساقيه قد كُسِرَتا، كما تهشَّم أنفه، وصار لديه غَوْرٌ دائم في جبهته، وفقد الإبصار من إحدى عينيه.

ظنَّت «ساساكي ـ سان» بأنها ستضطر لرعايته وإعالته للأبد، وبدأت تأخذ بعض الدورات في المحاسبة، وبعد بضعة أسابيع أصبحت مؤهَّلةً لتكون محاسبًا من الدرجة الثالثة.

لكن «ياسو» أَحْرَزَ تقدُّمًا كبيرًا في صحَّته، وبمبلغ التعويض الذي حصل عليه نتيجة الحادث دخل إلى مدرسة موسيقى، ليدرس كيفية إنشاء المقطوعات الموسيقية، وعادت «ساساكي ـ سان» مرةً أخرى إلى دار للأيتام.

في عام ١٩٥٤م زارت «ساساكي ـ سان» الأب «تاكاكورا»، وأخبرته بأنها كانت على ثقة الآن بأنها لن تتزوَّج، وأنها تعتقد أن الوقت قد حان لها أن تدخل في سلك الرهبنة.

ولكن بأي دير للراهبات سيوصيها به؟ اقترح عليها الانضمام إلى نظام الرهبنة الفرنسي، والذي يسمى «معاوني الأرواح المقدسة» «Auxiliatrices du Purgatoire»، وقد كان هذا الدير موجودًا هنا في «ميساسا».

قالت له «ساساكي ـ سان» بأنها لا ترغب الدخول في مجتمع يضطرها للحديث بلغة أجنبية، فوعدها بأن بإمكانها أن تبقى على يابانيتها، وفعلًا دخلت هذا الدير، وبمرور الأيام الأولى هناك وجدت أن الأب «تاكاكورا» قد كذب عليها.

كان عليها أن تتعلَّم اللاتينية والفرنسية، وقيل لها أنه يتعيَّن

عليها حين تسمع نداء الإيقاظ كل صباح أن تنهض وترفع صوتها بالفرنسية قائلة: «رُحْمَاك يا يسوع»، في الليلة الأولى كتبت هذه العبارة بالحبر على كَفِّها؛ لتتمكَّن من قراءتها حين تسمع قرع بابها في صباح اليوم التالي، ولكن تَبَيَّنَ لها أن المكان كان مُظْلِمًا جدًّا، وباتت خائفةً من الفشل هناك.

لم تجد صعوبةً في التعرُّف على حياة «أوجيني سميت»، والتي تُعْرَف بمريم المباركة بالعناية الإلٰهية، مؤسِّسة هذا النظام، والتي ابتدأته سنة ١٨٥٦م في باريس كنظام رعاية للفقراء والتمريض المنزلي، لترسل في نهاية المطاف اثنتي عشرة راهبةً ممن درَّبتهن إلى الصين.

نعم، لم تجد «ساساكي ـ سان» صعوبةً في التعرُّف عليها، لكنها شعرت بصعوبة أن تعود طالبةً مرة أخرى تتعلَّم اللاتينية، وهي التي بلغت الآن الثلاثين من عمرها.

كانت ملازِمة لمبنى الدير، ولا تخرج منه إلا لِمَامًا، لتتمشى بين الفينة والأخرى على ساقٍ تؤلمها، كانت تقطع مسافة ساعتين ذهابًا وإيابًا إلى جبل «ميتاكي»، حيث تهبط من على سفحه ثلاثة شلالات جميلة.

ومع الوقت اكتشفت أنها تتمتَّع بالقوة ورباطة الجأش والمثابرة، وهي صفات رأت أنها قد اكتسبتها من تجربتها في الساعات والأسابيع التي تَلَتْ الانفجار، وحين سألتها رئيسة الراهبات «ماري سان جان دي كنتي» مرةً ما الذي ستفعله لو قيل

لها بأنها قد فشلت، وأن عليها المغادرة؟ فردَّت عليها بحزم: «سأتعلَّق بذلك العمود هناك، وأتمسَّك به بكل قوتي».

وقد تمسَّكت بالأمر فعلًا، وأخذت على نفسها نَذْرَ الزهد والعفة والطاعة سنة ١٩٥٧م، وانضمَّت بذلك إلى أخوية الراهبات باسم الأخت «دومينيك ساساكي».

وكل من كان حولها أدرك ما تتميَّز به من قوةٍ، فتم تعيينها مباشرة لتكون مديرة لدار العجزة، والتي ترعى سبعين طاعنًا في السن بالقرب من «كوروساكي»، على جزيرة «كيوشو»، في حديقة تسمَّى «حديقة القديس يوسف»، كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها فقط، وأول يابانية ترأس تلك الدار، وتُشْرِف على فريق مؤلَّف من خمسة عشر شخصًا، خمسة منهم من الراهبات الفرنسيات والبلجيكيات.

كان عليها أن تدخل مباشرة في مباحثات مع جهات بيروقراطية محلية ووطنية، ولم يكن لديها أيَّة كتب لتتعلَّم منها كيفية رعاية المسنين، وورثت مبنى خشبيًّا متهالكًا، والذي كان معبدًا فيما سبق ومؤسسة تًعاني الكثير وتجهد حتى في إطعام الضعفة من نزلائها، والتي كانت تضطر لإرسالهم في بعض الأحيان للبحث عن الحطب.

معظم كبار السن من الرجال هنا كانوا يعملون في مناجم «كيوشو» المعروفة بقسوتها، وبعض الراهبات الأجنبيات كن قاسيات، وكانت طريقة كلامهن مخالِفة لتلك التي كان يتميز بها اليابانيون، فقد كانوا يتكلَّمون معها بطريقة حادة، وقاسية، ومُؤْذِيَة.

لكنها استطاعت أن تظلَّ مسؤولة بالكامل عن تلك الدار مدة عشرين سنة، بحكم جَلَدِها وإصرارها الذي تطبَّعت به.

ومما استطاعت تطويره في عمل هذه الدار إدخالها لنظام منطقي في ضبط السجلات المالية، وذلك بفضل دراستها للمحاسبة، كما أنها وفي وقت لاحق، وبدعم من فروع الجمعية في الولايات المتحدة، استطاعت أن تجمع أموالًا كافية لبناء مبنى خرساني جديد يشق أحد التلال، وأشرفت على تأسيسه وبنائه، لكن في سنوات تالية بدأت المياه الجوفية تقوِّض دعائم هذا المبنى وأساساته، فتدبَّرت أمر استبداله بمبنى آخر أكثر حداثةً، ومَبْنِيٍّ من الخرسانة المسلحة، وكانت غُرَفُه منوعةً بين غرف فردية ومزدوجة، وبمغاسل ومراحيض على النمط الغربي.

وقد وجدت أن أعظم الهِبَات بالنسبة إليها كانت تتمثَّل في قدرتها على مساعدة النزلاء في أن يموتوا بطمأنينة وسلام، لقد شهدت كمًّا هائلًا من الموت في هيروشيما بعد الانفجار، وشهدت ما يمكن أن يفعله الناس من أشياء غريبة حين يحاصرهم الموت فجأة، حتى ما عاد شيء يثير استغرابها أو فزعها.

حين جلست لأول مرة بجوار أحد النزلاء وهو يحتضر تذكَّرت بوضوح إحدى الليالي التي أعقبت الانفجار بمدة يسيرة، حين كانت في العَرَاء مستلقية دون رعاية، وفي ألم رهيب، بجوار شاب يحتضر، استمرت تحادِثه طيلة تلك الليلة، وأدركت أثناء ذلك حجم الخوف الذي انتابه من شعور الوحدة، رأته بعد ذلك وقد مات في أثناء النهار.

وأصبحت كلَّما جلست بجوار سرير طاعنٍ يحتضر تتذكَّر ذلك الشعور المؤلم، كانت تحادِث مَن يحتضر بكلام قليل، لكنَّها كانت تقبض على يده، أو تلمس ذراعه، لتؤكد له ببساطة أنها معه.

كشف لها عجوز مرةً وهو على فراش الموت أنه قد طعن رجلًا في ظهره وجلس يراقبه وهو ينزف حتى مات، كان يصف المشهد بدقة كبيرة، حتى شعرت أنها قد شهدت تلك الجريمة فعلًا، وعلى الرغم من أن القاتل لم يكن مسيحيًّا، فقد قالت له الراهبة «ساساكي» أن الله قد غفر له، فمات الرجل في طمأنينة وراحة.

وشهدت رجلًا مسنًّا آخر، كان سِكِّيرًا ككثير من عُمَّال المناجم في «كيوشو»، وكانت سُمْعَتُه سيئة جدًّا، حتى أن أسرته تخلَّت عنه وهجرته، لكنه حاول في دار المسنين أن يُرْضِي الجميع بحماسةٍ وشغفٍ تثير الشفقة، كان يتطوَّع لحمل الفحم من صناديق التخزين، ليوقَدَ بها سخانات المبنى، وكان يعاني من تليُّف في الكبد، وقد حُذِّر من قبول حِصَّته اليومية من المشروبات الكحولية المقطَّرة، والتي لا تزيد عن ١٥٠ ميلليلترًا، والتي كانت توزَّع على عمال المناجم المتقاعدين، لكنه استمر في شربها، وأثناء تَقَيُّئِه على طاولة العشاء في إحدى الليالي تمزَّق أحد أوعيته الدموية، واستمر يحتضر لثلاثة أيام حتى مات، بقيت الراهبة «ساساكي» بجواره طيلة الوقت، ممسكةً بيده؛ ليعلم حين يموت بأنها كانت راضيةً عنه.

في سنة ١٩٧٠م حضرت الراهبة «ساساكي» مؤتمرًا دوليًّا للراهبات في روما، وبعدها زارت مرافق دور الرعاية في إيطاليا، وسويسرا، وفرنسا، وبلجيكا، وإنجلترا.

ثم تقاعدت من عملها في دار حديقة القديس يوسف وهي في الخامسة والخمسين سنة ١٩٧٨م، وتم تكريمها برحلةٍ لزيارة الكرسي البابوي في روما، ولأنها كانت غير قادرة على أن تعيش عاطلةً من غير عمل فقد التزمت الجلوس عند طاولة خارج كاتدرائية القديس بطرس بروما، وذلك لتقديم النصح والإرشاد للسياح اليابانيين، وفي وقت لاحق أصبحت هي الأخرى سائحة، حيث سافرت لفلورنسا، وبادوفا، وأسيزي، والبندقية، وميلانو، وباريس.

ثم عادت لليابان مرة أخرى، وحين عادت تطوَّعت للعمل سنتين في مقر الجمعية الرئيسي في طوكيو، ثم سنتين أيضًا كرئيسة للراهبات في دير «ميساسا»، حيث تلقَّت تدريبها.

وبعدها عاشت حياة هادئة كمشرفة على قاعة نوم الفتيات في مدرسة الموسيقى التي تلقَّى شقيقها تعليمه فيها، كانت الكنيسة قد استحوذت عليها، وصارت تسمى الآن بكلية إليزابيث للموسيقى.

لقد تخرَّج «ياسو» في هذه المدرسة، وصار مؤهَّلًا للتدريس، فأصبح معلِّمًا للموسيقى والرياضيات في ثانوية «كوتشي» على جزيرة «شيكوكو».

أما «يايكو» فقد تزوَّجت من طبيب يملك عيادة خاصة في هيروشيما، وكان بإمكان الراهبة «ساساكي» الذهاب إليه متى ما احتاجت إلى مشورة طبية، فبالإضافة إلى الصعوبات المستمرة التي تواجهها بسبب ساقها، فقد عانت من بعض العلل والأمراض، والتي ـ كما هو الحال عند كثير من «الهيباكوشا» ـ لا يُدرى هل هي بسبب تأثيرات القنبلة أم لا؛ كاختلال وظائف الكبد، والتعرُّق الليلي، والحُمَّى الصباحية، والذبحة الصدرية، وبُقَع الدم على ساقيها، والروماتيزم.

وفي سنة ١٩٨٠م كانت على موعد مع إحدى أسعد اللحظات التي مرَّت بها في حياتها، وذلك أثناء وجودها في مقر الجمعية في طوكيو، فقد تم تكريمها بحفل عشاء بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تحوُّلها لراهبة.

وصادف أن تكون ضيفة الشرف الأخرى لهذه الاحتفالية رئيسة الجمعية بباريس، الأم «فرانس ديلكورت»، والتي أمضت هي الأخرى خمسًا وعشرين سنة في الجمعية.

أهدتها الأم «ديلكورت» لوحة لمريم العذراء.

وألقت «ساساكي» خطابًا قالت فيه: «لن أخوض بالحديث في أمور الماضي؛ فقد بَدَا الأمر كما لو كنتُ قد أُعْطِيتُ حياة بديلة حين نَجَوْتُ من القنبلة الذرية.

إنني أُفضِّل ألا ألتفت للوراء، وسأظل أتقدَّم نحو الأمام».

٥ ـ «ماساكازو فوجي»

كان هذا الرجل الخمسيني أنيس المعشر، محبًّا للمنادمة، وكان يستمتع كثيرًا بصحبة الأجانب، وفي الوقت الذي كان عمله في عيادته في «كايتايتشي» يزدهر ويمضي قُدُمًا، فقد كان سعيدًا بِمَساءاته التي يزوِّد فيها جنود الاحتلال بِمَدَدٍ لانهائي من ويسكي «السنتوري»، والتي استطاع أن يضع يده عليها بطريقة ما.

ظل لسنوات هاويًا لتعلُّم اللغات الأجنبية، وكانت الإنجليزية واحدة من تلك اللغات، كما تعلَّم الألمانية أيضًا من أحد أصدقائه القُدَامى ـ الأب «كلينزوغر» ـ، والذي كان يزوره في بعض الْمَساءات لتعليمه هذه اللغة، ومن اللغات التي التقطها أيضًا الإسبرانتو، وخلال فترة الحرب كانت الشرطة السرية اليابانية مقتنعةً بأن الروس كانوا يعتمدون هذه اللغة لتمرير رسائلهم المشفَّرة، ولأجل ذلك تم التحقيق مع الدكتور «فوجي» أكثر من مرة حول ما إذا كان يستلم رسائل من منظَّمة «الكومنترن» الشيوعية، وكان السيد «فوجي» متلهِّفًا الآن لتكوين صداقات مع الأمريكان.

في عام ١٩٤٨م فرغ من بناء عيادة جديدة له في هيروشيما، على ذات الموقع الذي دُمِّر فيه مستشفاه، كانت العيادة الجديدة عيادةً خشبيةً متواضعةً، مع نصف دُزِّينة من غرف النوم المخصَّصة للمرضى.

كان قد تخصَّص في جراحة العظام، لكن هذا التخصُّص

بعد الحرب قد تفرَّع إلى عدد من التخصُّصات الفرعية، وكان لديه في وقت سابق اهتمام خاص بموضوع خلع الورك قبل الولادة، لكنه الآن بات مقتنعًا بعجزه عن أن يتخصَّص في فرع معين لكِبَر سنه، بالإضافة إلى عدم توافُر الأجهزة والمعدات المتقدمة للتخصص.

كان يُجْرِي عمليات إزالة الجَدَرَة، واستئصال الزائدة الدودية، وعلاج الجروح، كما تولَّى أيضًا معالجة بعض الأمراض التناسلية وغيرها، ومن خلال أصدقائه من جيش الاحتلال استطاع الحصول على البنسلين، وكان يعالِج يوميًّا ثمانين مريضًا.

كان لديه خمسة أولاد كبار، وبحسب التقاليد اليابانية، فقد كان من المتوقَّع أن يحذو الأبناء حذو أبيهم، الكبرى من أولاده والصغرى كانتا من البنات ـ «مِيَكُو» و«وتشيكو» ـ وكلتاهما تزوجت طبيبًا، وأكبر الأبناء ـ «ماساتوشي» ـ سار سيرة أبيه، وأصبح طبيبًا، وورث عيادة «كايتايتشي»، وصار يعمل فيها، فيما لم يذهب الابن الثاني ـ «كيجي» ـ إلى كلية طبية، وإنما أصبح فني أشعة سينية، وأما أصغر الأبناء ـ «شيغيوكي» ـ فقد امتهن الطب هو الآخر، وكان يعمل من ضمن الطاقم الطبي بمستشفى جامعة «نيهون» في طوكيو.

كان «كيجي» يعيش مع والديه، في البيت الذي بناه الدكتور «فوجي» بجوار عيادة هيروشيما.

لم يعانِ الدكتور «فوجي» من أي أعراضٍ لامتصاص جرعةٍ زائدةٍ من الإشعاعات، وشعر أن أفضل علاج لأي أضرار نفسية

وقعت له من مشاهدة فظاعات يوم الانفجار يكمن في مبدأ اللذة، ولذا فقد كان يُوصِي «الهيباكوشا» الذين كانوا يعانون من أعراض التسمُّم الإشعاعي أن يأخذوا جرعةً مُنْتَظِمةً من الكحول، لقد كان مستمتعًا بحياته، وكان حَنُونًا ورحيمًا تجاه مرضاه، لكنه لم يكن يعتقد بأنه يتعيَّن عليه أن يُجْهِد نفسه في عمله.

خَصَّص مساحة في المنزل كقاعة للرقص، ووضع فيها التجهيزات اللازمة، كما اشترى أيضًا طاولة بلياردو، وكان يستمتع بالتصوير الفوتوغرافي، وبنى لنفسه غرفة مُظْلِمَة، كما كان يلعب «الماه ـ جونغ»، وكان يحب استضافة الأجانب، وعند نومه كانت إحدى الممرِّضات تقوم بتدليكه، وقد تعطيه أحيانًا بعض الحقن العلاجية، ثم إنه بدأ يهتم بلعبة الغولف، وبنى لأجل ذلك حفرة رملية في حديقته ونصب شبكةً لصد الكرة في خلفيتها.

وفي سنة ١٩٥٥م دفع رسوم الانضمام إلى النادي الريفي الخاص بهيروشيما، والتي كانت تبلغ مائة وخمسين ألف ينّ، والتي تعادل في ذلك الوقت أربعمائة دولار تقريبًا، لم يلعب الغولف كثيرًا، ولكنه استبقى اشتراكه بالنادي بسبب ما كان يُدْخِله هذا الاشتراك من بهجة على أولاده، وستبلغ كُلْفَة الاشتراك في ذلك النادي بعد ثلاثين سنة خمسة عشر مليون ين، أو ستين ألف دولار.

استسلم بعد ذلك للهوس الياباني بلعبة البيسبول، كان اللاعبون من هيروشيما يُدْعَوْنَ بالإنجليزية «كاربز» «Carps»، إلى أن أوضح الدكتور «فوجي» للجمهور أن صيغة الجمع منها تعني

سمك، وأنه ينبغي تسمية اللاعبين «كارب» دون ذِكْر حرف «s».

كان معتادًا على الذهاب إلى مشاهدة المباريات في الملعب الضخم الجديد، والذي لم يكن يَبْعُد كثيرًا عن قُبَّة القنبلة الذرية ـ والتي تمثِّل بقايا أنقاض قاعة المعرض الصناعي بهيروشيما، والتي استبقتها المدينة كالتذكار الوحيد المباشر المتبقِّي من آثار القنبلة ـ.

كانت نتائج فريق «الكارب» في مواسمه المبكِّرة سيئةً للغاية، ومع ذلك فقد كان له جمهور حاشد متعصِّب، كان الأمر شبيهًا بحال فريق «البروكلين دوجيرز»، أو «النيويورك ميتز» في سنواته العِجَاف، لكن الدكتور «فوجي» كان بشيء من الخُبْث يشجِّع فريق «طوكيو سوالوز»، وكان يضع شارة هذا الفريق على سُتْرَتِه.

لقد ظهرت في هيروشيما بعد إعادة إعمارها وتجديدها مقاطعة تمثِّل أكثر المناطق الترفيهية ابتذالًا في اليابان كلها، منطقة تَشِعُّ فيها لوحات النيون بألوانها المتعدِّدة وكأنها تغمز للزبائن المحتمَلين وتغريهم بالمجيء، حانات منتشرة هنا وهناك، بالإضافة لبيوت «الغيشا»، والمقاهي، وقاعات الرقص، وبيوت الدعارة الْمُرَخَّصة.

حَظِيَ الدكتور «فوجي» بسمعة غير حسنة؛ إذ كان يُنظر إليه على أنه «بورايبوي»، أو شخص ماجِن، وفي إحدى الليالي أخذ ابنه البسيط الساذج «شيغيوكي»، والذي كان في العشرين من عمره، وذلك أثناء تمتُّعه بإجازته من دراسة الطب في كلية طوكيو، ليذهب به إلى المدينة ليريه كيف يصبح رجلًا، ذهبوا معًا

إلى مبنى كبير، يحتوي على قاعة رقص ضخمة، وكانت الفتيات يَقِفْنَ في جانب منه في صفٍّ طويل.

التفت «شيغيوكي» لوالده وأخبره بأنه لا يعرف ما الذي يتعيَّن عليه فعله، لقد كان مرتبكًا ولا تكاد تحمله قدماه، فقام الدكتور «فوجي» واشترى تذكرةً، واختار فتاة جميلة جدًّا، وقال لـ«شيغيوكي» أن ينحني أمامها ويأخذها إلى هناك ويرقص معها كما علَّمه في المنزل، وطلب من الفتاة أن تكون لطيفة مع ابنه، وانسلَّ بهدوء.

في سنة ١٩٥٦م كان الدكتور «فوجي» على موعد مع مغامرة، فقد كان من المقرَّر ذهاب عذراوات هيروشيما إلى الولايات المتحدة لإجراء عمليات تجميل، وكنَّ قبل ذلك في رعاية اثنين من جرَّاحي هيروشيما، ولم يكن بإمكانهما مرافقتهن لمدة عام، فاختير الدكتور «فوجي» ليحل محل أحدهما.

سافَر معهن في فبراير، ولمدة عشرة أشهر ـ في نيويورك وحواليها ـ أدَّى دور الأب الحنون لخمسة وعشرين فتاةً معاقة، كان يتابِع سير العمليات في مستشفى جبل سيناء، ويقوم بدور المترجِم بين الأطباء الأمريكيين والفتيات، وذلك لمساعدة الفتيات لفهم مجريات الأمور.

كان مسرورًا بقدرته على محادثة زوجات بعض الأطباء اليهوديات بالألمانية، وفي إحدى المناسبات أَثْنَى حاكم ولاية نيويورك على إنجليزيته.

كانت الفتيات يَعِشْنَ مع بعض العائلات الأمريكية، والتي

لم تكن تتحدَّث اليابانية، مما أشعرهن بالوحدة، فكان الدكتور «فوجي» يبتكر عدة طرق لإدخال البهجة والسرور عليهن، لقد كان شخصًا مَرِحًا ومتفهِّمًا، ومراعيًا لمشاعر الآخرين، وكان يرتِّب بين الفينة والأخرى نزهةً يصطحب فيه فتاتين أو ثلاثة في كل مرة، ويأكلون فيها طعامًا يابانيًّا.

وقد رتَّب أحد الأطباء الأمريكان وزوجته مرةً لحفل بعد ثلاثة أيام فقط من خضوع إحدى العذراوات ـ «ميتشيكو ياماوكو» ـ لعملية كبيرة، كانت الضمادات لا تزال تغطِّي وجهها، وقد لُفَّتْ يدها بعصابةٍ وشُدَّت إلى جسدها، لم يرغب الدكتور «فوجي» أن تفوتها الحفلة، واستطاع أن يُنَسِّق مع أحد الأطباء الأمريكان لنقلها في سيارة ليموزين حمراء مفتوحة، ومن ورائها دورية شرطة تطلق صافرة إنذار، وفي الطريق طلب منهم الدكتور «فوجي» التوقُّف عند إحدى الصيدليات، ونزل من السيارة واشترى لها لعبة حصان بعشرة سينتات، وطلب من أحد رجالات الشرطة أن يلتقط لهم صورة أثناء تقديم الهدية.

وكان في بعض الأحيان يخرج وحده لقضاء وقت ممتع، وكان صاحبه في تلك الرحلة طبيب ياباني آخر اسمه «تاكاهاشي»، وهو صاحبه في غرفة الفندق أيضًا، وكان هذا الدكتور لا يشرب كثيرًا، وكان خفيف النوم، وكان الدكتور فوجي إذا رجع إلى الغرفة في وقت متأخِّر من الليل يصطدم بما حوله، ويتخبَّط، ثم يسقط نائمًا، لتعلو منه سيمفونية شخير، لقد كان يقضي وقتًا رائعًا.

ولكن هل ظلَّ كذلك بعد تسع سنوات هناك في هيروشيما؟ هل استمر في مرحه غير عابئ بالمستقبل؟ زوج ابنته «تشيكو» كان يعتقد أنه لم يكن كذلك، لقد كان يعتقد بأنه كانت تلوح عليه أمارات تكشف عن روح عناد وجمود، وميل نحو الحزن والكآبة، وقد تَرَكَ الابن الثالث «شيغيوكي» عمله في طوكيو، ليُعِين أباه ويخفِّف عنه في عمله، وانتقل ليسكن في منزل كان والده قد بناه على قطعة أرض قريبة من العيادة.

وقد عرضت للأب مرةً سحابةُ صيفٍ عابرة، وذلك أثناء رئاسته لنادي الليونز بهيروشيما، حيث تشاجَر مع أحدهم، كان الشِّجَار حول ما إذا كان يتعيَّن على النادي التحوُّل من خلال سياسة القبول إلى منظمة حصرية للطبقة الأرستقراطية؛ كجمعية الأطباء اليابانيين، أم أن عليها أن تبقى كما هي في جوهرها منظمة خدمة مجتمعية مفتوحة للجميع.

وحين بَدَا أن الدكتور «فوجي» قد يخسر في معركته هذه نصرةً للرأي الأخير، استقال فجأة من موقعه مع شيء من خيبة الأمل والإحباط.

وبدأت علاقته مع زوجته تسوء، فمنذ مجيئه من رحلته من أمريكا رغب أن يكون له منزل مُشَابِه لبيوت الأطباء التي رآها هناك، وهو ما كَدَّرَ خاطرها وتسبَّب في استيائها، لكنه صَمَّمَ على رأيه، وبنى ذلك البيت بجوار المنزل الخشبي الذي كان يعيش فيه «شيغيوكي»، لقد كان بيتًا مبنيًّا من الخرسانة بثلاثة طوابق، وكان بيتًا خاصًّا به وحده.

كان الطابق الأرضي مؤلَّفًا من غرفة معيشة ومطبخ على الطراز الأمريكي، وكان مكتبه في الطابق الثاني، حيث تصطفُّ على الجدران كتب مجلَّدة، والتي اكتشف «شيغيوكي» أنها عبارة عن مذكراته التي نَسَخَهَا في كلية الطب عن مذكرات أحد زملائه في القاعة، واسمه «إيواماتو»، والذي كان ألمع منه وأكثر تميُّزًا، أما الطابق العلوي فاشتمل على غرفة نوم بمساحة ثماني حصر ومصمَّمَة على الطريقة اليابانية، بحمام على الطراز الأمريكي.

ومع نهاية عام ١٩٦٣م هرع لإكمال البناء؛ ليكون جاهزًا لزوجين أمريكيين ممن استضافوا بعض عذراوات هيروشيما في أمريكا، حيث كانَا سيأتيان في زيارةٍ مع بداية السنة الميلادية الجديدة، وأراد أن يجرِّب المنزل الجديد بالنوم فيه لبضع ليالٍ، حاولت زوجته أن تُثْنِيَه عن قراره المتعجِّل هذا، ولكنه وبحكم عناده انتقل إليه في أواخر شهر ديسمبر.

وفي ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة من عام ١٩٦٣م كان الدكتور «فوجي» جالسًا بشكل مريح على حصير في غرفة المعيشة بمنزل ابنه «شيغيوكي»، وقد وضع قدميه في «كوتاتسو»، وهي عبارة عن كمَّادةٍ كهربائية للقدمين.

وكان ابنه معه في تلك الغرفة برفقة زوجته، وزوجين آخرين، لكن زوجة الدكتور «فوجي» لم تكن معهم، كانت الخطة أن يستمتعوا ببعض المشروبات، ويشاهدوا برنامجًا سنويًّا يُعرَض على الشاشة في ليلة رأس السنة الميلادية يسمى «كو ـ هاكو أوتا ـ غاسين»، وهي مسابقة بين فريقين؛ فريق أحمر (إناث)، وفريق

أبيض (ذكور)، يشارك فيه عدد من المطرِبين المشهورين، والذين يتم اختيارهم للبرنامج من قِبَل استطلاعات الرأي من قِبَل المستمِعين، وكان فريق التحكيم بالبرنامج يضم عددًا من مشاهير الممثِّلين، والمؤلِّفين، ولاعبي الغولف، ولاعبي البيسبول أيضًا، ويستمر بث البرنامج من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة إلا ربعًا، ثم تُقْرَع الأجراس بمناسبة دخول السنة الجديدة.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة لاحَظ «شيغيوكي» أن والده، والذي لم يشرب كثيرًا، كان يَخْفِق رأسه وكأنه على وشك النوم، فاقترح عليه الذهاب إلى سريره، وبعد دقائق يسيرة وقبل نهاية البرنامج قام الأب فعلًا وذهب، وعلى خلاف غالب لياليه لم ترافِقه الممرِّضة، والتي كانت تدلك ساقيه قبل نومه.

وبعد مدة، وبشيء من القلق، ذهب «شيغيوكي» للاطمئنان على والده، وحين وصل إلى جانب المنزل المقابل للنهر نظر للأعلى، ورأى ضوءًا من نافذة غرفة النوم، شعر بالراحة، واعتقد أن كل شيء على ما يرام.

كانت العائلة قد رتَّبت للاجتماع في اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة لتناول بعض المشروبات، وطعام الإفطار السنوي التقليدي من «الأوزوني» ـ وهو نوع من الحساء ـ، و«الموتشي» ـ وهو كعك الأرز ـ، وصلت «تشيكو» مع زوجها، وبعض الضيوف الآخرين وبدأوا في الشرب.

كانت الساعة الآن الحادية عشرة والنصف، ولكن الدكتور «فوجي» لم يأتِ، فأرسل «شيغيوكي» ابنه البالغ من العمر سبع

سنوات ـ «ماساتسوغو» ـ لمناداته من نافذة غرفته، وحين لم يجد الصبي أي جواب، حاوَل أن يدخل عبر الباب، لكنه كان مُقْفَلًا، فاستعار سُلَّمًا من أحد الجيران، وصعد إلى النافذة وأخذ ينادي، ولكن لا جواب، وحين أخبر والديه بالأمر انتابهم القلق وخرجوا مُسْرِعِينَ، وكسروا النافذة المجاورة للباب ليفتحوه، كانت رائحة الغاز تملأ المكان، فهرعوا عبر الدرج للأعلى، وهناك وجدوا الدكتور «فوجي» فاقدًا للوعي، وسخان الغاز عند أريكته قد تم تشغيله، لكنه لم يكن يشتعل، ومن حُسن حَظِّه أن مروحة التهوية كانت تعمل، وبسبب الهواء النقي الذي كان يأتي منها فقد بَقِيَ على قيد الحياة، كان مستلقيًا على ظهره في سكينة وهدوء، وكان هناك ثلاثة أطباء من ضمن الحضور ـ ابن الدكتور، وزوج ابنته، وأحد الضيوف أيضًا ـ جلبوا الأوكسجين وغيره من المعدَّات من العيادة، وفعلوا كل ما في وسعهم لإنعاش الدكتور «فوجي»، لكن دون جدوى، ثم دعوا أحد ألمع الأطباء ممن يعرفون ـ البروفيسور «ميانيشي» ـ من جامعة هيروشيما، كان أول سؤال طرحه: «هل كان الأمر محاولة انتحار؟»، وكانت وجهة نظر الأسرة أن لا.

لم يكن هناك شيء يمكن فِعْلُه حتى الرابع من يناير، حيث تُغْلَق جميع المحال في هيروشيما لمدة ثلاثة أيام، وتكون الخدمات الطبية للمستشفيات في حدودها الدنيا، استمر الدكتور «فوجي» فاقدًا للوعي، ولكن لم يظهر أنه في حالةٍ حرجة، وفي اليوم الرابع جاءت سيارة إسعاف، وبينما كانوا يحملونه متجهين

به للطابق السفلي تحرَّك، وكأنما كان يسبح صاعدًا إلى سطح الوعي، استيقظ واعتقد على ما يبدو أنه في أعقاب انفجار القنبلة الذرية، وأن من حوله يقومون بإنقاذه، كان يسأل مَن يحمله: «من أنتم؟ هل أنتم جنود؟».

وفي المستشفى الجامعي بدأ يتعافى.

في الخامس عشر من يناير، ومع بداية منافسات مصارعة السومو السنوية، طلب جهاز التلفاز المحمول الذي كان قد اشتراه من أمريكا، وجلس في سريره يشاهد تلك المنافسات، كان قادرًا على الأكل بنفسه، بالرغم من أن طريقته في استعمال أعواد الأكل كانت غريبة نوعًا ما، طلب زجاجة من الساكي، ومع تحسُّن صحته أصبحت عائلته أكثر اطمئنانًا على أمره وأكثر غفلةً عنه.

وفي الخامس والعشرين من يناير لاحَظ أن برازه صار مائعًا فجأة، وتظهر فيه آثار الدم، وبدأ يعاني من الجفاف، وفَقَدَ وعيه، وعلى مدى السنوات الإحدى عشرة التالية عاش في غيبوبة كاملة.

ظلَّ في المستشفى لمدة سنتين ونصف يتغذَّى فيها عبر الأنبوب، ثم تم نقله بعد ذلك إلى منزله، حيث كانت زوجته وأحد خُدَّامه المخلِصين يرعون شؤونه، ويُطعمونه من خلال الأنبوب، ويغيِّرون حفاظاته، ويغسلون جسمه، ويدلكونه، ويعالجونه من التهابات ظهرت في مسالكه البولية، وكان يبدو ـ في بعض الأحيان ـ وكأنه يستجيب للأصوات، وفي أحيان أخرى كأنه يوصل رسالة ـ وإن بطريقة مبهمة ـ إن كان راضيًا أو غير راضٍ.

وفي تمام الساعة العاشرة من ليلة الحادي عشر من يناير لسنة ١٩٧٣م أخذ «شيغيوكي» ابنه «ماساتسوغو»، وهو الصبي الذي كان قد تسلَّق السلم للمناداة على جده في يوم وقوع الحادث، كان الآن في السادسة عشرة من عمره طالبًا في معهدٍ لإعداد الطلبة للمسار الطبي.

كانَا يجلسان الآن بجوار سرير الدكتور «فوجي»، وكان الأب راغبًا أن يرى الابنُ جَدَّه بعيون طبيب، استمع «ماساتسوغو» إلى طريقة تنفُّس جده وإلى ضربات قلبه، وفحص ضغط دمه، وقرَّر أن حالته مستقرة، ووافقه والده على ذلك.

وفي صباح اليوم التالي اتصلت والدة «شيغيوكي» عليه، وأبلغته بأن شكل والده بَدَا غريبًا بالنسبة لها، وحين وصل «شيغيوكي» وجد أن والده قد مات.

كانت أرملة الدكتور ضد إجراء تشريح طبي له، لكن «شيغيوكي» كان راغبًا في إجراء ذلك، ولجأ إلى حيلة من أجل ذلك، فقد أخذ الجثة لحرقها، لكنه هرَّبها في تلك الليلة من الباب الخلفي وسلَّمها إلى لجنة ضحايا القنبلة الذرية الأمريكية، وذلك على رأس تَلَّة في شرق المدينة.

وحين تمت عملية التشريح ذهب «شيغيوكي» ليطَّلِع على التقرير الطبي، وحين رأى أعضاء والده الداخلية مُوَزَّعة في عبوات مختلفة انتابه شعور غريب، شعور كشعور لقاء الوداع، وقال: «ها أنت هناك أوتو ـ تشان»، «ها أنت هناك، بابا».

أَرَوْهُ أن دماغ والده قد ضمر، وأن أمعاءه الغليظة قد

تضخَّمت، وأن هناك ورمًا سرطانيًّا بحجم كرة تنس الطاولة في كبده.

تم بعدها حُرِق بقايا جثمانه، ودُفِن في فناء معبد ليلة اللوتس التابع لطائفة «الجودو شينشو» البوذية، وذلك بالقرب من منزل عائلة الأم في «ناغاتسوكا».

وتَلَا ذلك نهاية حزينة لقصة هذا «الهيباكوشا».

فقد اختلفت العائلة وتشاجرت على ممتلكاته، ورفعت الأم دعوى قضائية ضد الابن.

٦ ـ «كيوشي تانيموتو»

بعد سنة من الانفجار بدأ أهالي هيروشيما رحلة البحث من تحت الأنقاض عن أراضيهم التي وقفت عليها بيوتهم فيما مضى، ليستعيدوها ويضعوا أيديهم عليها مرة أخرى، كثير منهم قد بنى لنفسه كوخًا خشبيًّا بدائيًّا، مستفيدًا من البلاط المتناثِر في كل مكان، ليجعل منها سقفًا لذلك الكوخ البدائي، لم يكن هناك كهرباء لإضاءة الأكواخ، وكانوا يتجمَّعون عند الغَسَق من كل مساء مدفوعين بشعور الوحدة والحيرة وخيبة الأمل في منطقة مفتوحة بالقرب من محطة «يوكوغاوا» ليتبادَلوا البضائع في سوق سوداء، وليواسِي بعضهم بعضًا.

وفي هذه المنطقة كان يرابط كل مساء «كيوشي تانيموتو» وأربعة قساوسة آخرون من البروتستانت، ومعهم عازف بالبوق وآخر بالطبل، يعزف هذا، ويضرب الآخر بطبلته على وقع أغنية:

«إلى الأمام يا جنود المسيحية»، ثم يتبادَل القساوسة الأدوار فيما بينهم للصعود على صندوق للوعظ والتبشير.

ومع قلة مظاهر الترفيه هنا فقد كان هناك حشدٌ دائم، ومن بين ذلك الحشد فتيات «بانبان»، واللاتي يأتين عادةً كعاهرات ليعرضوا خدماتهن على الجنود.

كان الغضب يعتمل في نفوس كثير من «الهيباكوشا»، وكان هذا الغضب موجَّهًا في البداية صوب الأمريكان جرَّاء إلقائهم للقنبلة، ولكنه الآن بدأ يتحوَّل ببطء وخفاء إلى حكومتهم، والتي أدخلت بلدهم في حرب طائشة محكوم عليها بالفشل والهزيمة، كان القساوسة يقولون بأنه لا فائدة من إلقاء اللوم على الحكومة، وأن أمل الشعب الياباني يَكْمُن في تطهير نفوسهم من خطاياهم بالتوبة والالتجاء إلى الله: «أما أنتم، فاطلبوا أولًا ملكوت الله وبِرَّهُ، وهذه كلها تزاد لكم، لا تهتموا بأمر الغد؛ فإن الغد يهتم بأمر نفسه، يكفي كل يوم ما فيه من سوء!»[١].

وسرعان ما أدرك «كيوشي تانيموتو» بأن طريقته في التبشير عديمة الفائدة؛ إذ لم تكن لديه كنيسة لجذب المدعوين إليها، كانت بعض أجزاء كنيسته المبنية من الخرسانة المسلحة لا تزال واقفة، وبدأ يفكِّر في كيفية إعادة المبنى لِمَا كان عليه، ولكن لم يكن لديه مال، كان المبنى مؤمَّنًا بمائة وخمسين ألف ينٍّ ـ أقل من خمسمائة دولار ـ، ولكن أموال البنك تم تجميدها من قِبَل الغزاة المحتلين.

---

(١) إنجيل متى (٦/ ٣٣ ـ ٣٤) من ترجمة «كتاب الحياة» للكتاب المقدس. (المترجم).

وبعد أن عرف بأن الإمدادات العسكرية يتم تخصيصها لمختلف عمليات إعادة الإعمار، استطاع الحصول على طلب توريدٍ لمواد الوقود من حكومة المحافظة، ليبدأ بعدها رحلة البحث عما يمكنه بيعه أو استخدامه.

في تلك الفترة التي اتَّسعت فيها موجة السرقات، ومشاعر الغيظ والاستياء من الجيش الياباني، تم نَهْب الكثير من مستودعات الإمداد المختلفة، ووجد أخيرًا مستودعًا للأصباغ في جزيرة «كاماغاري»، كان المكان في حالة فوضى بسبب قوات الاحتلال الأمريكية؛ إذ لم يكونوا قادرين على قراءة الملصقات اليابانية الموضوعة على العلب، فقاموا بثقب عدد كبير منها، ورَكَلُوا عددًا آخر وأسقطوه ليعرفوا ما الذي تحتوي عليه، استطاع القس أن يضع يده على قارب، وأن ينقل عليه شحنةً كبيرةً من تلك العلب الفارغة إلى الجزيرة الرئيسية، وبعد مفاوضة ومقايضة مع شركة «تودا» للمقاولات استطاع إقناعهم ببناء سقفٍ من القِرْمِيد لكنيسته في مقابل إعطائهم تلك العلب الفارغة.

وشيئًا فشيئًا، وعلى مدى بعض الأشهر، عمل هو وعدد قليل معه من أبناء الكنيسة المخلِصين في أعمال النجارة، لكنهم لم يُنْجِزُوا الكثير بسبب قلة ذات اليد.

في ١ يوليو ١٩٤٦م، وقبل الذكرى السنوية الأولى للانفجار، قامت الولايات المتحدة بتجربة قنبلة ذرية في منطقة «بيكيني أتول»، وأعلنوا في ١٧ مايو ١٩٤٨م انتهاءهم من التجربة بنجاح.

في مراسلةٍ جَرَتْ بينه وبين زميل دراسةٍ من جامعة «إيموري» يُدْعَى السيد «مارفن غرين»، والذي أصبح قَسًّا في كنيسة «ويهاوكن» في مدينة نيوجرسي، عبَّرَ «كيوشي تانيموتو» عن الصعوبات التي يواجهها في إعادة بناء كنيسته، فرتَّب «غرين» من خلال مجلس الميثودية للبعثات دعوةً «لتانيموتو» لزيارة الولايات المتحدة ليقوم بحملة جمع أموال لصالح بناء الكنيسة، وفي أكتوبر سنة ١٩٤٨م سافر «تانيموتو» لسان فرانسيسكو بواسطة الباخرة الأمريكية «يو. أس. أس. غوردن»، تاركًا أهله وراءه.

وأثناء رحلته البحرية نمت في ذهنه فكرة طموحة، سيجعل رسالته في الحياة نشر السلام، لقد أضحى مقتنعًا بأن الذاكرة الجمعية «للهيباكوشا» ستكون قوةً فاعلةً من أجل تحقيق السلام في العالم، وأنه ينبغي تأسيس مركزٍ في هيروشيما يكون محور دراسات وأبحاث دولية لضمان عدم استعمال الأسلحة الذرية مرةً أخرى، وبعد نظر وتأمُّل قام بصياغة مذكرة أولية بهذا المشروع، وذلك أثناء وجوده في الولايات المتحدة، ومن غير أن يفكِّر في أَخْذ رأي عمدة مدينة هيروشيما «شينزو هاماي»، أو أي مسؤول هناك.

وفي أمريكا حلَّ ضيفًا على القس «مارفن غرين»، حيث استقر في قَبْوِ منزله في كنيسة «ويهاوكن»، طلب القس «غرين» مساعدة بعض المتطوعين، وأضحى مشرفًا على عملية جمع التبرعات ومُسَوِّقًا له، ومن خلال مطالعة دليل الكنائس قام بإعداد قائمة بالكنائس التي يبلغ أعضاؤها مائتي شخص فأكثر، أو تلك

التي تبلغ ميزانياتها أكثر من عشرين ألف دولار، وقام بإرسال منشورات مكتوبة باليد لتلك الكنائس يَحُثُّهُم فيها على دعوة «كيوشي تانيموتو» لإلقاء بعض المحاضرات لديهم.

وفعلًا بدأت الترتيبات لعدد من الرحلات والزيارات، ولم يَمْضِ وقت طويل حتى أصبح «تانيموتو» ضيفًا على عدد من الكنائس، مقدِّمًا محاضرة قد جهَّزها لهذه المناسبة بعنوان «الإيمان الذي نما من بين الرماد»، وبعد كل محاضرة كانت تُجْمَع التبرُّعات من الحضور.

وأثناء تلك الرحلات كان يعرض «تانيموتو» مشروع مركز السلام على مَن يلقاهم، على أمل أن يتبنَّى الموضوع شخصية مؤثرة، وفي زيارةٍ له إلى «نيويورك» اصطحبه أحد أصدقائه اليابانيين لمقابلة «بيرل بَكْ»، في مكتب شركة زوجها للنشر، قرأتْ المذكرة التي كان قد كتبها، وشرح لها فكرة المشروع، فأَبْدَتْ له إعجابها بالفكرة، لكنها شعرت بعجزها عن مساعدته لانشغالها وكِبَرِ سِنِّهَا، لكنها كانت تعرف الشخص المناسب لتبنِّي الفكرة؛ «نورمان كوزنز»، رئيس تحرير مجلة «ساتردي ريفيو» للدراسات الأدبية، اقترحت عليه مراسلته بما كتبه حول الموضوع، وأنها ستكلِّمه شخصيًّا أيضًا.

وبعد مدة ليست بالطويلة تلقَّى اتصالًا هاتفيًّا أثناء تجوُّله في منطقة ريفية بالقرب من أتلانتا لإلقاء بعض المحاضرات، كان المتصل هو «كوزنز» الذي أخبره بأنه تأثَّر كثيرًا بالفكرة، وأنه يفكِّر في جَعْل مذكرته مقالة افتتاحية في المجلة، وفي الخامس من

مارس سنة ١٩٤٩م ظهرت المذكرة فعلًا على صفحات المجلة تحت عنوان «فكرة هيروشيما»، وهي فكرة بحسب ما عرضته الكلمة التمهيدية «لكوزنز»: «إن فريق التحرير بالمجلة يؤيدون بحماسة هذا المقترح، ويشاركون صاحبه فيه»:

«لقد استفاق أهل هيروشيما بعد حالة الذهول التي اجتاحتهم في أعقاب إسقاط القنبلة الذرية على مدينتهم في السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م، ليدركوا أنهم كانوا جزءًا من تجربة معملية أثبتت نتائجها الأطروحة التي كان يبشر بها صانعو السلام منذ مدة طويلة.

وقد قبلوا جميعًا تلك المسؤولية التي أُلْقِيَتْ على عواتقهم بالمساعدة في منع تكرُّر مثل هذه الكارثة مستقبلًا في أي رقعةٍ من العالم...

إن أهل هيروشيما...

يرغبون بصدق بأن تُسْهِم تجربتهم في تثبيت دعائم سلام عالمي دائم.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية فإننا نقترح إقامة مركز سلام عالمي، بعيد عن التمييز الطائفي، وسيكون بمثابة مختبر للأبحاث والخطط لنشر ثقافة السلام في كل مكان...».

وفي الواقع، فقد كان أهل هيروشيما جميعًا في غفلةٍ عن هذا المقترح الذي قدَّمه «كيوشي تانيموتو» (والذي تبنَّاه الآن

«نورمان كوزنز»)، لكنهم كانوا واعين جدًّا بالدور المحوري الذي ستلعبه مدينتهم في الذاكرة العالمية.

في السادس من أغسطس، والموافق للذكرى السنوية الرابعة للانفجار، أصدر البرلمان الياباني قانونًا يقضي بجعل مدينة هيروشيما مدينة سلام، وتم الكشف عن التصميم النهائي للحديقة التذكارية بالسلام، والتي صمَّمها المهندس المعماري الياباني العظيم «كينزو تانغي»، سيوضع في قلب الحديقة نَصْبٌ تذكاري مَهِيبٌ لأولئك الذين قضوا في الحادثة على شكل «بانيوا» ـ قبر مُجَوَّف ـ والذي يفترض أنه منزل للأموات، كما تم الكشف عنه في مقابر تاريخية قديمة جدًّا في اليابان.

وقد تجمَّع حشدٌ هائل من أجل مشاهدة الحفل التذكاري السنوي للسلام، كان «تانيموتو» بعيدًا عن كل هذا، وهو يتجوَّل بين مختلف الكنائس الأمريكية.

وبعد أيام قليلة من الذكرى قام «نورمان كوزنز» بزيارة هيروشيما، كان «كوزنز» قد استبعد من رأسه فكرة «كيوشي تانيموتو» لصالح فكرة أخرى خطرت له، وهي التقدُّم بعريضة دولية لدعم الاتحاد العالمي الفيدرالي، وهي مجموعة تدعو لحكومةٍ عالميةٍ، إلى الرئيس ترومان، والذي أمر بإلقاء القنبلة، وفي غضون فترة زمنية قصيرة حَظِيَت العريضة بـ ١٠٧٨٥٤ توقيعًا من أهل هيروشيما.

وبعد أن زار «كوزنز» أحد دور الأيتام، عاد إلى الولايات،

محمَّلًا بفكرة أخرى أيضًا، «التبني الأخلاقي» لأيتام هيروشيما، حيث يقوم عدد من الأمريكان بكفالة أولئك الأطفال ماليًّا.

واستمر جمع التوقيعات لعريضة الاتحاد الفيدرالي العالمي في كل مكان، حتى في الولايات المتحدة، ولم يكن «تانيموتو» يعرف إلا القليل جدًّا عن هذه المنظمة في ذلك الوقت، لكن فرح جدًّا حين عرض عليه «كوزنز» أن يكون من ضمن الوفد الذي سيقدِّم العريضة إلى الرئيس ترومان، لكن الرئيس هاري ترومان ـ للأسف ـ رفض استقبال هذا الوفد، بل رفض استلام العريضة أصلًا.

في ٢٣ سبتمبر ١٩٤٩م أعلن راديو موسكو أن الاتحاد السوفييتي قد طوَّر قنبلة ذرية.

وبنهاية العام كان «كيوشي تانيموتو» قد زار ٢٥٦ مدينة، في ٣١ ولاية، واستطاع أن يجمع نحو عشرة آلاف دولار من أجل كنيسته، وقبل أن يغادر عائدًا إلى بلده أخبره «مارفن غرين» بأنه كان على وشك التخلِّي عن سيارة الكاديلاك الخضراء القديمة الخاصة به، وأن صديقه «تاني» اقترح عليه أن يتبرَّع بها للكنيسة في هيروشيما، وهو ما فعله، ومن خلال أحد معارفه اليابانيين ممن يعمل في الشحن استطاع «تانيموتو» ترتيب أمر شحن السيارة إلى اليابان مجانًا.

وحين وصل «تانيموتو» إلى وطنه في بداية سنة ١٩٥٠م تواصل مع عُمدة المدينة «هاماي»، وحاكم المحافظة «تسوني كوسونوس»، طالبًا منهم دعمًا رسميًّا لفكرة تأسيس مركز السلام، لكنهم رفضوا الأمر.

لقد منع الجنرال «دوغلاس ماكارثر»، القائد الأعلى لقوات الاحتلال، من خلال قانون الصحافة وغيرها نَشْرَ أي تقارير عن عواقب وتداعيات إلقاء القنبلة على هيروشيما وناغازاكي، بما في ذلك رغبات السلام التي بدأت تنتشر في أعقاب الكارثة، وقد اعتقد المسؤولون الحكوميون بأن مقترح «تانيموتو» بتأسيس مركز للسلام سيضع الحكومة المحلية في ورطة.

لكن ذلك لم يُثْنِ «تانيموتو»، والذي دعا عددًا من الوجهاء وأقنعهم بفكرته، وبعد أن أَسَّسَ «نورمان كوزنز» مؤسسة هيروشيما للسلام في نيويورك لتلقِّي الدعم الأمريكي، قام هو بمساعدة مَن حوله بتأسيس المركز هنا في هيروشيما، ولتكون كنيسته قاعدة لها.

في البداية لم يكن هناك الكثير لعمله، ولكن حين تم بناء المتحف التذكاري للسلام والقاعة التذكارية للسلام في الحديقة بعد عام، ومع ما كانت تَحْظَى به المدينة من مؤتمرات دولية سنوية تناقش ملف السلام، والتي كانت تنتعش أحيانًا وتضطرب أخرى، بدأت البذور المبكرة التي زرعها «كيوشي تانيموتو» تؤتي أُكُلَها، ونتيجة لشجاعته في تجاهُل القيود التي فرضها «ماكارثر» فقد حَظِيَتْ جهوده بتقدير واحترام عدد من أهل هيروشيما.

وصلت سيارة الكاديلاك، فقرَّر هذا القس المبتهج أن يأخذ شِرِّيبَةِ البنزين هذه في لَفَّةٍ، وبينما كان يصعد بسيارته مرتفعات «هيجياما» الواقعة شرق المدينة أوقفه أحد رجالات الشرطة وألقى القبض عليه؛ إذ كان يقود السيارة دون رخصة، وقع هذا في

الوقت الذي بدأ فيه «تانيموتو» العمل كقس لأكاديمية الشرطة، وحين شاهَده عدد من كبار الضباط في المخفر وهو يُقتَاد للحبس ضحكوا كثيرًا وتركوه يذهب.

وفي منتصف صيف عام ١٩٥٠م دعا «كوزنز» «تانيموتو» للعودة إلى الولايات المتحدة في جولة ثانية، وذلك من أجل جمع الأموال للاتحاد العالمي الفيدرالي، ومن أجل مشروع التبنِّي الأخلاقي، بالإضافة لمركز السلام بهيروشيما، وفي وقت متأخِّر من شهر أغسطس ذهب «تانيموتو» للولايات المتحدة مرةً أخرى، وكما كان الحال من قبل فقد رتَّب «مارفن غرين» شأن زيارته، وفي هذه المرة استطاع زيارة ٢٠١ مدينة، في ٢٤ ولاية، على مدى ثمانية أشهر.

كانت أجمل تجربة مرَّت به في هذه الرحلة (وربما في حياته كلها) ما وقع عند زيارته لواشنطن، وقد كان المسؤول عن ترتيبات شأن هذه الزيارة «كوزنز»، حيث قام «تانيموتو» في الخامس من فبراير لسنة ١٩٥١م، وبعد تناوُل الغداء مع أعضاء لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب، بتلاوة دعاء استفتاح جلسة ما بعد الظهيرة بمجلس الشيوخ:

«أبانا الذي في السماء، نشكرك على نِعَمِك العظيمة، فأنت مَن وَهَبْتَ أمريكا القدرة على بناء أعظم حضارة في تاريخ البشرية في عقدٍ من الزمان... نشكرك يا الله، أن جعلت اليابان أحد أولئك المحظوظين الذين استقبلوا هذا السخاء الأمريكي، نشكرك أن وهبتَ شعبنا الحرية، ومكَّنتهم من

النهوض من بين رماد الخراب، لِيُولَدُوا من جديد. . .
بارك الله جميع أعضاء مجلس الشيوخ هذا».

نهض نائب ولاية فرجينيا السينتور «أي. ويليز روبيرتسون»، وأعلن أن ما سمعه شكَّل بالنسبة إليه «صدمةً، وفي الوقت نفسه مصدر إلهام، ها هو رجلٌ ممن حاولنا قَتْلَهُ بقنبلة ذرية، يأتي إلى مجلس الشيوخ، ويقدِّم شكره إلى ذات الرب الذي نعبده، ويشكره على الإرث الروحي العظيم لأمريكا، ثم يسأله أن يبارك كل عضو في مجلس الشيوخ».

في اليوم الذي سبق يوم إلقاء القنبلة على هيروشيما كانت المدينة تعيش حالة خوف من الغارات الجوية الْمُحْرِقَة، ولأجل ذلك أُخْرِجَت مئات الطالبات إلى الشوارع للمساعدة في تهديم البيوت، وإخلاء مسارات مكافحة النيران، كانوا في الخارج حين انفجرت القنبلة، فلم يَنْجُ منهن إلا القليل، ومن نجا منهن عانت معاناةً مُرَّةً من الحروق الفظيعة، ثم مِن ندوب الجَدَرَة البشعة على وجوههن وأيديهن.

وبعد شهر من عودة «تانيموتو» من رحلته الثانية للولايات المتحدة ابتدأ مشروعًا من مشاريع مركز السلام الخاص به، حيث افتتح صفًّا لدراسة الكتاب المقدَّس، مخصَّصًا لعدد من تلكم الفتيات، وقد سمَّاه جمعية فتيات الجَدَرَة، اشترى ثلاث آلات خياطة، وجعل الفتيات يعملن في الخياطة في ورشةٍ أعدَّها في الطابق الثاني لأحد مشاريعه الأخرى، وهي دارٌ لأرامل الحرب كان قد أَسَّسَها أيضًا.

وطلب من حكومة المدينة تمويلًا من أجل إجراء عمليات تجميل للفتيات اللاتي يعانين من الجَدَرَة، لكن رُفِضَ طلبه، فتقدَّم بالطلب للجنة ضحايا القنبلة الذرية «Atomic Bomb Casualty Commission»، والتي أنشئت لدراسة آثار إشعاعات القنبلة على البشر، تلك الآثار التي فشل مَنْ أَمَرَ بإلقاء القنبلة فشلًا ذريعًا في التنبؤ بها، لكن اللجنة اعتذرت بأن عملها يقوم على الرصد والبحث، وليس على تقديم العلاج، (لقد كان واقع هذه اللجنة يثير غيظَ وحنقَ «الهيباكوشا»؛ إذ كانوا يَرَوْنَ أن الأمريكان يتعاملون معهم باعتبارهم مجرد فئران تجارب).

في تلك المدة زارت امرأة من طوكيو تُدْعَى «شيزو ماسوغي» هيروشيما، وكانت هذه المرأة قد عاشت حياة غير تقليدية بالنسبة لمرأة يابانية في ذلك الوقت، كانت تعمل في الصحافة كصحفية، تزوَّجت وطُلِّقَت وهي لا تزال صغيرة، ثم أصبحت لاحقًا عشيقة لاثنين من مشاهير الروائيين، على التوالي طبعًا، ثم تزوَّجت بعد ذلك مرةً أخرى.

كتبت عددًا من القصص القصيرة تتكلَّم فيها عن مرارة الحب والوحدة التي تعاني منها النساء، وكانت الآن تكتب في عمودها في صحيفة طوكيو الشهيرة «يوميوري شيمبون» عن المتيَّمات.

ومع أنها تحوَّلت للكاثوليكية قبل وفاتها، إلا أنها طلبت أن تُدْفَن في معبد «توكيجي»، والذي أُسِّسَ في ١٢٨٥م من قِبَل راهبٍ كان يشعر بالأسف تجاه النساء اللاتي يعانين قسوة

أزواجهن، وقضى بأن أيًّا منهن إن لجأت لمعبده وأصبحت راهبةً فبإمكانها أن تَعُدَّ نفسها مطلَّقةً من ذلك الزوج القاسي.

في رحلتها إلى هيروشيما سألت «كيوشي تانيموتو»: ما هي أكثر الأشياء أهميةً مما يمكن بَذْلُه من أجل نساء «الهيباكوشا»؟ فأشار عليها بموضوع الجراحات التجميلية لبنات الجَدَرَة، وابتدأت حملة لجمع الأموال من خلال صحيفة «يوميوري»، ولم يَمْضِ وقت طويل حتى حَظِيَتْ ست فتيات بفرصة إجراء علمية التجميل في مستشفى طوكيو، وفي وقت لاحق أُخذت اثنتا عشرة فتاة أخرى إلى «أوساكا»، وقد سَمَّت الصحافة في ذلك الوقت الفتيات باسم أزعجهن وكدَّر خواطرهن، حيث تم تداوُل لقب «غينباكو أوتومي»، والتي تُرْجِمَت حرفيًّا إلى «عذروات القنبلة الذرية».

في أكتوبر ١٩٥٢م أَجْرَت بريطانيا العظمى اختبارها الأول للقنبلة الذرية، كما أجرت الولايات المتحدة تجربتها الأولى لقنبلة هيدروجينية.

وفي أغسطس ١٩٥٣م اختبر الاتحاد السوفييتي أيضًا قنبلة هيدروجينية.

لم تنجح العمليات التي أُجْرِيَت للفتيات في طوكيو وأوساكا على النحو المطلوب، ففكر «مارفن غرين» صديق «كيوشي تانيموتو»، وذلك في أثناء زيارته لهيروشيما عن مدى إمكانية أَخْذ بعضهن لأمريكا، حيث كانت تقنيات جراحات التجميل أكثر تطوُّرًا.

وعند وصول «نورمان كوزنز» مع زوجته إلى هيروشيما في سبتمبر من سنة ١٩٥٣م، لتقديم بعض الأموال لمشروع التبنِّي الأخلاقي، أَطْلَعَهُما «تانيموتو» على مقترح «مارفن غرين»، وعرَّفَهما على عددٍ قليلٍ من أولئك الفتيات، فأعجبتهما الفكرة.

وبعد رحيلهما انعقد اجتماع مُحْرِج في مكتب عمدة المدينة بخصوص أموال التبنِّي الأخلاقي، ومدى مناسبة توزيعها على الأيتام، فقد كان المبلغ الذي جاء به «كوزنز» ألفًا وخمسمائة دولار، لكن تبيَّن أن مائتي دولار من ذلك المبلغ كانت مخصَّصة لستة أطفال معيَّنِين، وخمسة وستين دولارًا للأبكار، بالإضافة إلى مبلغ مائة وتسعة عشر دولارًا كان «تانيموتو» قد صرفها لشراء عدد من الحقائب من متجر «فوكويا» لتُقَدَّم كهدايا لستة من مُدَرَاء دُور الأيتام بالنيابة عن «نورمان كوزنز»، وكان المبلغ المتبقي ١١٦٥ دولارًا، أو بعبارة أخرى دولاران وسبعون سنتًا لكل يتيم من مجموع أربعمائة وعشرة أيتام، كان المسؤولون بالمدينة، والذين كانوا يعتقدون أنهم المسؤولون عن المشروع، غاضبين جدًّا بخصوص المبالغ التي اقتطعها «تانيموتو».

وفي تقرير عن هذا الاجتماع كتبت صحيفة هيروشيما «تشوغوكا شيمبون»: «القس يرد! ما فعلتُه كان نابعًا من إرشادات «كوزنز»، ولم تكن خياراتي الشخصية».

لقد أضحى «تانيموتو» مؤخرًا معتادًا على النقد، وغياباته الطويلة عن الكنيسة من أجل رحلاته لأمريكا أكسبته لقب «قس القنبلة الذرية».

كان الأطباء في هيروشيما راغبين في معرفة سبب عدم إجراء العذراوات لعملياتهن في هيروشيما، ولماذا يقتصر الأمر على الفتيات فقط؟ لماذا لا تُجْرَى العمليات للبنين أيضًا؟ بعض الناس لم يكن مستريحًا لتكرُّر ظهور اسم القس «تانيموتو» في الصحف مؤخرًا، ولم تساعد الكاديلاك الكبيرة على تحسين الصورة، بل خلقت انطباعات غير جيدة حول «تانيموتو»، ومع أنها أضحت نافعةً ومفيدةً، لكنه اضطرَّ إلى التخلُّص منها.

في ١ مارس ١٩٥٤م تعرَّضت سفينة «التنين المحظوظ رقم ٥» لغبار إشعاعي على إثر اختبار الأمريكان لقنبلة في «بيكيني أتول».

حين عاد «نورمان كوزنز» إلى نيويورك بدأ العمل على مشروع العذراوات، وفي أواخر عام ١٩٥٤م وصل كلٌّ من الدكتور «آرثر بارسكي» رئيس قسم جراحة التجميل في مستشفى جبل سيناء ومستشفى بيت إسرائيل، والدكتور «ويليام هيتزيغ»، طبيب الباطنية في مستشفى جبل سيناء، والطبيب الشخصي «لكوزنز»، إلى هيروشيما؛ للنظر في شأن العذراوات، وانتخاب مَن كانت فُرَصُهُنَّ في نجاح العملية أعلى.

ومن بين الكثير من الفتيات المشوَّهات في المدينة لم يتقدم للفحص إلا ثلاثة وأربعون فتاة فقط، واختار الأطباء خمسة وعشرين من بينهن.

وفي الخامس من مايو سنة ١٩٥٥م سافر «كيوشي تانيموتو» برفقة الفتيات من مطار «إيواكوني» في طائرة عسكرية تابعة لسلاح

الجو الأمريكي، وبينما كانت الفتيات ينزلن في ضيافة بعض العوائل في نيويورك انطلق هو إلى الساحل الغربي ليبدأ جولة جديدة لجمع الأموال.

ومن بين مواعيده الكثيرة التي حَفَلَ بها برنامجه كان على موعد مساء يوم الأربعاء الحادي عشر من مايو في استوديوهات قناة «أن بي سي» في لوس أنجلس؛ لإجراء لقاء تلفزيوني لإحدى القنوات المحلية، كان قد أقنعه «كوزنز» بأنه سيكون مفيدًا للمشروع[١].

في ذلك المساء، وبشيء من الارتباك، أُجْلِسَ أمام مجموعة من الأضواء الساطعة في استديو قد جُهِّزَ على هيئة غرفة معيشة، دخل عليه رجل قد التقاه للتَّوِّ، اسمه «رالف إدواردز»، وجلس بجانبه، ثم التفت إلى الكاميرا، وبدأ يخاطب نحوًا من أربعين مليون مشاهد، كانوا يمثِّلون جمهور البرنامج الذي يُبَثُّ ليلة الأربعاء:

«مساء الخير، سيداتي وسادتي، مرحبًا بكم في برنامجنا «هذه حياتك».

إن الصوت الذي تسمعونه في الخلفية هو صوت دقات الساعة، وهي تَعُدُّ الثواني مقتربةً من الساعة الثامنة والربع من صباح يوم السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م.

(١) يمكن مشاهدة هذه الحلقة من البرنامج على اليوتيوب، تحت عنوان: (Kiyoshi Tanimoto - This is your life -)، حيث إنها تتضمَّن تفاصيل غائبة عما ستقرؤه هنا؛ إذ ما عرض هنا مختصر جدًّا، وغير دقيق أحيانًا، ولعل الأمر عائد إلى أن المكتوب هنا بحسب ما سمحت به ذاكرة صاحب القصة. (المترجم).

ويجلس معي هنا رجل تغيَّرت حياته مع الدَّقَّة الأخيرة لتلك الساعة عند وصولها للثامنة والربع.

مساء الخير سيدي.

هل لك أن تخبرنا باسمك؟»

«كيوشي تانيموتو».

«وما هي مهنتك؟»

«إنني قس».

«وأين تعيش؟»

«هيروشيما، اليابان».

«وأين كنت في السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م، في الثامنة والربع صباحًا؟

ولم يكن لدى «تانيموتو» فرصة لتقديم جواب.

فقد تعالى صوت دَقَّات الساعة أكثر وأكثر، ثم ضجَّ المكان بصوت قرع الطبول.

قال «إدواردز»: «هذه هيروشيما»، بينما كانت تتشكَّل على الشاشة صورة سحابة فِطْر هائلة، «وفي تلك اللحظة الحاسمة في السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م برز مفهوم جديد للموت والحياة، وحَظِيَ في تلك اللحظة بتعميده.

إن موضوعنا الرئيس لهذه الليلة هو أنت أيها القس «تانيموتو»! كجزءٍ غافلٍ من هذا المفهوم...

سنقوم بالتقاط مختلف الخيوط المتعلقة بحياتك بعد لحظات

ـ سيدي «تانيموتو» ـ ولكن بعد أن نسمع كلمة من مذيعنا «بوب وارن»، والتي سيوجِّه من خلالها رسالةً خاصةً جدًّا للفتيات الموجودات معنا بين الجمهور.

صمتت الساعة التي كانت تُعْلِن بدقَّاتها اقتراب لحظة الدمار، فما عادت الآن تُسمع، لكنها استمرت تحسب الدقائق والثواني لستين ثانية أخرى سعى فيها «بوب وارن» لإزالة طلاء أظافر من ماركة «هازل بيشوب» من أظافر فتاة شقراء لكن دون جدوى، مع أنه لجأ لاستعمال ليفة معدنية استطاعت إزالة الصدأ من مقلاة[(١)].

ولم يكن «كيوشي تانيموتو» مستعدًّا أبدًا لِمَا سيحدث بعد ذلك، جلس هناك في كرسيه يتصبَّب عرقًا، وقد عقد لسانه، وشعر أنه عاجز عن الحركة أو التفكير، إذ كان يشاهد الآن ومن على شاشة ذلك البرنامج الأمريكي الشهير طرفًا من سيرة حياته.

ثم فوجئ بدخول الآنسة «بيرثا سباركي» من خلف ستار، لقد كانت عجوزًا كبيرة الآن، وعضوًا في الإرسالية «الميثيودية»، وهي التي علَّمته في شبابه عن المسيح.

ثم دخل صديقه «مارفن غرين»، والذي أطلق نكتةً عن طبيعة الحياة في مدرسة اللاهوت.

ثم أشار «إدواردز» إلى الجمهور حيث كان يجلس بعض

(١) هي فقرة دعائية لطلاء أظافر من شركة «هازل بيشوب»، وهي الشركة الراعية لهذا البرنامج التلفزيوني. (المترجم).

رعايا «تانيموتو» الذين حَظِيَ بهم حين تم تنصيبه كقس أول مرة، وذلك حين خدم لفترة مؤقتة في الكنيسة اليابانية ـ الأمريكية المستقلة بهوليود.

وبعدها جاءت الصدمة.

فقد دخل عليهم رجل أمريكي طويل وممتلئ قليلًا، قدَّمه «إدواردز» للجمهور قائلًا: إنه الكابتن «روبرت لويس»، مساعد الطيار في رحلة «إينولا غاي»، والتي نفَّذَت مهمة إلقاء القنبلة على هيروشيما.

وبصوت مضطرب تكلَّم «لويس» عن الرحلة.

جلس «تانيموتو» أمامه بوجهٍ مُتَخَشِّبٍ مُتَصَلِّبٍ، خالٍ من أية تعابير.

وفي لحظة معينة توقَّف لويس فجأة عن الكلام، وأغمض عينيه، وفَرَك جبينه، بينما كان يراقبه أربعون مليون إنسان في طول البلاد متوهِّمين أنه كان يبكي.

(لكنه في الحقيقة لم يكن يبكي، فقد كان سكرانًا، قال «مارفن غرين» بعد سنوات لصحفي شاب يُدْعَى «رودني باركر»، والذي كان يكتب كتابًا عن عذراوات هيروشيما: لقد أصاب «لويس» القائمين على البرنامج بالذُّعْر حين لم يأتِ للاستديو لعمل بروفة للحلقة بوجود الجميع باستثناء «تانيموتو».

بَدَا أنه كان يتوقَّع أن يُعْطَى شيكًا ضخمًا ليظهر في الحلقة، وحين علم أن الأمر لم يكن كذلك جاء للحلقة بعد أن جَرَّ نفسه

من إحدى الحانات، قال «غرين» أنه وجد مساعد الطيار في الوقت المناسب عند وصوله للاستديو ليعطيه بعض القهوة قبل ظهوره على الهواء).

«إدواردز»: «هل كتبت شيئًا في سجلّاتك عن تلك الرحلة في ذلك الوقت؟».

«لويس»: «نعم كتبت الكلمات التالية: يا إلهي، ما الذي فعلناه؟».

وبعد ذلك، ظهرت «تشيزا تانيموتو» على خشبة المسرح بخطوات قصيرة، وهي ترتدي لباسًا لم تلبسه في بيتها قط ـ ثوب «كيمونو» ـ.

كانت قد أُعْطِيَت فرصة يومين لترتيب أمر سفرها بأطفالها الأربعة إلى لوس أنجلس. وعند وصولها تم حبسهم في غرفة الفندق، الأم بعيدة عن زوجها، والأطفال عن أبيهم. ولأول مرة في أثناء ذلك البرنامج تغيَّرت ملامح «تانيموتو» لتظهر على مُحَيَّاه مشاعر الذهول والمفاجأة، يبدو أنه قد أضحى غريبًا على مشاعر المتعة.

وبعد ذلك تم عَرْض صورة ظل اثنتين من العذراوات من وراء ستار شفاف، «تويوكو مينوا» و«تاداكو إيموري»، وقام «إدواردز» بدعوة الجهور والمشاهدين للتبرُّع من أجل تكاليف العمليات الجراحية الخاصة بالأبكار.

وأخيرًا، ظهر أطفال «تانيموتو» الأربعة وهم يركضون تجاه

حضن أبيهم؛ ابنته الكبرى «كوكو»، والتي كانت رضيعة يوم الانفجار، كانت الآن فتاة في العاشرة من عمرها، وابنه «كين» في السابعة، وابنته «جون» في الرابعة، وابنه الأصغر «شِن» في الثانية.

برقية واردة:

سري

من: طوكيو

إلى: وزير الخارجية

١٢ مايو ١٩٥٥

تشاطر السفارة الأمريكية قلق واشنطن ومخاوفها من مشروع فتيات هيروشيما، بما قد ينتجه من دعاية غير مرغوبة...

إن «تانيموتو» يُنْظَر إليه هنا كشخص راغب في الشهرة، وسيستغل حتمًا رحلته من أجل جمع التمويل اللازم لإقامة المركز التذكاري للسلام في هيروشيما، والذي يُعَدُّ مشروعه الخاص، لا نعتقد بأنه عضو في الجيش الأحمر، أو متعاطف معهم، لكن يمكن بسهولة أن يصبح مصدر دعاية مزعجة...

بواسطة حقيبة دبلوماسية:

سري

الصورة المرتسمة للقس «تانيموتو» هي أنه شخص مضاد للشيوعية، وغالبًا هو صادق في مساعيه لمساعدة الفتيات...

ولكن بسبب رغبته في تعزيز مكانته الخاصة وأهميته فقد يُسْهِم بجهل، أو براءة، أو بقصد، انتهاجَ خط يساري...

رالف جاي. بليك

القنصل الأمريكي العام، كوبي

كان «روبرت لويس» قد استقال من القوات الجوية، ويعمل حاليًا في شركة «هنري هايد» للحلويات كمدير لشؤون الموظفين في نيويورك، وبعد عودته للساحل الشرقي في أعقاب مشاركته في البرنامج التلفزيوني تم استدعاؤه من قِبَل البنتاغون، وإعطاؤه علقةً ساخنة من وزارة الدفاع.

ظلَّت أسرة «تانيموتو» في الولايات المتحدة لبقية مدة جولة محاضرات «كيوشي»، والتي لفَّ فيها على ١٩٥ مدينة، في ٢٦ ولاية، وقد جَلَبَ البرنامج التلفزيوني دعمًا بمقدار خمسين ألف دولار، بالإضافة إلى أكثر من عشرة آلاف أخرى استطاع جمعها في جولته.

نزلت «تشيسا تانيموتو» وأطفالها في منزل الضيافة في مزرعة «بيرل بَكْ» في مقاطعة بَكْ بولاية بنسلفانيا في أثناء صيفية رائعة.

وفي السادس من أغسطس، يوم الذكرى السنوية العاشرة لقصف هيروشيما، وضع «تانيموتو» إكليلًا من الزهور على قبر الجندي المجهول في مقبرة أرلينغتون الوطنية، وفي ذات اليوم، وفي منطقة بعيدة عنه، هناك في هيروشيما نفسها، بدأت تتصاعد حركة سلام يابانية حقيقية، تركب موجة الغضب بسبب حادث التنين المحظوظ.

وقد حضر خمسة آلاف مفوَّض للمؤتمر العالمي الأول لمكافحة القنابل الذرية والهيدروجينية.

وفي ديسمبر من تلك السنة عاد «تانيموتو» إلى اليابان،

وحين عاد وجد أنه قد أُبْعِدَ عن موقعه في التيار العام، وأضحى على هامش المشهد.

لقد أظهر قوةً وطاقةً كبيرةً في جولة محاضراته في أمريكا، وهي قوةٌ تُعَدُّ غريبة من «هيباكوشا»، فقد كان يتحدث لليلة في أعقاب ليلةٍ في أعقاب ليلةٍ بجسد مُنْهَك مُتْعَب، كان في الواقع، ولبضع سنوات، يتحرَّك على وقع خطوات «نورمان كوزنز» بكل عنفوانها وقوتها.

كان «كوزنز» قد أعطاه تجارب مُسْكِرة غذت نوازع غروره، لكنه الآن استطاع انتزاع مبادرات هذا القس من بين يديه، لقد أطلق «تانيموتو» مبادرة مشروع العذراوات، لكنه اكتشف أنه بالرغم من كل الأموال التي حصَّلها من برنامج «هذه حياتك»، والتي ستغطي نفقات العذراوات، فإن جميع تلك الأموال سيتم إدارتها بالكلية من خلال نيويورك، لقد استطاع «كوزنز» أن يتجاوز أمر مركز السلام في هيروشيما، وأن يتعامل بشكل مباشر مع حكومة المدينة، وقد توسَّل «تانيموتو» ليكون مشروع «التبني الأخلاقي» تحت جناح مركزه، ولكن تبيَّن أن دوره سيكون قاصرًا كمشترٍ للحقائب فقط.

لكن الضربة الموجِعة جاءت مع وصول رماد إحدى عذراوات هيروشيما ـ «توموكو ناكابايashi» ـ والتي ماتت على طاولة العمليات تحت التخدير في مستشفى جبل سيناء، فقد سُلِّمَ رماد جثتها إلى والديها، وقام صديقه القديم الأب «كلينزوغر» بالترتيبات اللازمة لمراسم جنازتها، لكن أحدًا لم يَدْعُهُ لحضور تلك المراسم.

وحين عادت بقية العذراوات للوطن تفاجأن بأنهن لم يكنَّ مثار فضولٍ لكثير من الناس فحسب، بل صِرْنَ موضعًا للحسد والحقد والكراهية، فقاومن رغبة «تانيموتو» الرامية إلى ضمِّهِنَّ لنادٍ أراد تأسيسه تحت اسم «نادي صهيون»، وبدأن يبتعدن عنه.

ولم يَبْقَ له موضع في حركة السلام اليابانية؛ إذ كان خارج البلاد في لحظات حاسمةٍ من تشكُّلها وتطوُّرها، وإلى جانب ذلك فإن مظهره المسيحي جعله مشبوهًا في أعين الجماعات الراديكالية التي كانت في طليعة حركات مكافحة القنابل الذرية.

وبينما كان بعيدًا عن البلد في رحلته الأخيرة تأسَّست منظمة وطنية تسمى «نيهون غينسوكيو» ـ مجلس اليابان ضد القنابل الذرية والهيدروجينية ـ، بالإضافة إلى نشاط محموم من أجل دفع البرلمان الياباني لإصدار نظام رعاية صحية «للهيباكوشا».

وككثير من «الهيباكوشا»، فقد كان مُشْمَئِزًّا من حالة الاستغلال السياسي لهذه الأعمال، ولذا فقد نأى بنفسه عن التجمُّعات الكبيرة التي كانت تنعقد في حديقة السلام في المناسبات اللاحقة.

في ١٥ مايو ١٩٥٧م أجرت بريطانيا العظمى أول اختبار لقنبلة هيدروجينية على جزيرة كريسماس في المحيط الهندي.

تعرَّضت «كوكو»، التي كانت رضيعةً يوم الانفجار، لفحوصات طبية سنوية في مقر لجنة ضحايا القنبلة الذرية (ABCC)، وبشكل عام كانت حالتها الصحية جيدة، على الرغم

من أنها تعرَّضت ـ ككثير من «الهيباكوشا» ممن كانوا رُضَّعًا في وقت انفجار القنبلة ـ إلى تقزُّم بِنْيَتِهَا.

كانت الآن في سن المراهقة في المدرسة الثانوية، وقد ذهبت مرة أخرى، وكالعادة، نزعت عنها ملابسها في حجرة لتلبس رداء المستشفى الأبيض، وبعد أن انتهت من عدد حاشد من الفحوصات أُدخلت على خلاف العادة حجرةً مضاءةً بنور ساطع، كانت هذه الحجرة تحتوي على منصة منخفضة، وجدار مخطط بشبكة قياسات.

وقفت ملاصقةً للجدار، والأضواء الساطعة مسلَّطة عليها، لقد كان النور ساطعًا لدرجة أنه لم يكن في مقدورها رؤية ما وراءها، لكنها كانت تسمع أصوات يابانيين وأمريكيين معها في الحجرة، أحد اليابانيين طلب منها أن تخلع الرداء، فقامت بتنفيذ الأمر، ووقفت هناك لزمن بَدَا لها وكأنه بلا نهاية، والدموع تنهمر على وجهها.

كانت «كوكو» خائفة جدًّا من تجربتها هذه، ومجروحة للحد الذي لم تُخْبِر فيه أحدًا بما جرى لها لخمسة وعشرين عامًا.

في أحد الأيام، في نهاية أغسطس سنة ١٩٥٩م، تُرِكَتْ طفلة رضيعة في سَلَّةٍ أمام مذبح كنيسة «كيوشي تانيموتو»، كانت هناك رسالة معلَّقة بحفَّاظ الطفلة، مكتوب فيها اسمها ـ «كاناي» ـ وتاريخ ولادتها ـ ٢٨ أبريل ـ بالإضافة إلى العبارة التالية: «أخشى أنني غير قادرة على الاحتفاظ بها في الوقت الراهن، أسأل الله أن يبارك فيها، هل يمكنكم رعايتها بالنيابة عني؟».

في الصيفية التي قضتها العائلة في مزرعة «بيرل بَكْ»، كان أطفال «تانيموتو» يلعبون مع عشرات الأيتام، معظمهم ذوو أصول شرقية، والذي تكفَّلت برعايتهم الكاتبة الأمريكية، لقد أعجبت العائلة كثيرًا بسخاء السيدة «بَكْ»، وقرَّرُوا الآن أن يحتفظوا بهذه الطفلة التي اسْتُئْمِنُوا عليها، وأن يقوموا على تربيتها.

في ١٣ فبراير ١٩٦٠م اخْتَبَرَتْ فرنسا سلاحًا نوويًّا في الصحراء الكبرى، وفي ١٦ أكتوبر ١٩٦٤م نفذت الصين أول تجربة نووية بالنسبة إليها، وفي ١٧ يونيو ١٩٦٧م قامت بتفجير قنبلة هيدروجينية.

في عام ١٩٦٨م ذهبت «كوكو» إلى الولايات المتحدة مع والدها لتلتحق بكلية القرن الخاصة بالنساء في «هاكتستاون» في نيوجيرسي.

كان «تانيموتو» قد عاد إلى الولايات المتحدة في وقت سابق في ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥، عندما زار جامعته، جامعة «إيموري»، ثم سافر عائدًا لليابان عن طريق أوروبا، كما زار الولايات المتحدة أيضًا في ١٩٦٦م، حين حصل على درجة الدكتوراه الفخرية من كلية لويس وكلارك.

انتقلت «كوكو» لاحقًا إلى الجامعة الأمريكية في واشنطن دي. سي، وهناك وقعت في حب أمريكي من أصول صينية، وصارت خطيبته، ولكن والد خطيبها، الذي كان طبيبًا، قال بأنها وبسبب تعرُّضها للقنبلة الذرية لن تتمكَّن من إنجاب طفل طبيعي، ولأجل ذلك وقف في وجه انعقاد هذا الزواج.

وبعد أن عادت «كوكو» إلى اليابان مرة أخرى عملت في شركة تنقيب عن النفط تسمى «أديكو»، لم تُخْبِر أحدًا بأنها من «الهيباكوشا»، ومع الوقت وجدت أن بإمكانها أن تُفْضِي بالأمر إلى أعز أصدقاء خليلها، والذي تبيَّن في نهاية الأمر أنه الرجل الذي ستتزوَّج منه.

حملت، ولكنها أجهضت الجنين، الأمر الذي عَزَتْهُ هي وعائلتها إلى القنبلة، ذهبت وزوجها إلى لجنة ضحايا القنبلة الذرية (ABCC) لفحص صبغاتهما الوراثية، وعلى الرغم من عدم ظهور شيء غير طبيعي في الفحوص، فقد قرَّر الزوجان عدم محاولة إنجاب طفل، ومع مرور الوقت قاموا بتبنِّي طفلين.

في بدايات الستينات بدأت حركة مكافحة القنابل الذرية تنقسم وتتشظَّى، كان المجلس الياباني «غينسوكيو» تحت سيطرة الحزب الاشتراكي الياباني، والمجلس العام لنقابات العمال «سويو».

وفي عام ١٩٦٠م حاول هذا المجلس مَنْعَ مراجعة معاهدة الأمن المعقودة بين الولايات المتحدة واليابان، على أساس أن ذلك سيشجِّع عسكرة اليابان مجدَّدًا، وعندها ظهرت المزيد من الجماعات المحافظة مثل «كاكين كايغي»، والمجلس الوطني للسلام، ومكافحة الأسلحة النووية.

وفي عام ١٩٦٤م وقع انشقاق أكثر عمقًا حين اخترق الشيوعيون «الغينسوكيو»، مما تسبَّب في انسحاب الاشتراكيين

ونقابات العمال، وتشكيل مجلس آخر تحت اسم «الغينسوكين» ـ جمعية اليابان لمكافحة القنابل الذرية والهيدروجينية ـ.

بالنسبة «لتانيموتو»، وغالبية «الهيباكوشا»، فإن هذه المشاحنات قد بلغت مستوى عاليًا من العبث والسخف، خصوصًا حين دعا «الغينسوكين» جميع دول العالم إلى التوقُّف عن إجراء التجارب النووية، بينما ادَّعت «الغينسوكيو» أنه في الوقت الذي تُجْرِي الولايات المتحدة اختباراتها النووية استعدادًا للحرب فإن الاتحاد السوفييتي يُجْرِي اختباراته من أجل تحقيق السلام.

استمر الانقسام، وعامًا بعد عام عقدت كل مجموعة مؤتمرها الخاص في السادس من أغسطس.

وفي السابع من يونيو سنة ١٩٧٣م كتب «كيوشي تانيموتو» عمود «مقال المساء» في صحيفة هيروشيما «تشوغوكو شيمبون»:

«في هذه السنوات القليلة الماضية، ومع اقتراب يوم السادس من أغسطس، تبدأ أصوات الحسرة والأسف تتعالى لتشتكي بأن هذه السنة أيضًا ستنعقد المراسم التذكارية من خلال حركة سلامٍ منقسمة. . .

إن الجملة المنقوشة على نَصْب القبر المجوَّف التذكاري «ارقد بسلام؛ فإن الأخطاء لن تتكرَّر»، تحتضن آفاق أملٍ صادقٍ للجنس البشري.

إن مناشدة هيروشيما . . .

لا صلة لها بالسياسة.

وحين يأتي الأجانب إلى هيروشيما تجدهم كثيرًا ما يقولون: يجب على سياسِيِّي العالم أن يأتوا إلى هيروشيما، ويقلِّبوا النظر في مشكلات العالم السياسية جَاثِينَ على رُكَبِهم أمام نَصْب القبر المجوَّف».

في ١٨ مايو ١٩٧٤م أَجْرَت الهند أول تجربة نووية لها.

مع اقتراب الذكرى الأربعين لإلقاء القنبلة كان مركز هيروشيما للسلام لا يزال قائمًا، وإن بصورة شكلية في منزل «تانيموتو»، وكان مشروعه الرئيسي في السبعينات ترتيب عمليات تبنِّي الأيتام واللقطاء، والذين لم يكن لهم صلة فعلية بالقنبلة الذرية، وكان الآباء الذين يسعون للتبنِّي يعيشون في هاواي، وعلى البَرِّ الرئيسي للولايات المتحدة.

قام «تانيموتو» بثلاث رحلات أخرى إلى أمريكا لإلقاء بعض المحاضرات، ثنتان منها إلى بَرِّهَا الرئيسي في سنتي ١٩٧٦م و١٩٨٢م، والرحلة الثالثة لهاواي في ١٩٨١م.

ثم تَرَكَ مِنْبَرَ وَعْظِه في عام ١٩٨٢م، بعد أن تجاوز السبعين من عمره، كان متوسط أعمار «الهيباكوشا» اثنين وستين عامًا.

وقد أجرت صحيفة «شوغوكو شيمبون» استطلاعًا لرأي مَن تبقَّى منهم على قيد الحياة سنة ١٩٨٤م، فكان ٥٤٫٣٪ منهم يعتقدون بأن الأسلحة النووية سوف تُستَخْدَم مرة أخرى.

قرأ «تانيموتو» في الصحف أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كانَا يتسابقان بخطى متسارعة إلى تحقيق قوة الردع.

كان يتمتع هو زوجته «تشيسا» بمخصَّصات الإعانة الصحية المقدَّمة «للهيباكوشا»، كما كان يحصل أيضًا على راتب تقاعدي بسيط من الكنيسة المتحدة في اليابان، عاش في منزل صغير دافئ مع راديو، وجهازي تلفاز، وغسَّالة، وفرن كهربائي، وثلاجة، وكان لديه سيارة مازدا صغيرة مُصَنَّعَة في هيروشيما.

كان يأكل كثيرًا، وكان يستيقظ في السادسة من كل صباح، ويأخذ حصة من المشي بمقدار ساعة برفقة كلبه «تشيكو».

كانت قوته تتناقص قليلًا قليلًا.

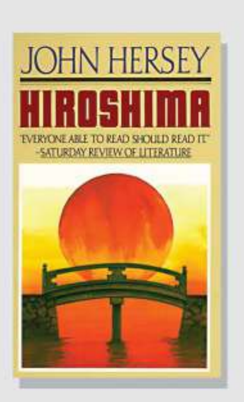
وأضحت ذاكرته ـ كحال هذا العالم ـ متقلِّبة.



جون هيرسي

وُلِدَ «جون هيرسي» في الصين في مدينة «تيانجين» سنة ١٩١٤م، وعاش هناك حتى ١٩٢٥م، ليعود بعدها مع عائلته إلى الولايات المتحدة، درس في جامعة «ييل» و«كامبريدج»، وعمل لفترة سكرتيرًا «لسنكلير لويس»، ثم صحفيًّا لعدة سنوات، نشر سبعة عشر عملًا روائيًّا، منها: «the Wall» (١٩٥٠م)، «a Single Pebble» (١٩٥٦م)، «the Child Buyer» (١٩٦٠م)، «the Call» (١٩٨٥م)، «Fling and Other Stories» (١٩٩٠م)، وقد فاز بجائزة «بوليتزر» عن روايته «a Bell for Adonon» (١٩٤٥م)، وبالإضافة إلى كتابه «هيروشيما»، والذي نُشِرَ في ١٩٤٦م، فقد كتب ستة كتب، وعددًا من المقالات والتحقيقات الصحفية، تَرَأَّسَ كلية «بيرسون» في جامعة «ييل» من سنة ١٩٦٥م وحتى ١٩٧٠م، ودرَّسَ في الجامعة حتى سنة ١٩٨٤م، كان رئيسًا لرابطة المؤلفين الأمريكية، ومستشارًا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، وتُوُفِّيَ «جون هيرسي» سنة ١٩٩٣م.

هيروشيما



هذا الكتاب – وإن كان روايةً حقيقةً لبقايا حياة ستة ناجين من كارثة القنبلة الذرية الملقاة على هيروشيما - إلا أنه لا يراد منه مجرّد «إمتاع» القارئ و«مؤانسته» بسرد تلك الحكايا، بل هو يمثِّل كفًا تطرقُ - بشيءٍ من العنف - صدرَ القارئ ليتنبّه لهذا الذي يراه حولَه من بؤسِ هذه الإنسانية حين تُوكَل إلى نفسها، وابتذالِها لقِيَمها متى ما تمكّنت من سَحْقِ مَن ترى فيه حَجَرَ عثْرةٍ لمصالحها.

مركز تكوين

***

"حتى هذا اليوم لا شيء يُخْبِر بمشاهد رعب هيروشيما على نحوٍ أفضل منه"

الواشنطن بوست

"مشهد من الجحيم، تذكِّر صورُها المزعجة بجحيم دانتي" التايمز

"كل من كان قادرًا على القراءة فيجب عليه قراءته" دورية السبت الأدبية

"يصعب علينا تصوُّر أن هناك أي كتاب أكثر أهمية للجنس البشري في هذا الوقت من هذا الكتاب"

نادي كتاب الشهر بأمريكا

ما هو النص الصحفي المفضل لديك؟ "هيروشيما لجون هرسي كان عملًا استثنائيًا"

الروائي الشهير غابرييل غارسيا ماركيز



www.takween-center.com
info@takween-center.com
@takweencenter
/takweencenter

٢٠ ريال
5.5 $